محمود مبروك

نافذة على القمر

رواية

رقم الإيداع

١٠٤٣٠/٢٠١٨

إهداء

إلى كل قلب أحب ... إلى أبي وأمي ... طيب الله ثراهما – إلى زوجتي .... إلى ابني وابنتي : هاني ودعاء، إلى كل أحفادي ......

إلى كل من نبذ الكراهية، ولم يكره في الدنيا سواها.

إلى كل قريب ... وكل صديق ... وكل جار

إلى أخواننا وأخواتنا في الإنسانية؛ المخلصين لها، والمؤمنين أننا جميعا لأدم عليه السلام ،

المؤلف

خلف الجدران

يوم رآها؛ لم يكن قد تخطى السابعة عشرة من عمره. لم يكن الحب قد داعب خياله، ولا خفق قلبه لأنثى أو شغلته هواجس العاشقين، كان مجدي يومها يطل من نافذة مسكنه في أحد الشوارع الفرعية في حي تسكنه الطبقة الوسطى بمدينة المنصورة، وظل يتابع حركة الحمالين خلال نقلهم للأثاث المحمل على إحدى السيارات المخصصة لنقل الأثاث، فيدخلون إلى نفس المنزل الذي يسكنه ويصعدون به إلى المسكن المجاور لمسكنه والذي يعرف أنه خلا قبل شهر من ذلك اليوم بانتقال محروس أفندي عبد الغفار؛ باشكاتب صحة المنصورة ليشغل نفس الوظيفة في صحة دمنهور...

شغلته المتابعة لحركة الحمالين صعوداً وهبوطاً، بينما انشغل بعض أفراد الأسرة الجديدة بإصدار التوجيهات، وإبداء الملاحظات، والصعود إلى المسكن لتلقي قطع الأثاث، ثم الهبوط من جديد للإشراف على دقة تنفيذ عملية التفريغ والنقل – ولاحظ فتاة في مقتبل العمر تقف على الرصيف المقابل، لا تشغل نفسها بشيء مما يدور من حولها، وتحمل في يدها حقيبة صغيرة، توقع أن تحوي متعلقاتها الشخصية التي تهتم بالحفاظ عليها بعيداً عن فوضى المنقولات الأخرى.

ويبدو أن الفتاة استكثرت على نفسها هذا الدور السلبي، فعبرت الشارع ودلفت إلى داخل المنزل، وعرف أنها صعدت السلم حين سمع والدته الطيبة المضيافة وهي تدعوها لاستراحة من عناء الطريق ووعثاء السفر في مسكنها حتى يكتمل صعود الأثاث وتتوفر لها إمكانية الراحة في شقتها الجديدة، وسمع صوتها وهي تعتذر شاكرة.

كانت والدة مجدي سيدة متفردة تجمع من الصفات ما لا تستطيع غيرها من بنات حواء جمعه، وتوفق بين متناقضات يعسُر التوفيق بينها؛ كانت في الأصل من ريف الجرايدة، أمية لا تقرأ، ولا تكتب حتى اسمها، وكانت ذكية لماحة، لم تغش المجتمعات الراقية ولم تنضم لتجمعات من أي نوع، لكنها كانت مركزاً لتجمع كثير من السيدات، يجتمعن على حديثها المتصل، ونوادرها الفكهة، وحكاياتها الشيقة، وكانت طيبة كريمة،

تحب الناس، كل الناس، لكنها كانت عصبية لا يؤمن لسانها حين تغضب، وكان صوتها عالياً يملأ فراغ "بئر السلم"، وكثيراً ما كانت تعقد حلقات نقاشية على الصدفة أمام أبواب الشقق الواقعة في نفس الدور، وأحياناً كانت نساء يسكنَّ طوابق أخرى ينضممن إلى هذه الحلقات، أو يوسعن دائرتها إذا انعقدت فوق سطح العقار أثناء نشر الغسيل، أو أمام (الفرن) الذي خصصت له غرفة، فتنفرد إحداهن أو تجتمع أكثر من واحدة على خبز الخبز وطهي صواني البطاطس "وأبرمة الرز المعمر" وشيّ البطاطا والجزر وغيرها، وكانت تجد في كل كلمة مثلاً شعبياً.

أيام وشهور مضت دون أن يرى مجدي جارته الجديدة، ولم يكن ذلك بمستغرب، من وجهة نظره حيث توقع إحاطة "محافِظة" من حولها فوالدها الشيخ خضر – هكذا كانوا يطلقون عليه – رجل جاد ملتزم، تنطق ملامحه بعلامات الورع والتقوى، لايكاد يسمع صوت المؤذن، حتى يكون قد هبط الدرج، وأخذ طريقه إلى المسجد على بعد خطوات في نفس الشارع ولابد أن يكون قد فرض ذلك المسلك على كل أهل البيت. ورأى في والدتها الصلاح؛ سيدة هادئة النفس تتمتم طيلة وقتها بأدعية وتعاويذ، وتمسك بمسبحة طويلة تحرك حباتها طول الوقت.

كما لاحظ وجود رجل في نهاية الثلاثينات من عمره توقع أن يكون شقيقها يمكن ضبط الساعة على حركته بالمغادرة في السابعة والنصف صباحاً، والعودة في الثانية والنصف ظهراً، إضافة لامرأة لابد أنها زوجته وطفلة في الثالثة من عمرها .. والجميع جادون ملتزمون لم تبدُ عليهم رغبة في الاختلاط المفرط بالجيران، ولم يستطع استنتاج الأسباب؛هل هي طبيعتهم؟ أم لجدة شَغْلِهم لمسكنهم، وعدم تعرفهم على طبائع الجيران.

ولفت نظره أن الفتاة لم تظهر على السلم أو من خلف النافذة، وكأن المسكن قد ابتلعها وتعجب أن تقبع فتاة في مثل هذه السن المبكرة خلف الجدران، وإن لم يكن ذلك يعني شيئاً بالنسبة له، لكنه تعاطف معها كما تعاطف مع نزلاء السجون.

ومضى الصيف بكامل شهوره، وساد الخريف الذي كان يعشق أيامه ذات النسمة الندية والغيم المحبب المؤجِّج لطاقات العقل الذي كان مجدي يقدره كقيمة عليا يوزن

بقدره الإنسان، وبدأت أيامه تنطوي مفسحة الطريق لقدوم الشتاء، ودب النشاط في الكون، وودعت المخلوقات الكسل ... وعاد الطلبة إلى مدارسهم ..

وفي أول أيام العام الدراسي الجديد؛ وبينما مجدي يقفز، ويطوي درجات السلم في خفة إلى مدرسته، رأى الجارة التي ابتلعها المسكن شهوراً. كانت تنزل على الدرجات متهادية على مهل، وقد ارتدت الجيب الأزرق والقميص الأبيض بينما وضعت البلوفر الكحلي على كتفها واحتضنت حقيبة الكتب وضمتها إلى صدرها، وقد بدت خاوية من الكتب والأدوات، ولما كانت تسبقه بعدة درجات، ومع حرجه من إلقاء التحية عليها إذا مر بها، وفي نفس الوقت؛ قدر أن مروره دون سلام يجافي الذوق، وما درج عليه الناس واعتادوه في ذلك الزمان حين كانت العلاقات الاجتماعية، ومقتضيات الجيرة، تفرض على الناس كثيراً من الالتزامات التي ترتقى إلى درجة التقديس، ووجد حلاًّ يخرجه من المأزق بأن أبطأ الخطى فحافظ على المسافة بينها وبينه، حتى انتهت من النزول، وغادرت المنزل، فانتهى في أثرها، ومضى كل إلى مقصده ...

*****

زملاء... ولكن.... !

"يا لحماقة مدحت، وغبائه الخارق، ويا لبؤسه وشقائه اللذين يتبليه بهما عقله السقيم وتفكيره العقيم". كانت هذه العبارة تلخص رأي شلة الأصدقاء، ومجموعة الزملاء الذين اقتربوا من مدحت، أو تعاملوا معه في الحي الذي يسكنه، أو في الفصل الدراسي بمدرسة المنصورة الثانوية بالقسم الأدبي الذي اختاروه عن قناعة وثقة بأنه طريقهم لأن يصبحوا أدباء، وفلاسفة، أو صحفيين، ورجال فكر وسياسة. وبدأوا بالفعل يتقمصون شخصيات الشعراء والكتاب فينخرطون في حلقات نقاشية، ويختلفون حول قضايا فلسفية، ربما كانت أكبر من طاقاتهم، لكن معظمهم – على أية حال – كانوا واسعي الاطلاع، متفتحي المدارك وفرت لهم قراءاتهم قدراً من الثقافة يفوق مستويات أعمارهم، وساعدهم على ذلك تبني مدرستهم لأنشطة ثقافية متميزة، من إذاعة مدرسية، ومسرح جميل، ونادٍ ثقافي ونادٍ للغة الإنجليزية كما وفرت لهم فرصة الاستعارة من مكتبة جيدة الإعداد .. وكان فريق الكشافة يزود أعضاءه بكثير من القيم والمثل والاحتمال والمثابرة، كما أشرف مدرس اللغة العربية لفصلهم على جماعة الصحافة وإصدار مجلة حائط، فكان انخراطهم في كثير من هذه الأنشطة يبث فيهم ثقة في النفس، مستحقة أحياناً، ومبالغ فيها أحياناً أخرى.

ولم تكن كل هذه الوسائل قادرة على تحقيق التماثل، أو حتى التقارب الشديد بين شخصيات الزملاء وإنما بقيت لكل منهم عناصر خاصة في تكوين شخصيته، بداية من الجينات الوراثية إلى عوامل البيئة التي نشأ فيها، إلى ميله الشخصي لمنهل من مناهل الفكر والثقافة بدرجة تختلف عند كل زميل عن الآخر وقدرة على استيعاب ما يحصله منها متباينة بين أفراد المجموعة.

كان مجدي ذا شخصية متزنة، ومتوازنة، وكان واسع الإطلاع، قادر – برغم نحفه الشديد والذي يوحي بضعف بنيانه – على جمع شتات مصادر المعرفة، والمشاركة في كثير من الأنشطة؛ ففي المكتبة يقضي نصف الساعة المخصصة لـ

"الفسحة" بين الحصص، بينما يقضي النصف الآخر مشاركاً لزميل في لعب تنس الطاولة، أو حضور اجتماع لفريق الكشافة، وفي "الفسحة" الصغرى يُحضِّر بسرعة لما يتلقاه في الحصص التالية، بحيث يكون على معرفة بما يرغب في توجيهه من أسئلة للمدرسين، كما يبدو من مناقشاته وأسئلته متميزاً في تقدير المدرسين له .. وفي البيت كان وقته يتسع للمشاركة في إعداد صحيفة الحائط، ومراجعة سريعة لما تلقى من المواد الدراسية ثم حضور عرض سينمائي مرة أسبوعياً، كما يستقبل ضيوفاً من الأهل أو أصدقاء العائلة، في يوم آخر، وزيارة لآخرين في يوم ثالث .. واتسع وقته للقاء زملائه وأصدقائه مرتين على الأقل في كل أسبوع، ومتابعة البرامج الإذاعية وخاصة أحاديث رواد الثقافة من أمثال الدكتور طه حسين، وفكري أباظة وبعض من البرامج الثقافية والترفيهية...

كان مجدي في لقاءاته مع أصدقائه يستعرضون قراءاتهم لـ شاكسبير وديكنز، وفوليتر وتولستوي، ويباشرون نقدهم لما قرأوه طبقاً لما تعلموه من قواعد النقد في قراءاتهم لـ "تي – إس – إليوت" والدكتور رشاد رشدي، والدكتورعبد القادر القط ... وغيرهم كانوا يتفاخرون بانتسابهم لتخصص اللغة الإنجليزية، وإجادتهم لها أكثر من كافة زملائهم في نفس المستوى الدراسي.

كان صابر هو الند الوحيد لمجدي، تمتع بقدرة على القراءة تلتهم الكتب في أوقات قياسية وكان يلخص ما يقرأ، ويعلق عليه ويستخرج منه الحكم والأمثال والتشبيهات والاستعارات ويسجلها في أوراقه، وكان جاداً تعلو ملامحه حدة ... عفيفاً إلى درجة مبالغاً فيها حتى أنه لم يكن يقبل دعوة إلى كوب من الشاي أو غيره، ولم يكن مجدي يضغط عليه في ذلك حتى لو طالت استضافته له لساعات تفرضها طبيعة مناقشاتهما، حيث قدر بذكائه، أنه كان يمتنع عن تلقى ما قد تمنعه ظروفه من رده بمثله، حيث كان يتيم الام، تزوج أبوه – بسيط الحال – بعدرحيلها من أخرى أصبحت زوجة أب، لم يفصح مرة عن تفاصيل تعاملها معه، ولكن صديقه المقرب مجدي استنتج ذلك كلما رآه كسير النفس، قليل الابتسام...

وكان صابر على خلق وأدب، مخلصاً في صداقته، عف اللسان، تعبيراته دقيقة ومنمقة وفكره مرتب ومنطقي، متحفظ في تعبيراته، فهو رغم إلمامه بكثير مما يبديه في آرائه، ولم يكن قاطعاً في تعبير، وإنما يترك دائماً فرصة لاحتمالات الخطأ، أو تكشُّف مغيرات لم يكن على دراية بها. فكانت آراؤه مطعمة بمرونة تتمثل في كلمات مثل: "تقريبا .. يمكن ... جايز". إلى آخر مثل هذه الكلمات التي تتلافي مزالق الإختلاف البين، وكان يكرر الاستشهاد بمقولة الإمام الشافعي: "رأيي صواب يحتمل الخطأ – ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب"، كما كان يرد على من ينتقد استعماله لكلمات الحذر الزئبقية – كما سماها البعض – بأن الظروف ربما تغير الأحوال.

ولأن صابر لم يكن في نفس المدرسة فقد كانت صداقته في الأساس لمجدي، وبالتبعية لبعض زملاء مجدي المقربين، وعلى أية حال، فقد كانت درجة مخالطته لغيره متدنية، عفوية التحقق، على فترات متباعدة، خاصة خلال شهور الدراسة...

أما زملاء الفصل فكثيرون وكلهم يقدرون مجدي ويحترمونه، ولكن درجة القرب تتباين فبينما كانت الزمالة هي كل ما يجمعه بالأكثرية، تخطت علاقته بكل من مدحت وسعيد حدود الزمالة وشكلت صداقة متينة كما كان الحال فيما بينه وبين كل من سمير وزكريا من خارج الفصل الدراسي...

أما سعيد فمرح، مهرج، لا يعينه من أمر الدنيا إلا ما يمنحه فرصة لضحكة أو قهقهة ملء الفم، لم يكن يترك فرصة لتعليق ساخر، أو قفشة مضحكة إلا والتقطها فوراً وكان سعيداً بفلسفته في الحياة حيث ينظر إليها بمنظار وردي، ويصيح في زملائه بمناسبة، وبغير مناسبة: "إضحك تضحك لك الدنيا" ثم ما يلبث أن يلحقها بالحكمة الصينية القائلة: إن الشخص الذي يضحك، أسنانه بيضاء – لقد أصبحت الدنيا أعقد من أن نزيدها نحن تعقيداً، وكان يسخر من الجميع حتى نفسه، لكن أغلب سخريته كانت من زميله مدحت الذي لم تحنقه في الدنيا قدر أفكار سعيد و:"فشته العايمة، عمال على بطال" وكان يراه مسطح الفكر، هشَّ الرأي، بعيداً عن الحكمة، كان يعترف أنه خفيف الظل ولكنه أحمق، ولم يكن مدحت نفسه إلا أحمقاً دائم الشرود، مشتت

الفكر، مشغول البال، لا يركز في فكرة حتى يصل فيها إلى رأي، سارحاً بخياله إلى المجهول، رغم ما كان يراه في نفسه من حكمة وسداد للرأي، وقدرة على التحليل، وكشف أستار الطبيعة. كان تكوينه الجسماني يوحي بطيبة – هي حقيقية في صفاته – كما ينبئ عن درجة من السذاجة فكان بدينا، يتدلى بنطلونه تحت بطنه، وكان يشمر أكمام قميصه بطريقة عشوائية، وكانت في صوته الخفيض بحة خفيفة، وفي تقاطيعه انفراج مع نظر مشتت، وكان إبناً لأسرة ريفية ميسورة الحال وهبته فرصة العيش الناعم والحياة الرغدة في المدينة حين تنتقل إليها الأسرة خلال العام الدراسي لرعاية الأبناء؛ مدحت، وشوكت، وعُلا ... ومهدت له وسائل الراحة والرفاهية في الريف حيث أرض أبيه و"دوار" العائلة، يقضون فيه شهور العطلة الصيفية، يحتمون من ضوضاء المدينة ويبتعدون عن تعقيداتها، ويلتمسون فيه الاستجمام، والراحة لنفوسهم وأجسادهم.

عاش مدحت إذن في كنف اليسر بالمدينة، وظلله المال والجاه بالقرية، وعاشر أوساطاً مختلفة من الناس، وعاش ألواناً متباينة من الحياة، كانت كفيلة بتوفير تجربة تولد فكراً مقبولاً ... إلا أنه أجهد فكره في محاولة لفلسفة كل ما تقع عليه عيناه، وصمم على أن يعي ما لم يخلق ليعيه أمثاله، واستهلك عقله في محاولة لمعرفة كل شيء، فلم يعرف شيئاً! لم يحز تفكير أحد قط رضا، ولم يلق تفكيره قبولاً من أحد قط، وفسر زملاؤه وجومه وشروده الدائمين على أنهما من دلائل البلاهة، وإمارات الغباء. ساعدهم على ذلك محاولته الدائمة لفرض رايه في كل قضية تطرح بينهم للنقاش.

كانت بدانة مدحت، وكانت البحبوحة التي عاش فيها من علامات السطحية، ورموز انعدام الحكمة التي كانوا يرونها في النحافة. وبروز العظام أحياناً في بعض مناطق الوجه والجسم، فالعبقري – بالضرورة – متآكل الجسد، ضئيل القد، منحوت الملامح، نحيل الشعر، وقد يرتبط ذلك كله بهزال أو ضعف في الإبصار أو السمع، كما كان الفقر حافزاً على الإجتهاد والعطاء. ألم تكن هذه معظم صفات برناردشو؟ ألم يكن أديسون ضعيف السمع، وهكذا كان بيتهوفن؟ كل الفلاسفة والمبتكرين والفنانين كانوا هكذا .. أو فعل بهم الفكر هذا .. لذا حذفوا اسمه من قائمة العباقرة، وضنوا عليه

حتى بالمجاملة ومجاراته في تقييمه لنفسه، بيد أن سعيد اختلف مع الجميع في إضافتهم صفة الصحة الجيدة إلى موانع العبقرية وعرض نفسه كنموذج للجمع بينهما، وكثيراً ما حرك عضلات يديه بطريقة استعراضية فكهة بينما يكرر: العقل السليم في الجسم السليم، قد يكون مدحت استثناءً، لكن القاعدة تنطبق عليّ بكل تأكيد..

ولما كان مجدي، دائم التفوق على أترابه، متصدرًا لقائمة الترتيب في مجموعته، ولما كان أساتذته دائموا الإشارة بتفكيره السديد، وعقله الراجح، فقد كان مدحت يهتم كثيراً؛ كان الضيق يتملكه عندما يسخر منه ولو هازلاً، وكان الرضا يطغى على ملامحه حين يمتدحه ولو تملقاً، وكان مجدي نموذجاً لصفاء الفكر ونقاء الروح، كان لماحاً متقد الذكاء، واسع الإطلاع، وكان يجمع مجموعة من الصفات الطيبة قل أن يهبها الله لإنسان واحد، فقدمت عليه السماء بخفة الظل، وفصاحة القول، وكان وفياً يعترف للناس بفضلهم وجميل صنيعهم حتى مع غيره .. كان ودوداً طيب العشرة، اجتماعياً بكل ما تحمل الكلمة، معتزاً بنفسه في غير خيلاء، متواضعاً بلا هوان، متمسكاً بكامل كرامته، ينأى بنفسه عن مواطن الزلل، ومواضع الخطأ، يقدر لقدمه قبل الخطو بها ... لكن صفاته الجسمانية وملامحه لم تكن تكمل الصورة، فالكمال لله وحده، كان طويلاً، شديد النحافة، وكانت شفتاه إفريقيتان غليظتان، وكان شعره كثيفاً شديد التجعيد ولم يخل وجهه من حب الشباب وآثار خفيفة للبهاق، ولم تكن إمكانيات أسرته تسمح له بأناقة زائدة، ولاهي حرمته من مظهر مناسب، وملابس عادية مما يلبسه أواسط الناس ...

وهكذا اختلفت ملامح شخصيات الزملاء صابر، ومجدي، ومدحت، وسعيد، وانفرد كل منهم بخلطة مغايرة من هذا الصفات فلم تجتمع أكثر من صفة واحدة أو اثنتين في زميلين أو أكثر .. وهكذا كانت أنماط شخصيات كل منه صفوت وعبد الهادي سكر، ومحمد عبد الواحد، وحسن القباني، وبقية الزملاء في ذلك الفصل العجيب. ورغم التباين، واختلاف نظرة كل منهم إلى كثير من الأمور، ورغم تعدد مدارسهم الفكرية – أو هكذا حلا لهم أن يكرروا – إلا أن حباً كبيراً جمعهم، وترابطاً شديداً

ضمهم. كانوا حقاً على درجة عالية من التحاب والتضامن وكانت صداقتهم قوية، والرابطة التي جمعتهم شديدة لا تنفصم عراها وكان من ورائها انتسابهم للقسم الأدبي الذي شكل حلفهم المقدس، وكم كان عاتياً في مواجهة غيرهم من طلاب القسم العلمي.

بيد أن صداقة مجدي مع كل من مدحت وسعيد كانت الأقوى على مستوى زملاء المدرسة، فقد كانت مقاعدهم في الفصل متجاورة منذ التحاقهم بالمدرسة الثانوية قبل أربعة سنوات إلي حد أن أحداً إذا سال عن أحدهم نصحه المسئول بالبحث عن أي منهم لأنه لو عثر عليه لوجد الثلاثة بنفس المكان. كانوا معاً في فصل الدراسة، وكانوا معاً في النادي المدرسي ... معهاً في المقصف أو في معسكر الكشافة .. كما كانوا معاً خارج المدرسة، في السينما أو التريض والنزهة الخلوية أو في مواجهة على طاولة التنس، وقليلاً ما جمعتهم جلسة للاستذكار ومراجعة الدروس. لذا أطلق عليهم الزملاء اسم: التوائم.

مضت بهم الحياة رقراقة كقارب على سطح ماء مستوٍ هادئ، لا تعرف الرياح والأنواء طريقاً إليهم، مستقرة نفوسهم، ناعمة أيامهم، سعيدة أحلامهم تدفق شحنات من التفاؤل بغد مشرق، مبتسمة بأحلى أمنيات السعادة في مستقبل واعد ...

وفجأة هبت ريح لم يستوضحوا اتجاهها، ولم يستبينوا مصدرها في البداية، لقد تغير مدحت كثيراً وأصبح ميالا للعزلة والوحدة، حتى عن مجدي وسعيد، بل لقد فقدوا عدد من الزملاء الأقل قرباً عنهما نتيجة لتصرفاته الغريبة التي لم يتبينوا دوافعها، وشعر مجدي بوجد دوافع وراء تصرفات مدحت الطارئة فكل تغيير تحدثه أسباب، لكنه تعجب، وشاركه في العجب من تهرب مدحت من الاجتماع بأحدهما، ثم الهروب من الإجابة عن أي سؤال إذا فرضت الظروف عليه، التواجد مع أحدهما، والمراوغة وسد كل المداخل بما لا يدع لمحدثه فرصة الاستمرار في الحديث، حتى بدأ صديقاه الحميمان يضيقان بسخافاته، وأصبحت علاقتهما به قاصرة على التواجد في حصص الدراسة .. ومضى مدحت إلى انطواء أشد، وانحدر إلى غباء أعظم!

****

جنة البلهاء

"في الحديقة الواسعة، ذات الأشجار المورقة، والظلال الوارفة، طيور مغردة، وزهور متفتحة. الكل يستمتعون بالشذى الفواح ويستنشقون النسمة العليلة ويتكئون على أرائك من ذهب، يرتدون ثياباً خضراً نسجتها يد الملائكة من حرير. القلوب سعيدة، والنفوس مطمئنة وكل الكون هو هذه الجنة الخضراء. الجميع من بني البشر يسعدون بجمالها، لا مجال في حياتهم للشقاء ولا مكان إلا للسعادة والهناء..."

وحين وصل مجدي إلى ذلك السجع قاطعه صوت من الحاضرين:

- أيوه ياسيدي، سمعنا كمان والنبي سمَّع.

وصاح طالب آخر:

- قطع في قلوبنا يا خويا قطع.

واسترسل الجميع، كل بما أفاءت السخرية عليه من مصطلحات التهكم والعبارات المستهزئة بعقلية الكاتب الفذ والعاشق الولهان الذي كتبها ... أما مجدي فقد ابتلع لعابه ومضى يكمل قراءة الخطاب الذي أمسكه بيده:

"ولكني أنا .. أنا وحدي طُردت من هذه الجنة، وبقيت وحيداً خارج الأسوار مع الخوف والشك والندم. لقد طردني الملاك الذي أضناني عشقه، وافتننت بحبه. طردتني أنت يا سامية.

ومن جديد عاد الطلبه يقاطعونه، فصاح أحدهم:

- حلو يا أبو مدحت يا عفريت، وعرفنا اسمها كمان.

ولكن سعيد بطريقته الساخرة طالبه بالسكوت:

- استنى يا أخي دلوقتي لسه حانعرف اسمها بالكامل وعنوانها وهي في سنة كام ... أمال إيه دا مدحت النابغة.

ودخل مدحت إلى الفصل لتصعقه المفاجأة المفجعة، إذ كيف تجرأ زملاؤه على فتح حقيبته ليعثروا على ذلك الخطاب الذي سطره بدموعه؟ ثم كيف وصلت البجاحة

بأحد زملائه الذين توسم فيهم الإتزان – وهو مجدي – إلى حد قراءة الخطاب بذلك الصوت الجهوري وكأنه أحد النصوص المقررة أو درساً من دروس المطالعة.

احتقن وجه مدحت، وتخضب بحُمرة الغضب الممتزج بالخجل، ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة حمقاء، أراد بها أن يثبت عدم اكتراثه .. وكادت مناقشة تبدأ حول الموضوع لولا أن دخل المدرس وبدأت الحصة التالية، وساد الصمت، واندمج الجميع مع الشرح المتمكن الذي اشتهر به الأساذ ادوارد مدرس اللغة الإنجليزية ... وانتهى الدرس المجهد الممتع، وبدأوا ينتظرون درساً من نوع آخر لا يحمل سوى الفكاهة حتى حلا لهم أن يسموا هذه الحصة "ساعة لقلبك" من كثرة ما كانوا يضحكون خلالها وينسون همومهم ... بدأوا ينتظرون الأستاذ عبد الغفار الأسيوطي مدرس الفلسفة والذي اشتهر حتى بين زملائه باسم المعلم حشكل وهو الإسم الذي اختاره له الطلبة وصمموا عليه ... ولم يكن في ذلك كثير مبالغة، فهو مفرط في كل شيء؛ في القصر، وفي السمنة حتى أن عرضه بدا أكبر بكثير من طوله، وبطنه تتدلى بارزة أمام جسمه، ومن تحتها كانت ساقان قصيرتان ممتلئتان تتكبدان مشقة حمل ذلك البنيان غير المتناسق، وكان مفرطاً أيضاً في سلاطة اللسان لا يتردد قط في أن يلعن "سنسفيل جدود أي حمار من بيئة واطية ما يحترمش نفسه، ويقعد في الحصة أذل من الجزمة القديمة".

وطال انتظار الطلبة ولم يصل المعلم حشكل، ومع أنه كان قد عودهم على دخول الفصل قبل أن يدق جرس ابتداء الحصة، ومع أن ذلك الجرس كان قد دق منذ أكثر من ربع الساعة إلا أنهم لم يصدقوا أنه غائب، فلم يكن ممن يحتمل أن يصيبهم المرض، ولا ممن يسافرون قياماً بواجب أو أداء لمصلحة، ولم تكن لتعوقه شئون أسرته عن الحضور – هذا إذا كانت له أسرة أصلاً وكان مجرد ذكر اسم المعلم حشكل يدفع بالضحك إلى أعماق كل الطلبة فهم يتخيلون منظره الغريب ومظهره المخجل ببنطلونه الأخضر القاتم .. وجاكتته السوداء التي تزينها بقع الزيت ويكسوها غبار الطباشير وكان أسوأ ما في مظهره تصميمه على استعمال رباط العنق مع أن قيمصه "سبور" مفتوح الياقة، وكان حذاؤه رفيق عمره منذ الصبا، ولا جورب إلا في المناسبات التي

يحمل التاريخ ذكرها، أما حمالة البنطلون فكانت في نظره غير كافية – لحمله مما دفعه دائماً إلى إضافة حزام جلدي عتيق كان مدعاة لفخره دائماً "بالشغل العمولة بتاع زمان".

وبينما أشار أحد الطلبه إلى مدرس آخر مقبل في اتجاه الفصل، هتف بطريقة كتلك التي كانوا يستخدمونها في المظاهرات:

- يعيش المعلم حشكل.

ورأي الجميع ذلك المدرس فأيقنوا أن غاب المعلم ولا ريب، فهتفوا من أعماقهم:

- يعيش المعلم حشكل.

ودخل المدرس الإضافي – ودون ما كلمة واحدة – جلس ينفخ في الهواء فيخرج حمماً تنم عن جوف ملتهب، وكان هذا دأب كل مدرس إضافي يكلف بسد مكان زميل آخر، إذ ما ذنبه في أي يحل محل زميل وهو يكاد يعجز عن تغطية جدوله الأصلي؟

وكان على الطلبة أن يعوضوا المرح الذي فاتهم بغياب المعلم حشكل، فارتفعت الأصوات بالنكات المرحة، وتعالت الضحكات من الأعماق، وتجمع الطلبة في مجموعات ضم كل منها مجلس لهو أو حلقة من حلقات المناقشات البيزنطية التي لا تنتهي إلى شيء، ولمح مجدي صديقه مدحت وقد انتحى بنفسه ركناً قصياً جلس فيه بمفرده، وأخذ يجول ببصره في الفضاء المترامي خلف زجاج النافذة القريبة من مقعده، وكأنه يبحث عن أمل ضائع ... فاتجه إليه، وناداه أكثر من مرة حتى تنبه مدحت إلى وجوده، ونظر إليه نظرة ملؤها العتاب والاستنكار، ثم أشاح بوجهه عنه وعاد إلى تأمله الأبله بينما كلم مجدي بصوت متحشرج دون أن يلتفت إليه من جديد:

- إنت جرحتني جرح كبير قوي يا مجدي.

وتعجب مجدي من جدية مدحت في الأمر وتساءل في تهكم واضح:

- جرى إيه يا مدحت إنت اتجننت يا ابني ولا إيه؟ جرح إيه بقى يا سيدي اللي أنا جرحته لك إن شاء الله؟

ورد مدحت في لوعة وأسى:

- انت لسه بتنكت يا مجدي؟

وأجابه مجدي مستهزئاً:

- بلاش نقلبها حزايني ... إحنا أصلنا في جنازة.

ثم تساءل فجأة متظاهرا بشيء من الاهتمام:

- إيه صحيح حكاية الجنة دي اللي الناس كلهم فيها ماعدا أنت؟ مش كفاية كلنا نجحنا في امتحان الفترة الأولى إلا أنت؟ إنت دايماً مخالف كده يا أخي؟

وكأنما خاب أمل مدحت كلية في صديقه:

- مجدي .. أنا كنت أحسبك أحسن من كده كتير؟
- لا أحسن من كده بقى ما يجيش .. أنا طالع الأول، طيب قوللي بذكاءك الخارق .. أحسن من كده أطلع إيه؟

ثم مضى وكأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه:

آه تكونش فاكر ان الثاني أحسن من الأول .. وعشان كده طلعت الثلاثين على الفصل؟

وطأطأ مدحت رأسه:

- الحكاية مش حكاية أول وثاني .. الـ ....

وقاطعه مجدي:

- أمال حكاية إيه يا فالح؟ حكاية عواطف ملتهبة وطيور مغردة ياروميو؟
- إنت إنسان من غير قلب.
- من غير إيه يا أخويا؟ من غير قلب؟ آه، ما احنا في أدبي وما نعرفش حاجة عن وظائف الأعضاء.

وفي يأس تساءل مدحت:

- إنت ما تتكلمش جد مرة واحدة في حياتك يا مجدي؟

واستنكر مجدي منه هذا السؤال فأجابه معنفاً:

- جد؟ يعني علشان أتكلم جد، أقول انهم كرشوني من الجنة؟ والناس كلهم جوه قاعدين على كراسي دهب ولابسين حرير، وبيشربوا شمبانيا ومش عارف إيه ... وأنا واقف

بره زي الشحاتين؟ وعلى كل حال إذا كان كلامك صحيح، أبقى أنا من أهل الجنة، ولا عايز توقفني بره معاك بحكم الصداقة؟

ثم أمسك بذراعه، وهزه في رفق:

- يا مدحت يا خويا .. فوق .. فوق وبص حواليك تلاقينا كلنا قاعدين في فصل في مدرسة المنصورة الثانوية، فصل أربعة متر في أربعة متر، حيطانه مهدمة، وأدراجه مخلعة وأبوابه مكسرة. التختة اللي قدامنا مقيحة والطباشير اللي بيجيبوه لنا معمول بالمسلح بيخربش السبورة يطلع اللون الأسود الباهت اللي داهننها بيه .. وتلاقي ما حدش قال للمدرسة إنتي فين من يوم ما اتبنت آدي لها أكتر من أربعين سنة.. بص كده .. حاتلاقي عيشتنا ضنك وقرف؛ فهم وحفظ، وتسميع وامتحانات شفوي على تحريري، ومفتشين أكتر من المدرسين .. مولد يا مدحت ... يبقى مش لازم احنا نزودها بمواجع الغرام، وآهات العشق. لازم نضحك يا مدحت بدل ما نفرقع ونموت وما تفتكرش انت بس اللي بره الجنة، أبداً كل بني آدم بره الجنة من يوم اللي ربنا لا يكسبه إبليس ما ضحك على آدم وأكله من الشجرة المحرمة. واحنا نحمد ربنا اللي اتخلقنا لقينا نفسنا على الأرض، الله يكون في عون آدم اللي شاف الجنة وعاش فيها، وبعدين حوا الله يسامحها هي اللي جابته الأرض، وبعد آلاف السنين طلع له ابن اسمه مدحت عايز يعيد التمثيلية بست سامية بتاعته.

واستوقفه مدحت محتجاً:

- لا وقَّف. ما لكش دعوة بسامية ولا بعايدة.

ولاحظ مجدي علامات التأثر مازالت مرتسمة على ملامحه فداعبه مازحاً:

- الله ؟! انت تعرف كمان واحدة اسمها عايدة؟ دا أنت واد جن واحنا مش عارفين.
- والنبي يا مجدي أنا مش فايق لك. سيبني في حالي وخذ نصيبك.
- طيب هات نصيبي. إيه واحدة حلوة كده زي سامية؟ أنا فاهم انت عرفتها امتى دي؟ هو أنا وسعيد بنسيبك إلا ع النوم عِدِل؟

ولاحظ سكوته وشروده من جديد فأعاده من ذلك الشرود بوكزتين في كتفه.

- ما ترد ... ردت الميه في زورك. أنا باكلم نفسي؟

ورد مدحت في حنق وضيق:

- إيه يا قطران انت بس عايز إيه؟

وكأنما الكلمة قد صعقت مجدي الذي فوجئ بها فلم يكن مدحت قد اعتاد أن يخاطبه بمثل هذا التوبيخ، ولكنه كان يود الاستمرار في هذا الحديث مهما كان لونه فتساءل مبهوتا:

- قطران؟ أنا قطران يا زفت مغلي. بقى علشان كده كنت بتسرح واحنا في السينما، عايز تقلد البطل. تقرا رواية، تدخل العملية في نافوخك. عايز تبقى دون جوان وتكون النتيجة زي ما انت شايف. خيبة أمل كبيرة ياسي مدحت.
- أفهم من كده إنك ما بتعترفش بحاجة اسمها حب؟
- تبقى ما بتفهمش .. أنا با أحب أمي وأبويا وأخويا ... با أحب الأفكار الجديدة والأدب الراقي .. باحب مستقبلي وبأتعب علشان أبنيه بُنا متين .. بأحب حاجات كثيرة قوي يا مدحت. السينما وكرة القدم .. اللحمة المشوية وكفتة الجمبري .... وقاطعه مدحت في ثورة واضحة.
- إيه هودا؟ هو أنا سفرجي باسألك تاكل إيه؟ أنا باسألك عن الحب للجنس الثاني ...
- وهي يعني أمي... جنس أول؟

وكادت أعصاب مدحت أن تنفلت منه، لولا أن أمسكها في جهد واضح، وسأل مجدى:

- لا أنا أقصد أسألك، إنت عمرك ما فكرت في واحدة تكون شريكتك في مستقبلك، تحبوا بعض وتعطفوا على بعض، تفرحوا لفرح بعض وتزعلوا لزعل بعض و...
- بس ... بس ما هي الأوصاف دي كلها تنطبق على والدتي.
- أنا عارف إني مش حا أوصل معاك لأي نتيجة، لكن بكره الحب يعرف طريق قلبك ويزوره وأكون أنا ساعتها من طلبة السنوات النهائية في مدرسة الحب، وتيجي تسألني وتاخد رأيي. وساعتها مش حا اتريق عليك. إنما حا أساعدك.

- لا تشكر يا أخ. قلبك فيه الخير برضه. طول عمري بأقول عليك حنين يا مدحت .. بقى واحد حر أربعة وعشرين قيراط، يروح يخش السجن برجليه، وكمان يصمم على تأبيدة؟ وتقول إيه لو شفت طير داخل القفص بنفسه، وبعدين يقفل وراه الباب؟ طبعاً جنون يا مدحت، واللي بتعمله دلوقت إنك حكمت على نفسك بالسجن المؤبد مع النفاذ. صحيح أنا عمري ما جربت الحب، لكن عمري ما حا فكر أجربه, لأنه مصيبة مسيحة بتنزل على دماغ اللي بيحب.

ثم أطرق مجدي لحظة قبل أن يستأنف الحديث فجأة، محولاً إياه في اتجاه آخر:

- على فكرة مين سامية دي يا مدحت اللي دوختك بالشكل المرعب ده؟
- عايز تعرف صحيح؟
- يا ريت.
- علشان تنشرها بكره ف الجرايد؟

وأعجبه تعليق مدحت ودعابته التي أطلقها رغم الأسى الذي ما يزال يغلب على نبرة صوته فضحك لحظة ثم قال والضحك يمتزج بالأسى:

- لا والله يا مدحت .. الحاجة اللي انت تقولها لي بنفسك تبقى سر انت ائتمنتني عليه ولا يمكن يطلع بره أبداً ...

وأحس مدحت – في سرعة – بالأمان من تأكيد صاحبه علاوة على أنه كان بحاجة حقاً إلى إنسان – وربما إلى مجدي بالذات – ليخفف عنه عناء ما يحمل، كان يحتاج إلى إنسان يسمع منه قصته ويريحه من الحمل الذي أرهق قلبه وعقله .. كان بحاجة إلى رأي مخلص أو مجرد أذن صاغية، تتلقى كلماته الحزينة:

- هي تلميذة في المنصورة الثانوية للبنات، وقريبتي ف نفس الوقت، وكانت بتيجي عندنا البيت مع مامتها كتير، وف مرة استأذنت منهم علشان أروح السينما وعلقت مامتها وقالت لي: يا بختك، فقلت لها اتفضلوا معايا، وقالت متشكرة مرة، ولما كررت عليها الدعوة قبلت وجت هي وسامية معايا وسهرنا، ووصلتهم البيت بعد السينما..

وقاطعة مجدي:

- كانت حفلة الساعة كام؟
- من تسعة لاتناشر.
- الله أكبر، وبسلامته الوالد كان فين؟

وأجاب مدحت في بلاهة:

- والدي ما بمنعنيش أروح السينما وأرجع في أي وقت.

وحين انتهى مدحت من جملته، رأى مجدي ينظر إليه متعجلاً لذلك الإنتهاء في ازدراء وتساؤل عما بداخل رأسه العفن ثم قال:

- يا دمك يا أخي. أنا مالي ومال والدك؟ .. أنا بأقول على والد المحروسة اللي سايبها تسهر بره مع شحط زيك لبعد نص الليل.
- لا والدها متوفى أولاً، ثانياً، والدتها كانت معانا.
- واخواتها؟
- مالهاش.
- وخالها .. عمها ... أي حد ما فيش رجاله في الفاميليا المحترمة.
- ماهو والدي يبقى خالها ...

وتدارك مجدي في خبث، ثم حث مدحت على التكملة:

- آه. قلت لي. أنعم وأكرم يا أفندم، وبعدين ياسيدي، بعد السينما يعني علشان تبقى فاكر.
- بس.
- بس؟ بس إيه؟ كلمتها إزاي؟ قلت لها إيه؟ ردت عليك بإيه؟
- ما شفتهاش تاني بعد السينما.

وأحس مجدي بمزيج من السخط والشفقة على هذا الأبله بينما ساوره شيء من الشك في أن يكون ذلك البله متصنعاً أو مبالغاً فيه حتي يكتم مدحت سره عنه فصرخ فيه معنفاً:

- اسمع يا واد انت. بقى انت حا تسوق الهبل على الشيطنة عليَّ أنا؟ أنا أهبِل بلد زيك، بقى أنت عايز تفهمني ان كل اللي حصل إنك عزمت البنت وأمها على السينما وبعدين وصلتهم بيتهم وبعد كده ودغري قعدت تكتب في جوابات غرامية وتسهر الليل ما تنامش وتفتح الكتاب تلاقي صورتها بدل النحو والبلاغة، ولاقيت نفسك تيجي تذاكر معايا أنا وسعيد تقعد زي اللي واكل بلم؟

ثم غير لهجته فقال مدعباً وكأنه يحدث طفلا في الرابعة:

- عيب يا مدحت ... عيب يا حبيبي .. قول لي اللي حصل وأنا أجيب لك حاجة حلوة.

واستاء مدحت من شك صديقه في صراحته المطلقة معه فتساءل مستنكراً:

- هو أنا خايف منك؟ ولا أنا حكيت لك الكلام دا غصب عني؟ والله يا شيخ ما حصل حاجة غير كده.
- تبقى أسوأ وأضل. تبقى أنت على كده أهبل يا أخ .. رسمي ... ودينى رسمي.

وسكت مجدي، ثم سرح وحملق في الفضاء كأنما يحاول تذكر شيء أو استجماع صورة معينة في خياله ثم استعاد جزءاً من حديث مدحت بصوت مسموع:

- تلميذة في الثانوية البنات واسمها سامية، وما فيش في عيلتها رجالة؟

ثم وجه عدة أسئلة قصيرة متتالية إلى مدحت:

- هي شقرا يا مدحت؟
- أيوه.
- طولها متوسط؟
- أيوه.
- عينيها خضر؟
- أيوه.
- بتلبس اسود دايماً؟
- أيوه

- قابلناها مرة ف الشارع وكان سعيد عايز يعاكسها، وطلعت انت يومها شهم لأول مرة في حياتك وقلت له عيب يا سعيد إحنا لنا اخوات بنات برضه؟
- حصل.
- واسمهما سامية عدلي؟
- أيوه.

قالها مدحت وقد فغر فاه، واتسعت حدقتا عينيه، بعد أن أجاب على كل أسئلة مجدي بطريقة آلية، مسلوب الإرادة محاولاً تخمين الطريقة التي عرف بها مجدي كل هذه المعلومات.

وابتسم مجدي ابتسامه باهتة وهز رأسه آسفا:

- انت عايز رأيي بصراحة ولا تزعل يا مدحت؟
- لا قول، أنا ما زعلش من الصراحة.
- كونها قريبتك دي حاجة غصب عنك، يعني رضيت، ما رضيتش حا تكون قريبتك ودي ما حدش يقدر يلومك فيها، لكن تحبها وتعجب بيها، وترتبط بيها بإرادتك أهو دا اللي ما حدش يغفره لك يا مدحت.

وكأنما هبطت شحنة من الاتزان والتعقل على مدحت فاعتدل في جلسته معلنا عن رغبته في بدء مناقشة منطقية بعيدة عن العاطفة، كأنه أراد أن يقنع مجدي بالبراهين أنه محق في حبه لها أو أن مجدي مخطئ في سوء ظنه بها، وسأل مجدي بهدوء:

- طيب على أي أساس بنيت رايك دا يا مجدي؟
- شوف يا سيدي بقى سامية دي – وأنت سيد العارفين – كل يوم في عربية شكل ... مع شلة شكل، سهرات إيه، وفُسَحْ إيه، وعمر ما تشوفها مع واحد مرتين أبداً.
- دي إشاعات يا مجدي لأنها حلوة، وكل واحد ما يطولش منها حاجة بيطلّع عليها الكلام ده عشان ينتقم منها.
- الجزء الصحيح في الاشاعة دي مية في المية، وأنا بنفسي شفتها أكثر من مرة.

- مش يمكن كانت مع حد من قرابينا. يعني انت مثلاً صاحبي جداً ومع كده، ما كنتش تعرف انها قريبتي. مش فيه ناس زمانهم شافوها معايا، واتكلموا برضه؟
- فيه ناس زمانهم؟ طب ما هم لازم بيتكلموا، أهو انت مثلا قريبها، مش لك هدف معاها غير القرابة؟ وكل اللي بتمشي معاهم لهم أهداف، يمكن انت إنسان كويس وعايز تحافظ عليها، وامها كانت معاكم. غيرك لأ، وبعدين من إمتى كان دا وضع طبيعي انك تشوف بنت عندها سبعتاشر سنة راكبة عربية مع أربع شبان سنهم من عشرين لخمسة وعشرين، بحجة قرابة ولا غيره؟
- مجدي، ما تحاولش تشككنى فيها، أنا واثق فيها كويس.

ولم يجد مجدي في النقاش أملا في إقناعه فأطلق صوته منادياً لبعض الزملاء:

- سعيد ... صفوت .. محمد ... عبد الهادي ... يا حسن. تعالوا خمسة يا جماعة وارجعوا تاني وحين التفتوا ورأوا أن مجدي هو المنادي، وأن مدحت يجلس إلى جواره أيقنوا أن في الأمر دعابة لا ينبغي أن يفوتهم حضورها والمشاركة فيها فهرعوا إليهما وبادرهم مجدي – بالسؤال:
- تعرفوا إيه عن سامية عدلي؟

وقبل أن ينتهي من السؤال كان سعيد قد بدأ في الإجابة بطريقته المرحة المعهودة:

- صاروخ ... صاروخ إنما يهوس.

واستكمل عبد الهادي الحديث مكملاً ما أهمله سعيد:

- بطة يا واد بطة، تقول إيه؟ لهطة قشطة؟ بقى لو كان الواحد عنده عربية كاديلاك ولا ستروين حتى وفي جيبه قرشين مظبوطين، مش كان دخل اللستة؟ لكن ومعلهش، نقول إيه لسه تلامذة وبناخد المصروف يوم بيوم ... والأدهى من كده وكده، اسمي عبد الهادي مش كاظم ولا عصمت.

وتحدثت الدموع في عيني مدحت قبل أن ينطق لسانه مقاطعاً:

- على كل حال يا جماعة ده كلام بيقوله الجعان لما يشوف ما لذ وطاب في إيد غيره لكن اتحدى أي واحد فيكم يثبت لي فعلاً إنه شافها مع واحد.

ولم يكن سعيد ليترك الفرصة لكي يلقى بدعابته العابثة:

- تكسب، مع واحد لأ، إنما قول مع عشرين ... مع ثلاثين، آهو كل يوم خمسة.

ولم يكن مدحت على استعداد لسماع البقية. قد لا يختلف ما رأوه منها عما رأوه، ولكن الحب يعميه ويصمه عن كل ما يخدش سمعتها أو يلوث جمالها في عينيه، وربما كان علي يقين من أنها بريئة ممَّا يدَّعون، براءة الذئب من دم ابن يعقوب، ولم يشأ مجدي هو الآخر أن يستطرد، فقد بدأ يلحظ تأثره العميق، واعتباره لكل كلمة تنال من سامية إساءة له، وإهانة لكرامته، وتسفيها لأحلامه، وعلى أية حال، فقد دق الجرس، وانتهت الحصة، وخرج المدرس، وبدأ الطلبة يعدون أنفسهم لاستقبال الحصة التالية، واختتم مجدي مناقشته مع مدحت مازحاً:

- على كل حال، المجنون دايماً يفتكر أن العالم كله عبارة عن مستشفى كبيرة للمجازيب وإن الناس اللي فيه طبعاً مجانين كلهم، وهو اللي انظلم بوجوده معاهم في نفس العالم، عموماً، مش حا أقولك غير: لكم دينكم ولي دين – خليك انت في حبك، وخليني أنا في الكلام الخايب اللي على قدي، مستقبل ودراسة ومجموع، وكلام من ده.
- يعني رأيك النهائي في الحب أنه جنون؟
- دا على الأقل أنا بس كنت عايز أعرف حاجتين:
- إيه همَّا؟
- الحاجة الأولانية؛ إنت نقلت الجواب العاطفي دا منين؟ إوعى تقوللي إنه أسلوبك. والحاجة الثانية ... واللي تأكد إنك ناقله، إنك استعملته في غير موضعه. لأنك لا حاولت معاها، ولا هي صدتك، ولا عرفت حاجة عن رأيها. مش كده ولا إيه؟

ولم يعلق مدحت على تحليل صديقه، وأخرج كتاباً وكراسة من درجه، يخصان الدرس القادم واعتدل موجها نظره إلى السبورة، وأخرج قلمه من جيبه فوضعه في تجويف بأعلى درجة ثم التفت إلى باب الفصل انتظارا لدخول المدرس التالي، بينما ملامحة مازالت متأثرة بما دار من نقاش، معبرة عما زال يعتمل في نفسه، وترسم

تصميمه على حبه الوليد وثباته عليه ولا تنطق إلا بعبارة واحدة ثابتة في إيمان راسخ بما قرر:

دعني ياصديق في عالمي الحبيب فما أسعد المجانين بدنياهم، إذا لم يعكر صفهوهم أمثالك من العقلاء.

*****

خيط العنكبوت

شيئاً فشيئاً، توطت الصداقة بين الأسرتين فيما عداهما؛ مجدي ونادية، فهو تشغله فكرة النجاح، ويراوده أمل التفوق وبريق الجامعة، وهي لم تكن اجتماعية بالقدر المطلوب في مثل ذلك العصر، ولم تكن ممن تتحمَّسْنَ لفكرة أو ينشغلن بشاغل. وكاد العام ينقضي دون ما جديد ... وفي أصيل أحد أيام مايو، كان الربيع يستجمع أقصى قدرته؛ فالزهور متفتحة على أغصانها والطيور تتناجى بعذب الألحان، والكون ضاحك بكل ما ومن فيه .. ولم تكن عينا مجدي الثابتتان على الكتاب بين يديه لتدعا له فرصة التمعن في وجه ذلك الزائر الجميل أو التغزل في ملامح الطيف السعيد؛ شباب الزمن، ربيع الأيام – وطغى صوته في القراءة على صوت الزغاريد التي أطلقها الزمن يرحب بشبابه.

لكن أذنه استخلصت من بين جلبة العرس صوتاً يناديه، وكأن طول المسافة التي قطعها الصوت حتى لسان من أطلقته قد أرقهته وأوهنته، فجاء وكأنه صادر من مكان سحيق، أو هوة بعيدة الغور متقطعاً متحشرجاً ... وكان مجدي يعرف الصوت جيداً لا يخطئه في الليل ولا في النهار؛ إنه صوت أم نادية وكانوا ينادونها بأم إبراهيم، ولدها البكر، وهي سيدة في حجم الخرتيت لها صوت مثل صوت الفأر، وقلب طيب، كانت أسيرة هواية عجيبة لمعرفة ما يهمها ومالا شأن لها به من الأمور .. وأم إبراهيم لا عمل لها غير ذلك سوى أن تعطي الله وبطنها حقهيما وترضى فضولها بمتابعة أخبار الجميع بلا هدف محدد ثم لا شيء على الإطلاق، فإبنها إبراهيم يقيم في نفس المسكن، وزوجته نجاة تقوم بأعباء البيت، وتقضي حوائج الجميع؛ الذين يعيشون وقد تم تقسيم العمل بينهم بدقة؛ فإبراهيم لكسب العيش، وزوجته لكافة الأعمال المنزلية، وأمه للصلاة والثرثرة، أما أبيه الشيخ خضر فزيارة الأبناء والأقارب، والتردد على زاوية الشاذلي المجاورة للمنزل حيث يفضل على الدوام صلاة الجماعة لوقتها ... ونادية

للدرس والتحصيل. مجتمع بلغت درجة التخصص فيه أعلى قممها. كل هيء لعمل، وكل يقوم بذلك العمل.

سمع مجدي صوت جارته أم إبراهيم تنادي باسمه، وكان من عادة النساء أن ينادين بعضهن بأسماء أبنائهن الذكور، فأبلغ والدته التي انتقلت إلى المسكن المجاور تستطلع الأمر، وسرعان ما عادت لتنقل إليه طلب نادية أن يشرح لها بعض الدروس. كان الوقت حرجاً، فلم يعد ما يفصله عن الإمتحان غير أيام ولاح شبحه رهيباً، وقسى على الأذن قرع طبوله المرعبة، واستبق الخيال صاحبه إليه ليرسم في نفسه صورة مجسدة للرعب؛ حتى نفس مجدي المتفوق المستعد، لكنها قواعد النسبية، فالمتفوق لا يسعى لمجرد النجاح، ولا حتى تحصيل المجموع المؤهل لدخول كلية يتمناها، وإنما يبني حساباته لتحقيق ترتيب متقدم بين مئات الألوف من المتسابقين، بيد أنه لم يكن ليردَّ طلبا لجارته، هو الأول منذ رآها رغم مرور شهور طويلة توطدت خلالها علاقة والدته بوالدتها وزوجة أخيها، ونادية نفسها، التي لم يرها منذ تخطيه لها عند نزولها السلم في أول أيام العام الدراسي ... ثم أن الفضول كان حافزاً له كي يستقبلها .. يجلس إليها، ويعرف عنها شيئاً أو أشياء.

عادت الأم إلى مسكن أم إبراهيم لإبلاغها باستعداد مجدي لاستقبال نادية ومعاونتها فيما طلبته، وطال غيابها، وذلك طبيعي فلم تكن المهمة مجرد تبادل رسائل، وإنما في كل لقاء كان الأمر يتطلب المفاتحة في بعض الأمور، وتبادل المعلومات والأخبار بدءًا من أخبار الجيران، وانتهاءًا بأسعار الخضر والفواكه، مروراً على صحة الأبناء وأحوالهم، وكانت أمه قاموساً للأمثال الشعبية لا تخلو جملة واحدة في كلامها من أحد هذه الأمثال مما حبب الجيران في محاورتها لسماع هذه الأمثال التي تأتي في موضعها ... واستغرب مجدي طرقات رقيقة على الباب، فلم تكن والدته لتطرقه وقد تركته مواربا إلى أن تعود، وفي طريقه إلى الباب سمع طرقة خفيضة بمؤخرة قلم على الشراعة الزجاجية في الباب التي لمح من خلالها طيف الواقفة خلفها، فتوقع أن تكون نادية، وقبل الوصول إلى الباب مر على مرآة (كونسول) وحين نظر إلى صورته فيها،

رأي شيطاناً من شياطين الأساطير الأولى، أو مارداً ممن تكثر بهم أحاديث أهل الريف؛ طويل القامة، نحيف البدن، راي هيكلاً عظمياً أضناه السهر، وأعياه العمل؛ على قمته شعر كاللباد في جمجمته ركبت عينان أجحظتهما الحملقة والقراءة، وشفتان متدليتان، وعلى شعره ورموشه طبقة من غبار الطباشير. في ملامحه قرأ الكد والإجهاد. رأى ذلك كله، ولم يرمقه ما يُسوِّغ الخجل منه، رغم إحساسه بشيء من رهبة الجديد؛ فلأول مرة يجابه فتاة، غريبة عنه تصغره بسنوات قليلة، وتسلَّح بشعوره بالاعتداد بنفسه، وثقته الشديدة في قدراته ليثبِّت نفسه، ولا يسمح لريح ذلك الموقف بأن تعصف بأمنه، وصب كل رصيده من الرجولة في صوته وهو يتساءل – مع علمه – عن الطارق:

- مين؟

وأجابه صوت خفيض يتقطر عذوبة ورقة ويغلفه دلال معتدل:

- أنا يا أستاذ مجدي.

وبينما أمسك بمقبض الباب استغرب إحساسه بأن قلبه يخطئ توزيع الدم على أعضاء جسده فيخص وجهه بمعظمه، وكأنه لا يكتفي بذلك النمل الذي سلطه الحياء على وجهه ليلتهمه بقسوه، وسادت أعصابه ارتعاشة لعينة خشي أن تكشف عن ارتباكه، وأحس بلعثمة قادمة لغزو لسانه، أنقذه منها شعوره بالتفوق والسمو، أو ليس في حكم أستاذها؟ وإنها هي القادمة إليه طلباً لمعاونته؟ ونجح ذلك المسكن في تخفيف ما يعانيه.

فتح الباب، فبدت له من خلفه فتاة في ريعان الشباب، مكتملة الأنوثة، بضة الجسد ممتلئة الأرداف، نحيلة الخصر، مكتنزة الصدر، كاعبة النهدين، ملتفة القوام .. رأى ملامحاً منمقة دقيقة منحوتة بدقة في مرمر يبدو أملساً، وخدين ورديان، وعلا ببصره ليقع على شعر مرسل فاحم بدت نعومته من انعكاسة شعاع تسرب من ضوء الشمس عبر الغطاء الزجاجي الملون لأعلى "بير السلم". بدت نادية بكل هذا النضج وكأنها في العشرين من عمرها، ولم تبلغ الخامسة عشرة بعد، وبدت أكثر إثارة في قميص النوم الذي ترتديه عما بدت عليه في ملابس المدرسة حين رآها منذ شهور.

بهره جمالها وراعه هدوؤها وثباتها، وأعجبه منها ذلك الإتزان، وتلك الرزانة وإن لم يكن بأكثر من مُشاهد لمظهر من مظاهر الجمال أو متأمل لدليل من دلائل القدرة والإبداع، ولم تمض لحظة حتى ألقت إليه بتحية الصباح:

- صباح الخير.

ورد التحية على قدرها:

- صباح النور اتفضلي يا آنسة نادية.

قالها، وقد أشار بيده إلي باب الغرفة التي أضناها السهر هي الأخرى، وبدت عليها مظاهر الإعياء، وسادتها الفوضى الواضحة، فخطت إليها واجتازت الباب إلى داخلها، وجالت ببصرها بسرعة فرأت سوء النظام، وانعدام الترتيب، فإلى جوار الحائط سرير تبعثرت فوقه الوسائد، وتقابلت أطراف الملاءة عند منتصف الطريق إلى أرضية الحجرة، وبموازاة الحائط المقابل مكتب تغطى الكتب كل سطحه مبعثرة في غير نظام، وعلى الجدار الثالث سبورة معلقة عليها كتابات متداخلة، وثلاثة كراسي أحدها خلف المكتب، والثاني من أمامه، والثالث ملقى على الأرض وأرجلهُ إلى أعلى، وعلى الأرض سجادة صغيرة لا يتضح لها لون تعلوها الأتربة والأوراق المهملة، ومسحوق الطباشير وقطع منه.

ولم يكن مجدي قد دخل الحجرة مع نادية حين دخلتها مما وفر لها فرصة التجول ببصرها والتمعن في التفاصيل حيث اتجه إلى شباك المطبخ،، وقصد صينية نحاسية فيها قلتان وإبريق من الفخار، فأفرغ ماء إحداها في جوفه علَّه يهديء من روعه، ويعينه على مواجهة موقف يواجهه لأول مرة، ضاعف معاناته منه تخلف والدته في شقة نادية وتركه وحيداً في مواجهة تجربة جديدة عليه.

عاد مجدي إلى الحجرة وعلى شفتيه ابتسامة قلقة حيث رحب بها من جديد:

- أهلاً وسهلاً.

ولاحظ أنها مازالت واقفة وبصرها ثابت في اتجاه أحد محتويات الحجرة، متحاشية النظر المباشر إليه، فسحب الكرسي الموجود أمام المكتب حيث أبعده قليلاً، وأشار إليها بالجلوس، بينما ردت التحية مبدية حرجها من فرض نفسها عليه:

- أهلا بيك ... أنا خايفة أكون باعطلك عن المذاكرة، وخصوصاً أنا جاية من غير ما أعرف ظروفك.

وأجاب في تواضع ممزوج بشيء من الفخر:

- لا .. لا .. أبداً. أنا الحمد لله خلصت كل المواد، وبراجعها للمرة الثانية.
- ما شاء الله، أنا سامعة إنك بتطلع الأول باستمرار، وإن شاء الله تكون النتيجة السنة دي أحسن.

دفعت إليه هذه المجاملة بشحنة إضافية من الثقة، فجلس إلى مكتبه في مواجهتها، واعتدل في ثبات بينما رد على مجاملتها:

- متشكر قوي ... كله على الله.

ودخلت نادية مباشرة إلى صلب الموضوع:

- كتاب الإنجليزي فيه قطعة عليها أسئلة، وأنا مش فاهمة القطعة، وطبعاً يبقى مش حا اعرف اجاوب الأسئلة، وفيه كلام عن احتمال إنها تيجي في الامتحان، حاسيب لك الكتاب ياريت تترجم لي القطعة والأسئلة بالمرة ... بس الترجمة تكون بسيطة على قد الناس اللي ف تالتة إعدادي، مش تالتة ثانوي، وتخصص إنجليزي كمان!
- عينيَّ الاتنين، الليلة يكون عندك بإذن الله.
- ألف شكر يا أستاذ مجدي ومعلش با اتعبك!
- لا بالعكس، مفيش تعب ولا حاجة، دي حاجة بسيطة قوي.

وتململت في مكانها لحظة، ثم وقفت واستدارت في اتجاه باب الحجرة، وهمت بالمسير:

- ودلوقت استاذن.
- بدري يا نادية.

قالها بدون "آنسة"، وجاءت عفوية، وأيضاً بإحساس المدرس للطالبة ... وردت:

- معلش، بدري من عمرك، الامتحان خلاص فاضل عليه أسبوعين، وقدامي لسه مذاكرة ومراجعة كتير ... وانت كمان امتحانك الأسبوع الجاي.
- طيب يا نادية، ربنا معاكي، مع السلامة.

وضعت كتاب اللغة الإنجليزية على المكتب ثم وقفت، وبينما تحركت في اتجاه باب الحجرة قالت:

- وقت ما تخلص عرفني عشان آخد الكتاب .. وألف شكر.

قالتها بينما عبرت باب الغرفة وتبعها مجدي حيث أوصلها إلي باب الشقة حيث سلمت عليه يداً بيد، وتمنى ألا يدع يدها تنساب من يده، لكنه قنع بالاتفاق على التواصل ومداومة التردد لتلقى الشرح، وحلم باستمرار امتحانها لعام كامل ليضمن اعتيادها لمجالسته ... خرجت، وأغلق الباب الذي كان ما يزال مفتوحاً منذ استقبلها، وارتكن على الباب في شبه إغماءة، أو هي شحنة مفاجئة من الراحة سرت إلى نفسه ... نعم لقد استراح بانصرافها كل الراحة، كانت تجلس على حساب أعصابه، وكان حديثه إليها مُرهقاً لحسه وفكره من فرط التصنع، ولم يقو الكبرياء على إخراجه من ورطته في أول لقاء مع أنثى غريبة عنه، في شقة ليس فيها غيرهما، ولم يعرف أين غاب الشيطان.

عاد مجدي إلى غرفته، واستلقى على سريره، يسترجع كل التفاصيل على مدى فترة اللقاء ويتساءل في دهشة واستنكار:

"ماذا دهاك يا مجدي؟ لماذا كل هذا الاهتمام؟ لماذا تطاردني صورتها على الدوام؟ لماذا تملأ على كل وقتي؟ حتى شبح الامتحان عاجز عن إزاحة مشهدها، أو اقتطاع جزء يسير من اهتمامي، أو ملء جانب من خيالي ... هل هذا هو الحب الذي يقع فيه غيري؟ وهل أنا أيضاً أقع فيه؟ وهل يأتي هكذا بغتة وبمثل هذه السرعة الداهمة؟ إن اقتحامه لكياني لم يدع لي فرصة لتفكير أو مراجعة، ولم يترك لي فرصة تدبُّر لاتخاذ قرار. لقد فرض نفسه على قلبي وعقلي دون أن يسمح لي بإجابة على أي

من أدوات الاستفهام: كيف؟ ولماذا؟ متى؟ واعذاباه! أنا لم أملك حتى فرصة الاختيار. هل هي من حلمت بها؟ أو هل التوقيت مناسب؟ وما هو الهدف؟ وما هي النهاية التي أرسمها؟ وهل أنا بقادر على رسم شيء أو التخطيط لشيء؟ أشعر أنني مسلوب الإرادة، غير قادر على التفكير عاجز عن التقرير، كأنني في محيط هادر تدفعني أمواجه إلى حيث تشاء، ويسوقني تياره إلى مصير غامض لم أتحسب له، ولا أعرف متى أو كيف أتحكم في الزمام.

وصعقه خاطر انتفض معه جالساً وصاح بصوت مسموع غير مدرك لعدم وجود أحد يسمعه: "لا .. لا يمكن أكون زيه .. لا، أنا مش مدحت، أنا لا يمكن أخرج من الجنة قبل ما أدخلها ... أنا لازم أصارحها، أنا خجول ومش عارف إزاي أفاتحها، لكن لازم ألاقي طريقة..."

ثم سرح بعيداً، ثابت النظر في اتجاه النافذة .. لم يعرف كم مضى من الوقت قبل أن يهتدي إلى ضالته، لقد قرر أن يكتب لها خطابا يبثها فيه غرامه على ظاهر الورقة التي تحمل الترجمة التي طلبتها.

وفي دقائق كان قد ترجم القطعة وأسئلتها ... ثم قلب الورقة وكتب:

حبيبتي!

هذه رسالتي الأولى، أكتبها إليك بيد مرتجفة، متأرجحة بين الأمل واليأس، مترددة في المضى مع السطور خوفاً من صدمة الرفض ... كلمات تصدر عن قلب لا يعرف غير الوفاء ولا يرى لحياته طريقاً غير ما تعبر عنه الآن يدي؛ الحب!

حبيبتي !

قد أستشف ردك من نظرة عينيك أو أفهم جوابك من ابتسامة على شفتيك أو كلمات تحوم من بعيد؛ خجلة من المثول الصريح على مسرح التعبير، ولكني سأنهل من بحر السعادة لو جاءت في كلمة واحدة مباشرة على لسانك، أو عبارة تخطها يدك.

بعدها ستكون الحياة؛ حياة أخرى كلها سعادة، حياة وردية كل ما فيها جميل؛ أيامها رضا وأمسياتها هناء، ولياليها أحلام نعيش فيها المستقبل الرائع ... وإلى الأبد.

في انتظار ردك كمولود على عتبة الحياة، تتعجل عيناه رؤية النور .. أو محتضر على عتبة الموت يرى فيه سبيلاً وحيداً للخلاص. ذلك، ولك خالص حبي، وعاطر أمنياتي.

المحب المخلص: مجدي

انتهى من كتابة الخطاب فأودعه بين صفحات الكتاب مطمئناً إلى أنه احترز للظروف فلم يكتب اسمها بعد كلمة "حبيبتي" فإذا راقها ما حمل الخطاب، ردته بمثله، وبادلته حباً بحب، وإذا كان غير ذلك، تعلل بأن الخطاب موجه لغيرها، وأن كتابة الترجمة على ظاهره جاءت على سبيل الخطأ وعدم الحرص...

وتنبه على صوت والدته التي لم تكن قد عادت من مهمة الإبلاغ عن استعداده لاستقبال نادية، فلم تكن – هي أو أم إبراهيم – ليضيعا فرصة للثرثرة وتبادل أخبار الناس وتبادل المعلومات حول سبل الطهي ومقادير الأصناف التي تجيد كل منهما طهيها ... عادت فخورة بابنها بعد أن تلقت كلمات الشكر والعرفان بجميل ابنها (إبن الحلال) والدعوات له بالنجاح على طول الخط حتى "ياخد الشهادة الكبيرة" وحيث ردت بتواضع مصطنع دافعة ببعض ما أتقنت من أمثال: "الجار للجار، وإن جار" ... و"الشجرة اللي ما تضلل على أهلها، حلل الله قطعها" ... و"اللي ما فيهوش خير لأهله، عدمه أفيد" ووجهت حديثها لمجدي".

- إيه يا مجدى؟ عملت إيه في البت؟ دى راجعة بتقول فيك قوالة. ربنا يستر. ولم يعلم مجدى على ما قالت، واكتفى بوضع الكتاب في يدها، طالباً منها العودة لشقة نادية، وتسليمه لها.

******

أمـــل

أحس يومها – على عكس طبيعته – براحة كبيرة لمجرد خلو المسكن إلا منه، وشعر بسعادة الوحدة، وهو شعور جديد عليه، فلم يكن ميالاً للعزلة، ولا كانت الانطوائية من صفاته، بل كان اجتماعياً يحب الناس ويدفأ بالاختلاط بهم. في ذلك اليوم، تركته والدته لتزور إحدى صديقاتها اللاتي أحببنها كثيراً، وأحببتهن كثيرا، فقد كانت سمحة الوجه، عذبة الحديث، صافية النفس، لا تضمر الشر لأحد، ولا يضمره لها أحد. كانت السنوات العشرين التي قضتها في المدينة تعيش بشخصية بنت الريف طيبة القلب، نقية السريرة، وكانت تسرع إلى استغلال الوقت القصير الذي لا تدهمها خلاله الأمراض، لتزور صديقاتها اللواتي يزرنها من بعد خلال رقادها مع الآهات. وكان والده يقضي نهاره وجزءًا من الليل في متجره، فعمله كتاجر كان يفرض عليه كل ذلك الوقت الطويل في عمله. وأما أخيه الوحيد رجب فكان قد ودع المنصورة قبل سنوات حيث تسلم إحدى الوظائف في الإسكندرية، ولذلك كان مجدي ينفرد في المسكن لمجرد مغادرة والدته له – وكان ذلك يُحنقه ولا يطيقه صبراً، إلا أنه رأى في وحدته هذه المرة مرتعا لانطلاق خياله، وفرصة للمضي والتحليق في آفاق المكان والزمن.

جلس يستعرض ما كان، وما يمكن أن يكون، ويرسم لمستقبله صوراً سعيدة، وليال هنيئة وذهب إلى بعيد يستعرض شريطاً رائعاً طبعت عليه صور الحب الجميلة في ليالي الصيف ذات النسمة الشاعرية .. إلى أن قطعت حبال الخيال طرقات رقيقة، فهوت به إلى أرض الواقع، وعاد إلى عالم الحقيقة واتجه إلى الباب وفتحه فإذا بها هي ... إذا نادية بلحمها شاخصة أمامه.

تسمر في مكانه ... وانعقد لسانه، وصعد الدم إلى وجهه حتى كاد أن ينفجر، وأحس بهول المفاجأة، ورأى أعصابه تخونه في أشد لحظات احتياجه لها .. لكنه تدارك الموقف وتذكر أن نادية أمامه لا ينبغي أن يدعها هكذا واقفة أمام الباب فتلعثم بينما دعاها للدخول:

– إتـ ... فضلي!

– معلش، متشكرة قوي، أنا بس عايزة أسألك عن الورقة اللي بعتها لي في كتاب الإنجليزي.

– آه ... دي ترجمة الموضوع اللي طلبتيه.

– لا أقصد الموضوع الثاني ... اللي في ضهر الورقة.

ارتبك لحظة، وسرعان ما أنقذته المناورة فرد عليها بسؤال يوفر له زمن الإجابة عليه فرصة التفكير والتصرف السليم:

– انت قريتيه؟

– آه ... بس ...

وقاطعها متسائلاً:

– وفهمتيه؟

– مش قوي .. انت تقصد ...

وتباطأت في الحديث على أمل أن يحمل عنها عبء الإيضاح والتصريح، لكنه أمَّن على ما لم تقله فهز رأسه رأسياً.

– أيوه مظبوط .. وعايز أعرف رأيك دلوقت يا نادية.

فتساءلت في دلال:

دلوقت حالاً ؟!

وفك الحب عقدة لسانه، وأزاح خجله لحظة مكنته من الإفصاح عن مكنون شوقه:

– يا ريت كنت أقدر أعرف من قبل كده .. أنا عايز اطمن بسرعة يا نادية.

– طيب يا مجدي، خلينا نتكلم بعد الامتحان.

قالتها، وانسحبت خلال الردهة التي تصل إلى باب مسكنها، تعلو شفتيها ابتسامة وتكسو ملامحها علامات الرضا .. أما هو فقد منع نفسه – بصعوبة – من التصفيق فرحاً وسعادة، وكأنه لم يسمع كلماتها إلا بعد أن انصرفت، لقد هبطت السعادة عليه في شحنة قوية كاد ألا يحتملها. نعم، فالسعادة – مثل الشقاء – لا يحتملها الإنسان إذا جاءت دفعة واحدة، وبقدر وفير، لقد أحس بدوار يهدده بالسقوط فعمد إلى أقرب مقعد صادفه فتهاوى عليه، ومال برأسه على صدره متوسطة كتفيه، وأغمض عينيه، وأفقدته النشوة وعيه لحظات، وأراد أن يعض بنانه ليصدق أنه يقظ وأن ما سمعه كان حقيقة لا خيالا، لقد استجابت نادية .. نعم، ألم ترجئ الأمر إلى ما بعد الامتحانات؟ وأليس الإرجاء موافقة مؤجلة؟ لو أنها

رفضت فما الحاجة لتأجيل الإجابة؟ ثم إن اختباره لصحة استنتاجه قادم، فهي ستستمر في الحضور لشرح ما تعذر عليها من المواد .. لقد أسقط الجدار الحاجز حتى ولو لم يكن قد اقتحم القلعة، فذلك أمر قادم.

بدأ يسائل نفسه عما إذا كانت شحنة الأمل كافية لإعانته على تحمل ثلاثة أسابيع قادمة حتى تنتهي من امتحاناتها، لكنه حقن نفسه بمسكن فعال لأنها لن تنقطع عنه خلال هذه المدة، ستحضر لتلقي الشرح، ربما كل يوم .. وربما لساعات طويلة، ومن يدري ما يحدث فيها. المهم أنه صنع البداية؛ خاطبها بحبه، ورفعا الكلفة بينهما فتناديا بإسميهما مجردين من "آنسة" و "أستاذ" ... لقد تعلم أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، وها قد خطاها، ولن تكون رحلته ألف ميل...

وبعد إغماض جفنيه طوال فترة التحليل والتحليق مما دفع ببعض من النعاس إليه، إنتفض فجأة، وخطا إلى مكتبه حيث جلس إليه، وبدأ على الفور في الاستذكار في تحد لنفسه بتحقيق نجاح مشرف، ومجموع يؤهله ليكون من أوائل الجمهورية، فذلك يضيف إلى قدره في نظرها، ويرفع رصيده في نفسها. ألم يكن التفوق هو مفتاح العلاقة بينهما؟

وبرغم كل السعادة ... وكل شحنات الأمل والمسكنات التي أقنع نفسه بها للصبر وتحمل عدِّ الأيام، وبرغم شاغل الإمتحان وتحدى التفوق كان العد صعباً ثقيلاً، فما أسمج الأيام حين تشعر بمن يتعجل خطوها ويطالبها بالإسراع. وما أكثر ما حثها مجدي على ذلك.

"أيتها الأيام أسرعي الخطو حتى لا أكرهك فأنت الفاصل بينى وبين من أحب"

*****

وداعـــا للمدرسـة

وعلى كل حال، فقد مرت الأيام، ووصل قاربه إلى شاطئ الإمتحان، وفي ليلته أكمل مراجعته للمادة التي يؤدي امتحانها في الصباح التالي، فنام مبكراً، واستيقظ قبل أن يستكمل النهار معالمه، فتوضأ وصلى، ثم اتجه إلى نافذة غرفته، ففتحها، وأطل منها، وملأ رئتيه بالهواء النقي في شهيق عميق وتأمل الشارع في هدأة الفجر الساحر، ومتع نظره المتأمل بمراقبة خيوط الضوء القادمة من بعيد، وهي تغالب عتمة الليل في المحاولة الأخيرة لإزاحتها، وملأ نفسه بالرضا والأمل أشعهما سكون الصباح الباكر قبل أن تطغى جلبة الصباح مع زقزقة العصافير ودعاء الكروان.

وانتبه إلى صوت أمه في الغرفة من خلفه:

– صباح الخير يا مجدي، ربنا يا ابني يجعل صباحك نادي، ويوفقك في الامتحان، وترجع لي سالم غانم، ويجعل لك من دعايا نصيب. أنا عملت لك كباية شاي، وجبت لك قرقوشتين م اللي انت بتحبها .. غير ريقك يا حبيبي .. وشوية كده على ما تقرا لك كلمتين، أكون جبت لك ساندويتش خفيف.

تلقى مجدي الصينية من يد والدته، فوضعها أمامه على المكتب، ورد عليها تحيتها ودعاءها:

– صباح الخير يا ماما .. ربنا ما يحرمنيش من إيديكي، ويديم عليَّ رضاكي، ودعاكي .. ثم فتح الكتاب بعشوائية على صفحة لم يقصدها فراجع ما سطر عليها، وهكذا كان يفعل في صباح أيام الامتحان حيث يترك للصدفة تحديد ما يؤكد على مراجعته وكثيرا ما فوجئ بورود سؤال أو أكثر من الصفحات التي يحددها له القدر.

مضت الدقائق سريعة، وحان لمجدي أن يجهز للتحرك، فقام فاستبدل ملابسه ومشط شعره الخشن، وراجع أدواته الكتابية اللازمة لأداء الامتحان، وانصرف مسلحاً بما حصَّل خلال الشهور، بل السنين مع دعوات أمه التي ودعته عند باب الشقة ثم تابعته من خلال النافذة حتى غاب عن ناظريها ...

وكالعادة، التف أفراد الشلة جميعا حول مجدي في فناء المدرسة التي تضم لجنة الامتحان. تبادلوا التحية والأمنيات الصادقة، ودعوا الله مخلصين أن يوفقهم إلى أفضل الإجابات وأن يحققوا النجاح المشفوع بأعلى الدرجات ... وساد القلق، وسيطر التوتر على كل الأعصاب حتى مجدي، بدا قلِقاً بدرجة ما، مما أثار دهشتهم واستغرابهم، وشك بعضهم في اصطناع مجدي لهذا القلق لتأكدهم من تمكنه وتفوقه واستقباله لكل امتحان كما يستقبل الكريم ضيفه ... لكن البعض صدق ذلك القلق، لأنها الثانوية العامة، عام ليس ككل عام، ومسئولية لا تعدلها مسئولية، كما أنهم جميعاً يعلمون أنهم إذا كانوا يسعون للنجاح، وبعض التفوق، فإن مجدي يراهن على المركز الأول أو من الأوائل، وذلك يفزع أي إنسان حتى مجدي.

اقتربت لحظة البداية، وزاغت الأبصار، وترقب الجميع عقارب الساعة، وباب اللجنة، وساد الصمت بعد جلبة المناقشات والأسئلة والتوقعات .. واختلط الأمل بالرهبة، وتلعثمت ألسنة من أرادوا استرجاع اللحظات الأخيرة.

فتحت أبواب اللجان، وتقدم الطلبة في بطء – أو تباطؤ – كل إلى اللجنة المحددة طبقاً لأرقام الجلوس ... ثم أخذوا مقاعدهم، وضعوا عليها الأقلام والأدوات، عيونهم على عقارب ساعاتهم، وآذانهم مصغية لما تعلو به أصوات المراقبين من تعليمات وتنبيهات .. وزعت أوراق الإجابة فكتبوا عليها بياناتهم، ثم وزعت أوراق الأسئلة مقلوبة حتى لا يكسب من يتلقاها في البداية دقائق إضافية، ثم صدرت التعليمات بقلب الورقة، وبدأت دقائق الامتحان .. وحاول البعض قبلها أن يختلس نظرة لورقة الأسئلة بقلب طرفها ومعرفة سؤال أو أكثر. أما مجدي فكان ثابتاً حتى بعد تعليمة قلب الورقة، فقد قلبها ببطء متعمد ... ربما لإضافة جرعة إضافية من الثقة المستقرة أصلاً في نفسه .. وانتهى وقت الامتحان وسلم الجميع أوراق الإجابة بعد أن حَمَّلوها بأدوات صنع مستقبلهم...

في فناء المدرسة إلتقت المجموعة كما اتفق أعضاؤها، وبدأوا يسترجعون إجاباتهم ويضاهون ما كتب بعضهم بما كتب الآخرون، وكثر ترديد كلمات الاستدراك المتأخر: "ياه! – أخ ... يا نهار أبيض ... والله كنت حا جاوب كده" والبكاء على اللبن المسكوب، ولم

يشارك مجدي في هذه المناحة، واكتفى بطلبه منهم التركيز على ما هو قادم، وترك ما سبق لتقديرات المصححون.

كان أكثر المكروبين – بطبيعة الحال – مدحت، بينما فاضت نفس مجدي بالأمل .. ومزيد من الثقة.

وفي طريق العودة لاحظ مدحت مسحة من الإنشغال وقليل من الشرود وعدم التركيز خلال مشاركة مجدي في أحاديث الرفاق، ولما سأله عما يشغله مبديا له أنه ليس على طبيعته التي يعرفها، أجابه:

- ومين النهاردة طبيعي يا مدحت؟
- عايز تفهمني إن الامتحان هو اللي عامل فيك كده؟ طب الكلام ده ينفع بالنسبة لنا .. لكن مجدي؟! لأ. إلعب غيرها ... دا أنا مدحت ... يااللاَّ قول.
- والله يا مدحت انت ساعات بتبقى لماح.
- ساعات؟ وباقي اليوم يا مجدي؟ نفوِّت دي ، بس تعالى يااللاَّ .. قول.
- عايز أقولك كل حاجة .. ومش عايز أقول لك حاجة أبداً.
- هُوَّا دا وقت فوازير يا مجدي .. هات ما عندك وما تتعبنيش كفاية علىَّ النقد والبلاغة والذي منه.
- والله يا مدحت أنا بافتكر يوم ما اتكلمنا عن الحب، وقلت لك إنك مجنون علشان بتحب.
- كان معاك حق يا مجدي ... وأنا مش زعلان من وصفك ، لكن إيه اللي فكرك بالكلام ده بعد شهرين وف يوم مغبر زي النهاردة؟
- أصل أنا اتجننت يا مدحت.
- من امتى يا مجنون؟ وإزاي؟ ومين؟ وليه؟ احكي لي.
- مش عارف يا مدحت، لكن اللي أنا متأكد منه إني مش حاتخلى عن جنوني حتى لو ودوني مستشفى المجازيب، وجربوا معايا جلسات الكهرباء، أنا دلوقت عرفت ليه بيقولوا: المجانين في نعيم.

ثم ضحك وأشار بكلتا يديه قائلاً:

- طبعاً أنا مجنون بمحض اختياري.

كانا قد وصلا إلى بيت مدحت الذي حاول استيقاف أصدقائهما لسماع التفاصيل، لكن مجدي رفض مستنكراً إضاعة أي لحظة خلال أيام الامتحان، واستأنف السير في اتجاه منزله بينما التفت إلى مدحت قائلاً:

- قدامنا أربع شهور نحكي فيهم ونعيد ونزيد يا رفيق الماريستان.

وفي بيته طمأن مجدي والدته عن أدائه .. وتناول غذاءه، ثم نام ساعة وصحا يراجع المادة التالية بثقة أشد واطمئنان أكثر ... وتكرر ما شهده اليوم الأول في الأيام التالية من الأسبوع حتى انتهت أيامه.

لم تكن الشلة لتضُيعّ فرصة الساعة الأولى من الأجازة الغالية الطويلة، فقبلوا دعوة مدحت للتجمع في بيته – أقرب البيوت من المدرسة – ومع الساندويتشات ... والمشروبات قضوا ساعات استعادوا فيها ذكريات قرابة الشهرين انقطعوا خلالها عن المدرسة وتفرغوا للاستذكار والاستعداد للامتحان، ثم أداءه، فأبلغ مدحت المجموعة في شبه بيان مقتضب ابتعاده عن سامية وأن قلبه في حالة فراغ، ويبحث عن مغامرة جديدة ... ولخص مجدي في تحفظ وتعبيرات تميل إلى الوقار حالة الحب المفاجئ التي يعيشها، بينما أطلق سعيد لسانه في تعليقات يتفاخر من خلالها بأنه الوحيد الذي يمتلك زمام أمره، ويسيطر على لجام قلبه، بينما كذبه عبد الهادي لتجاهله وجود شريك له في هذه الحالة، وانتقل الجميع إلى مناحة أخرى، حيث طرح سعيد سؤالاً أوقف به الحديث عن الحب قائلاً:

- إنتو مافكرتوش يا ولاد إحنا حا نتفركش إزاي بعد شهرين؟

وتساءل صفوت مستنكراً:

- السم في اللسان. فركشة إيه اللي انت مستنيها يا كئيب؟
- **أولاً:** أنا اسمي سعيد مش كئيب .. يا كئيب ... ثانياً انتم مش فاهمين إن النتيجة لما تظهر وكل واحد فينا يجيب مجموع مختلف، يبقى فينا اللي حا يدخل كلية التجارة .. وفينا اللي حا يدخل الحقوق أو الآداب ... مننا واحد حا يروح جامعة القاهرة .. وفينا اللي حا يروح جامعة إسكندرية ... وفينا اللي حا يروح في داهية زي مدحت ... ضحك الجميع وأمنوا على الفكرة بينما اشتبك مدحت – كالعادة – مع سعيد.

وأمضت المجموعة وقتاً مرحاً طيباً ... ثم انصرفوا ... ومضى كل إلى بيته .. وفي بيته طمأن مجدي والديه عن أدائه ... وتناولوا غذاءهم معاً .. ثم استقل مجدي بغرفته فنام ساعات بعد عناء شهور .. لكنه رقد على سريره .. وحملق في سقف الغرفة ... وسرح بعيداً عن الواقع حتى ابتسم ابتسامة انقلبت إلى شبه قهقة ساخرة متمتماً: معقول؟! أنا با حب ؟!

كان مجدي بحاجة – مع أول أيام الأجازة – إلى استرجاع ما كان ... وتحليله، ومراجعة نفسه بشأن الخطوة التالية، لقد جاءت الخطوة الأولى – على خطورتها – عفوية، لم يفكر في خطرها، ولكنه خطاها ... وهو لم يخطها مكرهاً، رغم أن مشاعر – لم يسبق له أن أحسها – حركته في اتجاه نادية التي رآها دقائق قليلة، بدأت حين لمحها من النافذة وهي على الرصيف ترقب الحمالين وهم ينقلون الأثاث إلى مسكنها وبالطبع فإنه لم يتبين ملامحها مع كل الفاصل بين الطابق الثالث والشارع ... ثم رآها عابراً في الزي المدرسي صباح أول أيام الدراسة. ثم كانت المرة الأولى التي التقاها وجها لوجه، يوم طلبت منه ترجمة موضوع من الإنجليزية للعربية.

متى امتلك عليه ذلك الشعور الفياض عقله وقلبه حتى وهو في رهبة الامتحانات الأخطر في حياته؟ لقد رأى صورتها على ورقة الإجابة، وتخيلها ممتنة له ومقدرة فضله خلال أدائها هي لامتحان اللغة الإنجليزية، وقد سهل لها ما صعب عليها فهمه ..

هل هذا هو الحب؟ وهل يأتي هكذا سريعاً صاعقاً، لا يترك للإنسان فرصة التفكير أو الاقتناع؟ ألم يسخر من صديقه مدحت لأنه سقط في الحب بعد مرافقة سامية في مشاهدة فيلم في السينما؟ وهل الحب في حالته، هو نفس الحب في حالة مدحت؟ أليست سامية ابنة خالة مدحت؟ يعرفها منذ ولدت والتقيا عشرات – وربما مئات – المرات؟ فما الجديد الذي حرك الحب في قلبه فجأة؟ أما مجدي فلم ير نادية عن قرب إلا يوم اهتزت لها أوتار قلبه. ولكن كيف يوقع القلب صاحبه في حب إنسانه لم يترك له فرصة معرفة شعورها نحوه؟ وهل تبادله حبا بحب؟ بل إنه لم يعرف حتى ارتياحها إزاء معرفتها لحبه هو لها؟

إن حالة مجدي تختلف بكل تأكيد، فهو لم يشأ المضي على طريق الحب قبل أن يعرف شعورها قِبله وتجاوبها معه، فلقد حمَّل ورقة الترجمة خطاباً يبثها فيه حبه، ويستطلع رأيها ومشاعرها تجاهه. ألم ترد على خطابه بموافقة ضمنية وإن كانت مؤجلة؟ أليست

إجابتها عليه تعبر عن القبول؟ وإلا فماذا يعني إرجاؤها الأمر إلى ما بعد الامتحان؟ هل يحتاج الرفض إلى تأجيل؟ أم أنه يستلزم البت والحسم؟ أم أن التأجيل يعني عدم الإهتمام، وتقديم أهمية الاستذكار؟ ربما – وربما أن فيه حكمة وتقدير لانشغاله هو بالامتحان فلم تشأ إشغاله، كما خشيت من تأثير الرفض على نفسيته في مثل تلك الظروف؟ وحتى لو كان ذلك، ألا يعبر عن خلق كريم ونفس شفافة وعقل ناضج تستحق كلها لتقدير عظيم هو نفسه الحب؟ أم تراه حياء العذارى فلا هي تمتلك جرأة الإفصاح والتصريح، ولا هي تقدر على فظاظة الصد وكسر الخاطر؟ وربما هي مرتبكة لم تقرر بعقلها نتيجة للمفاجأة، ولم تملك عاطفتها فرصة الإقدام نتيجة المشاغل والظروف المحيطة التي تفرض الحذر والحيطة، وتحتاج إلى حسابات معقدة وطويلة لا تملك ترفها في ظروف الامتحانات؟... كل ذلك وغيره جائز، ولا سبيل لحسمه، ولا أداة لحسابه وتقديره، ولا اختيار سوى الانتظار حتى تمر المهلة التي طلبتها...

ضحك مجدي من نفسه وسألها؛ كيف تمضي في التحليلات والحسابات في محاولة الوصول إلى حقيقة شعور نادية نحوه؟ أليس من الأولى أن يتحقق من مسمى شعوره هو نحوها؟ هل استقر تعريفه لذلك الشعور على أنه الحب؟ لقد عبر بذلك المسمى في خطابه إليها. وهكذا سماه حين قص على رفاقه قصته ... لكنه لم يعط نفسه فسحة الوقت للتحليل، ولا هداه التركيز والمراجعة لما كان منذ البداية، وهل هو مستقر على ما اسماه الحب؟

لقد درس مجدي في المنطق أن المقدمات تؤدي إلى النتائج، وبالتالي فإن النتيجة تحتاج إلى مقدمات. وإذا كانت النتيجة التي توصل إليها هي الحب، فأين المقدمات؟ هو لم يلمسها ولم يحدد في مسار علاقته بنادية ما يمكن أن يعتبره مقدمات. وفي حيرته، وترتيباً على فشله في الوصول إلى قواعد إيجابية تهديه إلى تحديد ما يكابده من شعور طاغ يملؤ عليه كل حياته، رأى استخدام منطق عكسى فسأل نفسه: إذا لم يكن ذلك هو الحب، فما هو؟

ما هو التفسير لفكر دائم طيلة النهار، وأحلام تستغرق الليل؟ ما هو معنى سعادة داخلته وأفكار وردية، وانشغال بأحلام اليقظة ورسم صور وأخيلة؟ ما معنى أن تكون صورتها

هي بالذات أمام عينيه؟ بل ما معنى إنشغاله بمحاولة الإجابة عن كل هذه الأسئلة؟ ما هدف الموت شغفاً لمعرفة رأيها، وتعجل الأيام لكي يسمع منها كلمة: نعم. أحبك؟

عجز مجدي أو عجز عقله – وقلما عجز عن الإجابة عن سؤال – وربما كان هذا عنصراً ترجيحيا لتأكيد معنى الحب كقيمة جديدة طرأت عليه، كما أن عجز عقله جديد عليه، فما الذي أحدثه؟!

مضت الساعات ولما يصل مجدي إلى تحديد نهائي، أو يهتدي لتفسير لما أصبحت عليه حياته وهداه تفكيره إلى تصرف، يواصل من خلاله ما بدأ، ويبني على ما انتهى لعل الصورة تتضح ويتمكن من تحديد كفة ذلك الشاغل الصاعق، فاتجه إلى حيث كانت والدته تجلس على كنبة بلدي في الصالة التي تضم باب الشقة وأبواب الحجرات تستمع إلى ما يبثه المذياع – المثبت على رف مرتفع قريب من السقف – من أغاني الزمن الجميل، فخفض صوته، ما لفت نظر والدته إلى أن لديه ما يود قوله لها على عجل، وأن ما عنده هام لا يحتمل التأجيل فبادرته بسؤال ساخر:

- إيه يا مجدي؟ فيه بيان؟

قالتها، وأطلقت ضحكة عالية، أتبعتها بعبارة خالدة كانت تطلقها كلما ضحكت، أو ضحك غيرها وكان مجدي يحفظها عن ظهر قلب، فعلا صوته بها في الوقت مع والدته:

- خير اللهم اجعله خير! (ثم واصل الحديث):

ماما – أنا خلصت امتحاناتي، وبقى عندي وقت، فكرت أعرض على اسمها إيه دي جارتنا بنت الست أم إبراهيم إني أساعدها، واستدرك: هي اسمها إيه؟ أنا نسيت – واصطنعت أمه الدهشة مع استنكار ذي مغزى:

- عجيبة – إنت لحقت تنسى اسمها، وعايز تساعدها؟ عموما هي اسمها نادية.

وحاول تخطى الموقف وعدم التركيز على ملاحظة أمه:

- آه نادية .. ممكن تبلغي مامتها لو عايزة أي مساعدة، أنا أقدر أساعدها في أي مادة لغاية ما تخلص امتحاناتها.

ولم يمض عرض ولدها دون أن تلمح منه شيئاً وأن تضع في ردها اختبارا له:

- والنبي يا ابني فيك الخير، وفرصة تيجي معاها وداد بنت خالتك، أهي في الإعدادية برضه، وأنا خفت أقولك تشرح لها حاجة عشان شايفاك لسة خارج م الامتحان ومحتاج ترتاح لك يومين.

لم يكن مجدي يطيق مجرد سماع اسم وداد، كانت ثقيلة الدم، تهوى الوشاية ونقل كل ما تسمعه، وتهوى الوقيعة بين كل من تعرفهم حتى أشقائها، وربما أبيها وأمها .. وكانت غبية، وغيورة، وصفات أخرى كلها سيئة، ورأى أن وجودها كفيل بإتلاف ما يفكر فيه، وهو إن وافق، فكأنما وافق على تثبيت أجهزة تصنت في لقاءاته مع نادية، أو يضع مفجراً لنسف أي احتمال طيب قادم، فرد على أمه على الفور:

- أعوذ بالله يا ماما. افتكري لنا حاجة كويسة والنبي، وانتي عارفة شعوري ناحية وداد.
- مش هي أولى يا ابني، ولا لازم نمد لبره زي القرع؛ أيوه ما هي الغريبة تحلي ولو كانت وحلة ...

كان متأكداً أن والدته طيبة، وأنها تحب تقديم الخدمات للجميع، وأن ما يؤديه من مساعدة لنادية سيضيف إلى رصيدها عند أهلها، وهي تحرص على ذلك، فرد عليها:

- خلاص .. خلاص، لا نادية ... ولا وداد ... وكفى الله المؤمنين القتال.
- ليه يا ابني حا تمنع الخير؟. هو انت سيرة وداد بتعفرتك كده؟
- أيوه أنا باتعصب ويركبني ميت عفريت لما با اسمع اسم الهبابة دي.
- خلاص يا ابني اللي تشوفه .. وانا حاروح أقعد مع أمها شوية وافرحها انك حاتذاكر لبنتها .. والنبي دي أمها بتعزك ودايماً تشكر لي فيك.

أيقن مجدي أنه وصل إلى ما أراد، فتظاهر بعدم الاكتراث:

– يا ست تقولي لها، ما تقوليش. أهي إن جت حانعمل اللي ربنا يقدرنا عليه وكله لله ... وأنا لو كانت وداد تخف رخامتها للنص كانت عينيَّ ليها ...

وانتهى الحوار، وانتقلت أمه للمسكن المجاور، فأغلق المذياع وعاد إلى غرفته، يختلي بنفسه، ويطلق العنان لفكره وخياله معاً، دون أن يصل إلى تكوين صورة ... أي صورة لما قد تحمله الأيام.

****

الصاعقة

وحين أحست بأن وقوفها قد طال، وأن مداعبة أناملها الرقيقة لباب مسكن مجدي، لم تكن كافية لنقل صوت يسمعه من بالداخل، أخرجت نادية قلما من بين صفحات الكتاب الذي كانت تحمله ونقرت بكعبه على شراعة الباب، وما أن وصل الصوت إلى مسامع مجدي، حتى تأكد من شخص الطارق، فقد كانت مثل هذه الطرقات بداية لزيارتها الأولى، فهرع إلى الباب، وتوقف لحظات أمامه قبل أن يفتح، فالتقط أنفاسه لحظات كان بحاجة إليها، وكأنه اجتاز سباقاً للماراثون، ووقعت عيناه عليها، وابتلع ريقه، وتداخلت عبارتي ترحيب بها، فارتبك لحظة، قبل أن يدفع بإحداها مرحباً:

- أهلاً يا نادية.

وفي نفس اللحظة كانت هي تلقي بتحية القادم:

- صباح الخير يا أستاذ مجدي.

وبينما رد تحيتها أشار لها بالدخول، فدخلت إلى الصالة التي يؤدي إليها باب الشقة، ومنها إلى غرفته، دون حاجة إلى توجيه، وأصبحا على انفراد: مجدي؛ الأستاذ الذي تبنى معاونتها في تحقيق النجاح، والطالب الذي انتهى لتوه من أداء امتحانه إلى أداء طيب تمنى أن يضع قدمه على أولى خطوات مستقبل واعد – ومعه نادية؛ التلميذة التي لا تبقى على مواجهتها للامتحان سوى أسبوع واحد، أو هكذا يرى الآخرون. أما هو، فقد رأى صورتها من زاوية بعيدة، صورة تصحبها دقات مضطربة لقلب غضٍ، وانعدام للتركيز، وخيال يمضي بعيداً ويرسم أحلاماً يراها هو نفسه مبكرة ... وغير مبررة، لكنها اقتحمت عليه حياته كلها، فجأة ودون أن تترك له فرصة للتمعن أو التمحيص. هكذا جاءت كالصاعقة فملأت عليه حياته وعصفت بحساباته...

وقبل أن يثبت على قرار بتعجل استطلاع رأيها فيما قرأته في خطابه، أو انتظار المهلة التي طلبتها إلى أن تنتهي هي من الامتحان، تذكر صديقه وزميله مدحت، ذلك الأبله الذي أحب سامية وعذبه حبها قبل أن ترفضه، بل قبل أن يصارحها، وبنى الجنان، وحرم نفسه منها، فهل يحذو حذوه بعد أن سخر منه بأقسى الألفاظ؟ استكثر على نفسه التماثل مع

مدحت، ورفض أن يسمح بأن تنحدر الأمور، فبدلاً من أن يحل مدحت محله، يسقط هو فيما سقط فيه مدحت. لقد رفض عقله اعتلاء عرش البلاهة خليفة لمدحت، لكنه لم يستطع الثبات فالقرار لم يكن لعقله، ولم يكن يستطيع المضي في المكابرة، وادعاء الحكمة، والتحكم في المشاعر، لقد تمردت كل حواسه على عقله، وانحازت لقلبه؛ قلبه الذي يخفق في عنف، وفي إصرار، وبصورة مباغتة، أفقدته زمام الفكر أو الحركة.

مرَّ الشريط سريعاً في مخيلة مجدي، وكان عليه أن يعود إلى الحاضر، وأن يقنع – ولو مؤقتاً – برؤيتها، والحديث معها، تحت أي مسمى إلى أن يتمكن من تقرير ما يكون، وليغنم من الحاضر لذاته، وكفاه في هذه اللحظة أنه معها، بشحمها ولحمها، وليترك حساباته عما يحمله قلبها للحظات خلوته، حين ينفرد بنفسه، أما هذه اللحظات، فحرام أن تضيع مع الخيال وهي أروع من كل خيال؛ نادية معه يسمعها ويراها.

وحين بدأ؛ تلعثم – وكان لابد له أن يتلعثم – فهو مشوش تسود الحيرة تفكيره؛ هل يدخل مباشرة إلى موضوع اللقاء وهو شرح الدروس؟ أم يناور بالكلمات في محاولة للتلميح فلربما استشف من رد فعلها ما يبدد ظلام فكره؟ أم تراه يصارحها بشكل مباشر ومباغت لكي يسمع منها رداً مريحاً، يريحه مما يعاني، ويسقط عنه حمله الثقيل؟ ولكن هل تواتيه الشجاعة لفعل ذلك؟ وما هو ذلك الـ (ذلك) وهو لم يحدد بدقة ما يحسه؟ وإذا حدده وامتلك رباطة الجأش لكي يواجهها، فكيف يضمن أن ردها سيريحه، ولن يكون صدمة مالها شفاء؟

ارتاح في النهاية لقراره بترك الأمور للظروف، والتزام التلقائية، وقد تكون هي الحل.

- تاخدي شاي يا نادية؟ ولا أحسن كباية لمون؟
- لأ معلش ما فيش داعي – أنا لسة شاربة شاي من شوية.
- يبقى لمون.
- مش لازم صحيح. طول النهار باشرب سوايل.
- الجوّ حر، ويونية عامل عمايله ...

قالها بينما وقع بصره على قميص النوم الكاشف الذي كانت ترتديه، ويكشف عن مقاييس الجمال الذي أضافه إلى ما أسره من حلاوة الروح، وصفاء النفس ... ثم أضاف:

- وبعدين المذاكرة والتفكير يحتاجو شرب مرطبات، ومنبهات، وسكريات ... وكباية لمون مش حاتزود، ولا حاتبوظ الرجيم.
- لا – أنا ماليش دعوة بالرجيم خالص.
- ليه؟ هو الرجيم عيب ولا غلط، دا كلمة رجيم يعني نظام.
- أيوه – كده بدأنا درس الإنجليزي.

ودخلت والدته إلى الحجرة ترحب بنادية فطلب منها مجدي إعداد كوبين من عصير الليمون الذي تجيد إعداده، فأبدت ترحيبها بذلك، وغادرت الغرفة، واستأنف مجدي حديثة لنادية:

- أيوه يا ستي. تحبي نتكلم في إيه؟
- في الإنجليزي؟
- آه. إلا إذا كنتي تحبي نتكلم في أي حاجة ثانية؟
- حاجة ثانية زي إيه؟
- اللي يعجبك؛ تاريخ .. جغرافيا .. رياضة .. أي مادة.
- طيب نبدأ برضه بالإنجليزي لأن القصة فيها شوية كلمات كدة مش تمام، مُوقَّفة المعنى، ولو خلصنا وفيه وقت، يبقى نتكلم شوية في الجغرافيا، معلش أنا عارفة إني باتقِّل عليك بس إنت اللي فتحت لي السكة.
- تقَّلي ومالكيش دعوة، هاتي القصة ...

وفتح القصة والقى نظرة سريعة، وتذكر أنه قرأها قبل ذلك، وأبلغها أنه سيقرأ ويستمر في القراءة طالما لم تستوقفه عند كلمة ما أو معنى ما يصعب عليها استيعابه... وبدأ في القراءة حتى استوقفته، ففسر لها معنى الكلمة باللغة الإنجليزية، وكتب لها بجانبها – بالقلم الرصاص – عدة مرادفات، ولما سألته عن ضرورة ذلك أجابها:

- لو انتي عايزة تكتبي في موضوع ونسيتي كلمة معينة مش حاتكملي، لكن لو عارفة مرادف لها حاتستعمليه ومايكونش عندك مشكلة، صحيح المرادف بيكون أحيانا مش مطابق للمعنى بالضبط، لكن ممكن توظيفه.
- إزاي يعني؟ أنا بصراحة مش فاهمة.

- شوفي ياستي، الكلمة اللي انتي وقفتي قدامها وأنا كتبت معناها: مجنون، واللي أنت عارفاه قبل كدة مجنون يعني إيه؟
- مجنون يعني Mad
- تمام، قوليلي معنى تاني.
- أحمد ربنا إني عرفت المعنى الأولاني، هي لها معنى تاني؟
- انا قلت لك إن كل كلمة لها مرادف أو أكتر، فمثلاً لو خدنا كلمة MAD يعني مجنون بالمطلق، لكن ممكن نقول Silly، يعني أحمق، وممكن نقول IDIOT يعني متخلف، وممكن نقول Foolish يعني عديم التمييز أو التقدير، ونقدر نقول INSANE بمعنى مختل عقلياً، ونلاقي LUNATIC يعني مجنون صرع...

ورأت أن استرساله في معنى كلمة واحدة سينسف الوقت المتاح لتلقي درساً في اللغة، فاستوقفته:

- إيه الصرع ده؟!
- نرجع للكلمة بالإنجليزي، واصلها فرنساوي بنفس الحروف وهي الصفة من كلمة LA LUNE ومعناها: القمر، يبقى الصفة قمري.
- ودي علاقتها إيه بالجنون ولا الصرع ؟!
- البحر بيتعرض لظاهرة اسمها المد والجزر، وباختصار المد بيعني تمدد المياه في البحر في اتجاه الشاطئ والجزر عكس المد – تلاحظ ان المد بيزيد في الليالي القمرية بتاثير ضوء القمر، وتلاحظ كمان إن نباح الكلاب بيبقى شديد في الليالي القمرية لأن ضوء القمر بيأثر معلى مخ الكلاب بنفس الطريقة، يعني المخ يتمدد داخل الحيز المحدود في الجمجمة فيسبب نباح ناشئ عن الألم الشديد وده هو الصرع.

اتسعت حدقتا عينيها ونظرت إليه في صمت لحظي ثم صاحت عن غير قصد:

- يا نهار اسود !!!
- ليه بس دا نهار أبيض وزي الفل.
- إيه دا كله، دا ولا عشر سنين اقدر احفظ الكلام ده.

- طيب تعالى نسرع الخطوة، ونقف عند اللزوم، ونشرح المعنى المباشر، بس عايز أقولك من غير تفاصيل إن الكلمة لها معاني ثانية زي CRAZY وكمان MANIAC يعني مهووس، و Stupid يعنى غبي. كفاية؟ أنا جاهز أشرح لك اي مادة ثانية تحبي نتكلم فيها، ما فيش حاجة ورايا.
- طيب فعلاً يا ريت ناخد نص ساعة ولا حاجة في الجغرافيا يحسن أنا لا فاهمة إيه المناخ، ولا إيه التضاريس، ولا رسم الخرايط.
- لأ ... لأ ... دا أنا أزعل أوي لما تكون تلميذتي ضعيفة في الجغرافيا، وبعدين لازم تعرفي إن الجغرافيا، خريطة، ومناخ ... وتضاريس.

لم تكن تتوقع أنه متفوق في المواد الأخرى تفوقه في اللغة الإنجليزية، فتلقفت الفرصة وقالت له في رجاء مخلوط ببعض دلال:

- طب والنبي تشرح لي المناخ، وبكره تعلمني إزاي ارسم الخرايط، والتضاريس.

وأراد أن يجذب انتباهها، ويستدر إعجابها ففاجأها بإجابة غريب وملفتة:

- المناخ هو حَضَرَمَ.
- نعم؟ يعني إيه؟
- حـ – ض – ر – م، أربع حروف: ح: حرارة – ض: ضغط، ر: رياح، م: مطر وارتباط العوامل دي ببعضها سهل، ومش حايخليكي تنسيها أبداً.
- إزاي؟
- قلتي لي إزاي، لو درجة الحرارة ارتفعت، الضغط حا يقل – ودرجة الحرارة في مكان تاني منخفضة حا يكون الضغط كبير، وينتقل الهواء بفعل الضغط العالي إلى مناطق الضغط المنخفض، انتقال الهوا ده هو اللي بنسميه الرياح اللي أثناء حركتها بتمر على مسطحات مائية؛ بحار ومحيطات فتتحمل بخار الميه، وبعدين تصطدم بمرتفعات، ومع تكثف البخار بسبب البرودة يتحول إلى قطرات تتساقط على هيئة مطر.
- شفتي إزاي، إن الحرارة بتاثر في الضغط، والضغط بيسبب رياح، والرياح بتسبب المطر؟ فيها أي صعوبة دي؟

لم تصدق أن الجالس أمامها تلميذ يسبقها بثلاثة سنوات دراسية، وإنما رأته أستاذاً جهبذا متمكنا من أدواته واسلوبه فانبهرت، ولمعت عيناها، وعلت تقاطيعها ابتسامة رضا وإعجاب، ولم تملك كتمان تقديرها الشديد لليسر الذي نقل به إليها فهم اصطلاح معقد أرهقها واستعصى عليها فهمه:

- هايل، أنا ما كانش عندي أمل أفهم الكلمة دي، وبصراحة المدرسين شرحوها ميت مرة، وبرضه ما ميزتش بينها وبين التضاريس، يارب يكون سهل هو كمان وافهمه واعرف إزاي ارسم خريطة.
- ما تبقيش طماعة، مش كله مرة واحدة .. بكرة نكمل جغرافيا، ودلوقت ناخد فاصل وننقل على مادة ثانية.

قالها وقد غشيته راحة، وطمأنينة على أنه سيراها في اليوم التالي ... والذي يليه. وجاءت والدته في الوقت المناسب تماماً وعلى الصينية التي تحملها كوبان من عصير الليمون فوضعتها على المكتب قائلة، مع ابتسامة عريضة تصاحبها نبرة تباهٍ واقتدار:

- صنعة إيديَّ، وحياة عينيَّ.

ورد مجدي على الفور مقلدا صوت الموسيقار محمد عبد الوهاب:

- تسلم إيديكي .. وعينيكي، وتعيشي ليا.

ثم دعا نادية إلى تناول الليمون، وتهدئة أعصابها استعداداً للمادة التالية، وخلال تناولها لرشفات قليلة من العصير، تفحص بتركيز دقائق حركتها، وهي تلامس الكوب بأناملها الملساء، وجلد كفها المشدود ولونه الأبيض المتشرب بحمرة، ثم رفعها الكوب وملامسة شفتيها المكتنزتين، ثم حركة ذراعها وهي تعيد الكوب إلى الصينية بعد كل رشفة، أراد أن يستغل هذه الفسحة من الوقت لكي يخرج عن إطار الدروس، ويفتح لنفسه ثغرة، يعبر من خلالها للتعبير عما تجتاحه من أحاسيس، فلم يقو على ذلك، وساءل نفسه: هل يحبها حباً عذرياً نقياً كالذي قرأ عنه في روائع الأدب الرومانسي؟ أم أنه يشتهيها؟ وسرعان ما وصل إلى إجابة تجمع الحبين في إطار واحد، فلا هو قيس بن الملوح، ولا عنترة بن شداد، والحب بلا أمل كئيب، ولا يعبر عن تكامل الإنسان لجسد وروح، والشهوة الخالصة، حيوانية لا ترتضيها إنسانيته والعذرية الكاملة، ملائكية لا يدعيها، وأثبت لنفسه صحة ما ذهب إليه

بسؤال: هل كان ليحبها، لو كانت دميمة؟ وارتاح لإجابته بالنفي ... لكنه حين فكر في احتمالات نظرتها إليه ومشاعرها نحوه، ساده بعض القلق، فليست فيه من سمات فتى الأحلام الذي تتمناه المراهقات ممن في مثل عمرها، سوى الذكاء، والاجتهاد، والشخصية المتوازنة وربما مستوى متواضع من الأناقة يحققه من خلال حسن استخدامه للقليل من الملابس المتاحة له. ولم تسمح اللحظات القليلة التي مضت في احتسائها لبعض من كوب العصير، بأن يمضي إلى خيال أبعد، أو تحليلات أعمق فأفاق على صوتها:

- متشكرة ع الليمون، بصراحة تسلم إيدين طنط.
- العفو، بألف هنا وشفا ...

ومضى يشرح لها النحو؛ عقدتها في اللغة العربية، ويستشهد بأبيات من ألفية ابن مالك، ويستعين أيضاً بشروحها على يد جمال الدين بن هشام الأنصاري، وغيره من الشراح ورغم عدم فهمها، فقد استغربت متى حصل كل هذه المعلومات، في كل المواد، ومتى هضمها حتى أصبح مبدعاً في إعادة إخراجها وشرحها، وبمنتهي اليسر ...

وانتهى من شرح النحو، فسألها:

- إيه رأيك نختم بشوية معلومات عامة في الرياضيات.
- لأ بلاش دا أنا في الرياضة بتلخبط بين المليمتر والديسمتر لغاية دلوقت.
- بلاش مبالغة دي الحاجات ةدي أخذناها في ابتدائي.
- ما انا عارفة بس والله لغاية دلوقت بتلخبط وما أعرفش هو إيه الكبير. وإيه الصغير.
- طيب أنا حا أحكي لك حكاية، أكيد مش عشان تنامي، لكن علشان ماتنسيش ولا تتلخبطيش في الأساسيات.
- ربنا يخليك، وياريت تكون زي "حضرم" كده علشان مانساهاش ابداً.

اعتدل مجدي في جلسته وبدأ يقص عليها في بساطة:

- زمان كان الناس بيقيسوا بدراعهم .. يعني لما واحد يروح يشتري قماش مثلاً، يطلب من البياع دراعين أو تلاتة، فالبياع بيقيس بدراعه، يعني لو واحد طويل حايبقي دراعه أطول من واحد قصير عشان كده كانوا الناس يدوروا على واحد طويل يشتروا منه.

تابعت نادية باهتمام لكنها لم تفهم الارتباط بين ما يقص عليها وبين المقاييس الدقيقة فتساءلت:

- ودا له علاقة بالسنتيمتر والكلام ده؟
- طبعاً الناس وافقوا على مقاس بلاتين الحكومة حددته وختمته وقالت إن كل واحد يجيب قطعة خشب مساوية للمقاس ده ويختمه علشان دا يبقى المقاس اللي كل الناس تتعامل بيه وطبعا المقاس معناها بالفرنساوي متر Metre ... وعلشان التعامل الدقيق للي عايز كسر من المتر قسموا المتر عشر أجزاء كل جزء عُشر متر يعني Dixi metre وبعدين قسموا كل جزء عشر اجزاء يعني أصبح الجزء واحد على مية من المتر يعني Centimetre بالفرنساوي وأخيرا قسموا الجزء لعشرة يعني واحد على الف من المتر ومعناها بالفرنساوي Millimetre.

وتعجبت من جديد – ولكن في هذه المرة – من جَلَدَه واحتماله، حيث لم تستطع مجاراته مع أنها هي المستفيدة، وهي صاحبة المصلحة، واكتفت بما كان:

- كفاية النهاردة، ويارب يثبت، وأنا عارفة إني فهمته كويس قوي، وصعب يطير ...

أنا حا ريَّح شوية وأقرأ شوية علوم ... تاريخ ... أي حاجة، واللي الاقيه صعب، حا اتعبك بكرة وأجيلك تشرحهولي، ومعلش اتعبك كمان.

ووقفت استعداداً للإنصراف، ووقف لوداعها وتوصيلها إلى باب الشقة، والتفتت نحو باب الغرفة فاصبح خدها قريباً من شفتيه حتى كاد يلاصقها ... ولم يدر إلا وقد طبع على خدها قبلة مباغتة لكليهما وكأنما صعقتها المفاجأة فأسرعت الخطو في شبه هرولة إلى باب الشقة ففتحته وخرجت منه.

****

حديث في الحب

تسمر مجدي في مكانه، لم يقو على متابعتها إلى الباب، ولم يفهم ما حدث، كان مفاجأة له بنفس القدر الذي فاجأها به، إنه لم يفكر، ولا هو قرر، هو قبَّلها فحسب، ولم يدرك ما حدث إلا بعد أن حدث فاستنكره بشدة هامسا:

- يا نهار اسود؟ إيه اللي أنا عملته ده؟ أنا؟ معقول أنا عملت كدة؟ دا أنا بتكسف من خيالي .. أنا بقيت انتهازي واستغليت فرصة انفرادي بنادية علشان أعمل كده؟ يا ترى حاتبص لي إزاي؟ يا ترى حاشوفها تاني؟ وإن شفتها حاقول لها إيه؟

ظل يحاور نفسه، ويتوقع ردوداً مخيفة لأفعالها .. ولم يشغل نفسه لحظة بسؤال نفسه: هل كانت أمه في الصالة وقت خروج نادية، ولاحظت اندفاعها والطريقة التي انصرفت بها؟ لقد ركز على محاولة استنتاج معنى انصرافها دون أي تعليق حتى بالتوبيخ، ورأى اليوم الذي يفصله عن موعد اللقاء التالي دهراً لا يتخيل انقضاءه، واستكثر على قدراته تحمل عذابات نفسه ولومها على ذلك الاندفاع الذي لم يكن يوماً في طبعه، وهل تحضر في اليوم التالي؟ إنها لو حضرت لكان المعنى أنها تسامحت، أو تقبلت، أو ربما استحسنت. معقول؟ يا ريت!

أحس مجدي صراعاً يكاد يفجر رأسه، وشعر بعدم قدرته على الاستمرار في ذلك التفكير المرهق والمحير، وأنه بحاجة إلى فكر قويم يساعده في بناء توقع مريح، ولم يرد على خاطره من يصلح لهذه المهمة سوى صديقه صابر، فاستبدل ملابسه وانطلق إليه داعياً الله أن يجده في البيت، وألا يكون قد استهل الأجازة بالخروج في جولة، داخل المدينة أو في رحلة خارجها ...

طوى المسافة إلى منزل صابر الذي يبتعد عن بيته عدة مئات من الأمتار، ووقف تحت نافذته وناداه بأعلى صوت، ولم يكرر النداء، سوى مرتين قبل أن يطل صابر مرحباً وداعياً إياه للصعود حيث تعانقا في شوق، وجلسا يتبادلان الكلمات المعتادة في اللقاءات المتباعدة: إزاي الصحة .. عامل إيه؟ إيه الأخبار؟ ... حتى قطعها صابر بود وشغف:

- لأ فاصل كده قصير، أجيب الشاي ونقعد نمخمخ، أنا متشوق اسمع أخبارك، وخصوصاً العاطفية.

وترك الغرفة وخرج دقائقاً عاد بعدها حاملاً لصينية عليها كوبان من الشاي، وكوب من الماء البارد، وضعها على ترابيزة بين الكرسيين اللذين يجلس على أحدهما، ويجلس مجدي على الآخر، واستأنف الحديث:

- إحكي لي بقى من آخر مرة شفتك فيها ... وعشان أفكرك بآخر معلومة عندي؛ إن لك جارة في الإعدادية، وإنها طلبت منك مساعدتها في شرح بعض الدروس. بس. إنت ما قولتليش ولا كلمة تاني، بس أخوك صابر قرا اللي بين السطور، واللي ورا الخبر، لأن المعلومة دي في حد ذاتها ما فيهاش الخبر اللي انت ممكن تبقى مهتم تقوله، إنما وراه اهتمام انت ماجبتش سيرته بس أنا لقطته من نبرتك وانت بتقوله. مش حا اسألك أنا صح ولا لأ عشان أنا متأكد إني صح. أنا حاسكت خالص لغاية ما تغطي لي الوقت من يومها للنهاردة. يا للا الميكروفون معاك.

لم يكن مجدي بحاجة إلى دعوة للحديث فهو لم يحضر إلى صابر إلا ليلقي عليه بعض حمله، ويستشيره بشأن ما حدث، وما يتوقع حدوثه، ويطلب رأيه ومشورته.

قال مجدي كل شيء بالتفصيل الدقيق إلى أن وصل إلى واقعة القبلة فقال له:

- والله العظيم يا صابر – وانت عارف إني باكلمك زي ما بكلم نفسي – أنا ما اعرف انا إزاي عملت كده ولا إزاي جت لي الشجاعة أعمل كده، طب أقولك! والله ما حسيت بأي متعة ولا إثارة ولا أي شعور إلا بعد ما خرجت من الشقة، واللي أنا متوقعه، إنها هي كمان اتفاجأت بشكل عقد لسانها وخلاها تنسحب بسرعة عشان تاخد وقتها تفكر وترد، وده اللي قالقني.

غطس صابر في كرسيه واستند بمؤخرة رأسه أعلى مسند الكرسي وقال لمجدي مع ابتسامة رضا:

- شوف يا مجدي. لو عايز رأيي يبقى الأول حاقولك إنك طلعت نمس، دا أولاً، لكن ثانياً، إنت مش محتاج تفكير كتير، ولا تحليل، ولا توقعات. إنت من غير ما تقصد مشيت خطوات متتابعة، وكل خطوة كملت اللي قبلها، ومهدت للي بعدها؛ يعني طرحت

شخصيتك المتفوقة بحيث إنها اقتنعت بأستاذيتك، وبعدين كتبت لها جواب عرضت عليها حبك، وسألتها عن رأيها .. وردت عليك ..

وقاطعه مجدي مصححاً:

- لأ ما ردتش يا صابر دا ...

وقاطعه صابر هذه المرة:

- لأ ردت يا مجدي، هي مش جت وسألتك عن قصدك، ولما فهمتها إن اللي هي استنتجته صح وطلبت رأيها فيه، يعني في الحب يا مجدي، قالت لك: بعد الامتحان، ودا رد، لأنها لو رافضاك ما كنتش جت وسألتك، مع إن الكلام واضح؛ واحد كاتب لواحدة: حبيبتي، يبقى طالب يلعب معاها عشرة طاولة؟ طيب خللينا نتغابى خالص، أو ناخد بأقصى افتراضات السذاجة: هي ما فهمتش قصدك .. أو ما عرفتش الجواب ده لها ولاَّ راح لها على سبيل الخطأ، واتأكدت منك إنها هي المقصودة بالجواب، لو رافضة، إيه اللي جابها عندك تاني؟

توقف صابر لحظة ثم استأنف الأدلة المتتالية:

- طيب كل اللي فات مش كافي لإقناعك بأنها موافقة، وموافقة جداً؛ هي البوسة اللي انت فاجأتها بيها دي مش كافية إنها تلطشك بالألم زي ما بنشوف كده في الأفلام. وماحدش يغلطها، ولا أنت نفسك حا تعمل حاجة غير إنك تحط إيدك على خدك؟ شوف يا مجدي نادية دي موافقة، ومستريحة للي انت عملته إلا في حالة واحدة، ودي حالة صعبة قوي على واحدة في سنها ...

وتوقف لحظة عن الاستدراك لم يطق مجدي استمرارها فتعجله في لهفة وقلق:

- لأ ما تطلعنيش من ميه بتغلي، وترميني في مية مثلجة يا صابر، إيه اللي في دماغك؟

واعتدل صابر في جسلته، وغاب جزء من مرحه الواضح، وغطت مسحة من القلق جزءاً كبيراً من مرحه السائد منذ بداية الحديث، وسادت نبرة جد على صوته وقال:

- الحالة دي – واللي أنا باستبعدها بنسبة تكاد تكون مِيَّة في المية، إنها تكون استغلالية بدرجة أعلى من كبرياءها، ومن كل الأخلاقيات والمثل، لدرجة إنها ممكن تتحمل أي حاجة، وتقبل أي تصرف، وتبلع أي سلوك مرفوض كثمن للحصول على اللي هي

عايزاه، وبعد ما تحقق غرضها يكون لها موقف تاني، وباكرر إني باستبعد أنها تكون شيطانة بدري قوى كده ...

ألقى صابر بقنبله فجرت في نفس مجدي مئات الأسئلة في لحظة واحدة فأرهقت عقله حتى عن مواصلة الحوار مع صابر، أو الرغبة في تفنيد هذا الاحتمال القاتل الذي ينسف كل بوارق الأمل ويذهب بكل عوامل الراحة.

لاحظ صابر أثر حديثه على وجه صاحبه، وكأنما ندم على طرحه لذلك الاحتمال المدمر رغم تحفظه على نسبة احتمال تحققه، وأراد أن يخفف عنه ما أثقل به كاهله، فاستطرد قائلاً:

- أنا طبعاً باكلم مجدي ومقدر عقله الكبير، وقدرته على تقدير الأوزان النسبية، يعني لما نقول إن الاستنتاج الطبيعي والنتيجة المبنية على كل المقدمات، إنها بتبادلك شعورك، وإن الاستثناء، غير المنطقي إنها تكون بتستغلك، يبقى ليه ما تخليش القاعدة تريحك وتبسطك وتسيب الاستثناء يتعبك ويقلقك؟

لكن القلق قد تولد ولن تفيد الكلمات في تخفيفه، والشك نار لا يطفئها إلا اليقين .. اليقين الذي يعرف الاستثناء...

صمت مجدي، وبهتت ملامحه، ولم يعد صالحاً لاستكمال أي حوار ولا القبول بأي أدلة فأمضى لحظات قد تنفي استنتاج صاحبه لانصرافه غاضباً، أو محتجاً، فهو لم يسئ إليه وإنما تحدث بالواقع، وهو لم يستحدث معنى من عنده، وإنما كانت ملاحظته كاشفة فحسب، واصطنع مجدي حديثاً خارج الموضوع لينهي به اللقاء تخفيفا على صديقه حتى لا يلوم نفسه على قدر المصارحة.

ثم استأذن فمضى إلى بيته، قلقاً، كسير النفس، حزين الفؤاد، يستحضر صوراً متشائمة جعلته يتمنى ألا تنتهي أيام الامتحانات، فإن كانت ملاكاً سعد بقربها وتجاوبها، وإن كانت شيطاناً تأجلت مواجهته للحقيقة المؤلمة، وغنم أياماً، تصبح زاداً للذكريات .. وعلى أية حال فقد قرر أن يفكر في عدة اختبارات لاستشفاف حقيقة مشاعرها من خلال لقاءاتهما قبل انتهاء الامتحان.

****

الصديق

كانت عائلة العباسي بكل فروعها صديقة لأسرة مجدي؛ الرجال والنساء والشباب على علاقة تتفاوت بشكل لافت، فمصطفى العباسي الترزي الرجالي ميسور الحال تربطه بوالد مجدي علاقة لا ترقى إلى مرتبة الصداقة، ولكنها جيرة وتعامل، كترزي قمصان وكإبن للشيخ العباسي الذي كانت أسرة مجدي تسكن شقة في بيته بالشارع الخلفي لمسكنه الحالي، وكان الشيخ طيباً، يقرأ القرآن ويقيم الحضرات وحلقات الذكر في بيته وكانت مشاعر مجدي فاترة تجاه سلامة الإبن الأصغر لمصطفى حيث كان خبيثاً، مناوراً، يسعى لمصلحته، وبعدها الطوفان، أما رضوان – شقيقه الأكبر منه ومن مجدي – فكان طيباً ودوداً وإن لم تجمعهم لقاءات مخططة بل اقتصرت على حين كان مجدي يرافق والدته خلال زياراتها لوالدتهما الطيبة الدمثة فيلتقي الأبناء ...

وعلى العكس من سمات سلامة كانت شخصية غندور، ابن عمه طه، فقد كان، وكل أفراد أسرته، الأب طه، والأم كوثر وإخوته الخمسة، بسطاء، طيبون، عفويون، وكان غندور أكثرهم طيبة ودماثة وخفة دم رغم تعرضه لعدة حوادث أثرت على قدراته الدراسية، وعلاقاته الاجتماعية.

كان سلامة ذكياً، وكان يجيد الرسم بما يبشر بفنان له قدر، لكنه كان أنانياً، ثقيل الظل بدرجة ربما فاقت من وصفه الشاعر:

تباً لي من ثقيل دماً، وروحاً، وطينة

لو كان من قوم نوح ما ركبت معه السفينة

فكانت لقاءاته مع مجدي، وليدة الصدفة، أو ضمن مجموعة من أبناء المنطقة السكنية الواحدة، الذين كانوا يرحبون بلقاء مجدي ويرتاحون لحديثه وحواراته، بينما ينفرون من وجود سلامة ولا يسعون للقائه رغم استسلامهم لواقع وجوده حين يفرض هذا الوجود.

لذا؛ لم يفهم مجدي ولم يسعد بشرف الزيارة التي أولاه بها سلامة عند دخوله إلى منزله. على أية حال فقد رحب به، وتبادلا الحديث عن توقعات نتائج الامتحانات، وعن توجهات كل منهما فيما يخص الدراسة الجامعية، وطال الحديث بينهما لأكثر مما يحتمل

لكن مجدي احتمل مرور الدقائق توقعا للوصول إلى نتيجة حيث أحس أن سلامة يريد أن يقول شيئاً أو يستخلص معلومة أو يتحسس موقفاً، بيد أن الزيارة وصلت إلى نهايتها دون أن يفصح أحدهما بشيء محدد، أو يستنتج أحدهما من الحديث شيئاً ... واستأذن سلامة في الانصراف، واستجاب مجدي بسرعة، وأوصله إلى باب المسكن حيث مضى غير مأسوف عليه.

جلس مجدي وحاول فهم دوافع الزيارة الغامضة، لكنها كانت باهتة، باردة، لا يفصح عن شيء اللهم إلا توقع السوء، وانتظار البلاء ...

ولم يمض سوى دقائق حتى سمع طرقات على باب المسكن فاتجه إليه وفتح ليفاجأ بغندور ابن عم سلامة ... وسبحان الله فعلى قدر مفاجأته بالمفارقة، كانت سعادته وحبوره باستقبال ذلك الشخص المرح التقيّ التلقائي فأحسن استقباله:

- أهلا يا غندور، انت فين يا فتى، ما حدش بيشوفك؟

وأجابه غندور مبديا دهشته من السؤال:

- انت مش كان عندك امتحان ثانوية عامة يا عم المتفوقين؟
- حصل.
- طيب كنت حا جيلك إزاي وأنا عارف إنك ممكن تضربني وتكرشني على إني جاي أعطلك عشان تسقط وأحصلك؟
- إيه التراجيديا دي يا غندور؟ هو أنا ضميري منيل بستين نيلة كده؟
- طيب ما دام ضميرك كويس، أنا جاي أكسب فيك ثواب، عندك بدلة كاملة؟
- صحيح إنت جاي بالإيافة الكاملة يعني؛ بدلة وكرافتة وآخر أنتكة، إيه الحكاية؟
- هو احنا نقعد كده نرد على الأسئلة بالأسئلة، إلبس يا عم أي حاجة وتعالى معايا نعزي.
- خير حا نعزي مين؟
- الواد بلية أبوه مات.
- عبد الجواد؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.
- تصدق أنا نسيت إن اسمه عبد الجواد من كتُر ما بنَّاديله بلية من سنين على أي حال بلية ولا عبد الجواد، خلَّص ويالّلا عشان نعزيه ...

ارتدى مجدي بدلة ورباط عنق واصطحب غندور إلى منزل بلية حيث كان يقف على باب منزله مع مجموعة من الرجال يستقبلون المعزين ويوجهونهم إلى شقة في الطابق الأرضي فسلما عليه وعانقاه مواسيان له في مصابه، وأشار بلية إلى الواقف بجواره مقدماً إياه لهما:

- عمي يا مجدي ..

فسلم مجدي عليه قائلاً:

- البقاء لله.

وبينما كان الرجل يرد قائلاً: "سبحان من له الدوام" سمع مجدي صديقه غندور وهو يقول للرجل:

- البقية في حياتك يا عم بلية ...

وأحس مجدي ببداية لإبداعات صديقه التي توقع أن تسبب لهما معاً كثيراً من الحرج وكتم ضحكة كانت كفيلة – لو لم يسيطر عليها – بتلقي التوبيخ من الكبار الموجودين.

استمرا في المسير حيث كانت في مواجهة باب الشقة غرفة كبيرة ضمت عددا من كراسي الفراشة وفي الوسط منها "دكة" المقرئ الذي لم يحضر، جلسا على كرسيين متجاورين،وأحسا بمرور الوقت ثقيلاً في ظل صمت قاتل، وتجولا ببصريهما إلى وجوه الحاضرين فإذا حزن يكسوها، فتهامسا متسائلين عن حقيقة هذا الحزن أم أنه من مستلزمات الحالة، وكادا يضحكان في وضع لا يجوز فيه الضحك أو حتى الابتسام لولا دخول بلية وعمه ومرورهما وسط المعزين مرددين: سعيكم مشكور ..

وأشار غندور لبلية الذي سلمه أذنه لكي يسأله همساً:

- هو مفيش مقرئ؟

وتعمد بلية الإجابة بصوت مسموع قاصداً إعلام الحضور:

- إحنا متفقين مع اثنين مقرئين عشان ييجوا بعد المغرب وادى إحنا بعد العشا وما حدش منهم جه.

ولما لم يكن الكاسيت قد اخترع بعد، ولا إذاعة القرآن الكريم قد وجدت فقد سأل غندور صاحبه:

- تحب أنا أقرأ؟

وتلقف بلية العرض مستوضحاً من غندور:

- تعرف يا غندور؟
- إلا أعرف، دا أنا أباً عن جد يا ابني.
- طيب ياريت يا غندور، إقرا ربع على ما ييحي حد من المشايخ.

وفوجئ مجدي برفيقه يبرح الكرسي المجاور له ويتجه إلى دكة المقرئ المرتفعة فيخلع حذاءه ويعتلي الدكة ويتربع في جلسته وأخذ يهز رأسه ويجول ببصره على الجالسين حتى إذا وقع بصره على مجدي ورآه مجدي في أبعد لقطة عن خياله كتم ضحكة أحسها غندور فقاوم في نفسه الإحساس بمثلها مما أخر بداية القراءة، واستمر يهز رأسه دون قراءة مما أوحى لمجدي بقدوم كارثة، وهو يعلم أن غندور يمكن أن يصدر عنه المتصور وغير المتخيل، وأثرت نظرتيهما في اتجاه بعضهما البعض بتصاعد الرغبة في الضحك في موقف الحزن الواجب.

واستمر رأس غندور في حركة البندول دون قراءة، ثم بدأ غندور بصعوبة "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" قرأها بصوت تشرب بضحك ربما لم يتبينه بعض الحاضرين بينما لمحه بعضهم ومنهم مجدي بطبيعة الحال.

ازدادت معاناة غندور في مقاومة الضحك من نفسه ومن الموقف الذي وضع نفسه فيه وهم لأكثر من مرة أن يستمر في القراءة لكنه أحجم مؤجلاً حتى يسيطر على تصاعد رغبته في الضحك، وحاول التماسك وتدارك الموقف الذي بدأ يلفت أنظار الجميع، فاستجمع جأشه وبصوت متحشرج مختلط بالضحك المعيب قال: "بسم الله الرحمن الرحيم" واستمرت كريزة الهزل في موقع الجد حتى رأى نفسه غير قادر على الاستمرار ففاجأ الجميع بإنهاء أقصر قراءة في التاريخ:

- صدق الله العظيم.

وقبل أن تنتهي العبارة كان مجدي خارج غرفة العزاء مهرولاً لم يلتفت خلفه حتى دخل بيته أسِفاً محرجاً شاعراً بحرمة، وأخذ يستعيد اللقطات غير المعقولة إلى أن فوجئ بغندور،

وما أن رآه حتى انفجر فيه موبخاً، لكن غندور كان مستمراً في الضحك بشكل هستيري إلى أن أمسكه مجدي من كتفه وهزه بعنف متسائلاً:

- إنت بتضحك على خيبتك؟ ولاّ على الموقف اللي حطيتنا فيه؟ بس الحق مش عليك، الحق عليّ أنا عشان أنا عارف إنك مجنون ومشيت معاك، (ومع استمرار غندور في الضحك استمر مجدي معنفاً) ...
- ما تسكت بقى يا بني آدم .. إنت بتضحك على إيه؟ إنت لو ماكنتش في بيتي ، كنت ضربتك.

وتوقف غندور عن الضحك فجأة، وسأل مجدي:

- إنت صحيح مش عارف أنا باضحك ليه؟
- لأ يا خفيف عارف، علشان استهبلت ع الراجل الكبير اللي أخوه متوفى من كام ساعة وقلت له يا "عم بلية" وعشان عملت لي فيها الشيخ محمد رفعت وقلعت الجزمة وطلعت على دكة المقرئ، وقعدت تهز دماغك وتحط إيديك على خدودك وبعدين بسم الله الرحمن الرحيم ... صدق الله العظيم .. جتك القرف.
- لأ يا أبو العريف أنا بأضحك عشان إنت لما جريت نزلت أنا وخدتها جري وراك وأنا لابس بدلة وكرافتة وشراب ومن غير جزمة.

ونظر مجدي إلى قدميه فإذا فيهما جورب ولا حذاء ...

وانتابت الصديقان نوبة متزايدة من الضحك، ورغم استمرار شعور مجدي بالحرج إلا أنه قال في نفسه:

- والله لو معايا ألف جنيه ودفعتهم لحد عشان يطلعني من اللي أنا فيه، ولا حتى عشان يمسح أثر زيارة سلامة ما كان يقدر، وإن كان على الكسوف أهو بلية عارف غندور وعارف اللي ف دماغه وفي الأول، وفي الآخر: ليس على المريض حرج!

****

على الطريق

منتهي القسوة أن يمر يومان كاملان من الصمت المطبق لم يعرف مجدي خلالهما أي خبر عن نادية فلا هي تواصلت معه لاستئناف الشرح لما استعصى عليها فهمه، ولا هي خرجت من باب مسكنها حيث توقفت الدراسة بالمدرسة ولم تكن من مسئولياتها قضاء حوائج الأسرة، ولا حتى تسربت أنباء من مسكنها بتوقف زيارات والدته لوالدتها بسبب وعكة صحية خفيفة ألمت بها وفرضت عليها الراحة إلا من أداء بعض الواجبات المنزلية.

تردد مجدي على شباك المطبخ المواجه لشباك مطبخها عبر المنور الذي يفصل بينهما حيث وضعت صينية من النحاس بها قلتان وإبريق من الفخار فشرب في كل مرة من مائها دون حاجته لشراب، ذلك في محاولة للبحث عن صدفة أن تفعل هي نفس الشيء في نفس الوقت، أو تقوم بغسل كوب لإعداد الشاي أو القهوة، فتظهر له خلال وقوفها أمام الحوض المجاور للشباك...

ساورته كل الهواجس، وأوجعته الأفكار المتشائمة، ألا يكاد المريب أن يقول خذوني؟ لقد شهدت اللحظة الأخيرة من اللقاء الأخير فعلة لا يمكن حساب مردودها، لقد ارتكب إثماً لن يغفره لنفسه – عن حق – إذا قاطعته بسببه، لقد هون الأمر على نفسه بعد مرور اليوم الأول، ساعدته (ربما) على مروره، فقد افترض كثيراً من الفروض، وقال في نفسه: (ربما) تكون مرهقة بفعل التركيز في الأيام السابقة، و(ربما) كانت تراجع الدروس لتحديد مواضع ضعفها التي تتطلب منها الاستعانة به لتيسيرها .. و(ربما) انشغلت بزيارات لبعض الأهل أو الأصدقاء .. وربما ... وربما ...

لكن اليوم التالي كان قاسياً، كاد فيه أن يجزم أن احتجابها عنه كان بقرار مبرر، فلو واصلت زياراتها لكان ذلك إقراراً منها بالموافقة على ما كان والتشجيع على تكراره..

تضاعف لومه لنفسه، وندمه على ما بدر منه، لم يخفف من اللوم والندم إلا تأكده أن سلوكه كان تلقائياً غير مخطط، بل لم يشعر به، ولم يذق حلاوته إلا بعد انصرافها، رغم مراجعته لنفسه في نفس اللحظة ... ومضت ليلته الثانية، قاسية أي قسوة، لم يذق فيها طعم

النوم ولا شعر خلالها بمعنى الراحة، ولم تخمد أفكاره التي عصفت بأمنه، وذهبت به من مشارف الجنة إلى الدرك الأسفل من النار.

وطلع الصباح، لم يأكل سوى لقيمات معدودات بضغط شديد من والدته، بينما احتسى عديداً من أكواب الشاي، وما أن دقت ساعة الحائط المثبتة على أحد جدران الصالة دقات عشرة حتى استبدل ملابسه بملابس الخروج حيث قرر مغادرة البيت رغم عدم تحديده وجهة محددة ... وأبلغ والدته أنه سيخرج للقاء الأصدقاء .. واتجه إلى الباب وأمسك بمقبضه وفتحه، فإذا هي أمام الباب تتجه بكعب القلم لتنقر على زجاج الشراعة.

كادت المفاجأة أن تخلع قلبه وتنتزعه من بين أحشائه، لكنه سيطر على مشاعره بسرعة وحاول أن يقلل من درجة المفاجأة فاستقبلها بكلمات الترحيب المعتدلة ...

- أهلاً ... أهلاً يا نادية.

مع ابتسامة خفيفة، أو باهتة تعبر عن درجة من الخجل – أو اصطناعه – ردت التحية:

- أهلاً بيك .. عامل إيه؟
- الحمد لله، تمام، اتفضلي.

وأشار بيده إلى الداخل في اتجاه غرفته .. فخطت تحمل كتابين وبعض الأوراق، حتى أجلست نفسها على مقعد .. نفس المقعد الذي جلست عليه في آخر زيارة، أمام المكتب الذي تبعها مجدي حتى جلس من خلفه على كرسي الأستاذية ... وتنحنح، واعتدل في جلسته ثم سألها:

- أخبار المذاكرة إيه؟
- ماشية كويس، بس عايزة في التلات أيام اللي فاضلة ع الامتحان أراجع حاجات معينة في كل مادة، وبكره إن شاء الله أكون مغطية كل الاحتمالات .. والباقي بقى على ربنا.

ثم دفعت إليه بالكتاب الأول بعد أن فتحته على صفحة محددة وضعت بينها وبين الصفحة التالية قصاصة كعلامة تسهل الوصول إلى الدرس المقصود ... وتسلم الكتاب وانشغل لحظة في قراءة سريعة للدرس، ثم أعاد إليها الكتاب، وأخرج من مكتبه بعض الأوراق لكي يشرح لها بالكتابة، وتعجبت لإعادته الكتاب قبل أن يبدأ في الشرح مما يؤكد لها استيعابه لكل المواد المقررة عليها بدرجة مبهرة.

- إنت مش حا تحتاج الكتاب، حتى عشان نلتزم بالمقرر مش بكل اللي انت عارفه؟
- لأ ... لأ، أنا أخذت فكرة عن الدرس، وحا تكلم في حدوده .. يمكن نوسع شوية حوالين بعض النقط عشان تبقى واضحة وما تتنسيش.

وبدأ يشرح، وهي تنصت، في إعجاب، ورضا عما حصلته في دقائق بعد أن استعصى عليها شهوراً ...

وانتهى من شرح المادة الأولى، وبعد أن سألها إن كان لديها استفسار أو استيضاح، انتقل إلى المادة التالية، فكان معها ما كان في المادة الأولى .. وحين توقف، وقفت تتأهب للانصراف فاعتذر لها عن التركيز مع الدروس مما شغله عن واجب الضيافة، وصمم على بقائها لبعض الوقت لشرب كوب من الشاي يشكل فاصلاً لراحة الأعصاب من عبء الاستذكار لساعات طويلة، وحين اعتذرت شاكرة، أغراها بعرض لتوضيح أسلوب الإجابة في الامتحان لكي تحقق أعلى النتائج، واستجابت لعرضه فعادت للجلوس من جديد، حيث نصحها:

- شوفي يا ستي .. إنتي تدخلي اللجنة، وتدوري على رقم جلوسك لغاية ما تلاقيه فتقعدي على الدكة اللي عليها الرقم ... تحطي القلم والمسطرة وأي أدوات معاك، وتستني لما يوزعوا ورق الإجابة، فتكتبي بياناتك على ورقتك من واقع رقم الجلوس اللي معاك وتتأكدي من صحة البيانات .. فاصل بسيط حا يوزعوا ورق الأسئلة، إوعي تحاولي تقلبي حرف الورقة عشان تلمحي جزء من سؤال ولا كلام من ده، لأن ده حا يوترك ويشد أعصابك، لازم تكوني رلاكس عن الآخر .. وتدي نفسك جرعة ثقة وانتي بتتفرجي على كل اللي حواليكي، ولما المراقب يقول: "اقلب الورقة" تقلبيها بالراحة وعلى مهلك خالص .. تقري الأسئلة كلها بهدوء وممكن تقريها مرة ثانية علشان تحددي الأسئلة اللي حا تجاوبي عليها لو كان فيه اختياري، وتبدئي بإجابة السؤال اللي إنت شايفة نفسك عارفاه أكتر .. وبعدين السؤال اللي بعده مع متابعتك للوقت اللي حا تقسِّميه على عدد الأسئلة ... وبعد ما تخلصي الإجابة تراجعي سؤال ... سؤال، حا تلاقي نقطة سقطت منك، كلمة كتبتيها غلط .. إضافة عايزة تزوديها .. المراجعة دي مهمة جداً زي الرتوش اللي بتدي الصورة الجمال الكامل ...

استمعت إليه دون مقاطعة وحين تحدث عن الصورة، والجمال، استوقفته قائلة:

- صحيح، الصورة اللي انت معلقها فوقك دي صورة والدك. مظبوط؟
- مظبوط.
- ما تقولليش انك انت اللي راسمها ..
- لأ أقولك.
- معقول؟ دي حا تنطق ولا يُمكن تِفرق عن صورة مصورها أحسن مصوراتي في المنصورة.
- أدي احنا بنجتهد، والاجتهاد بيحقق نتائج رائعة.
- لأ مش ممكن الاجتهاد لوحده يحقق نتائج من غير ما يكون في موهبة.
- طيب أنا عارف إن وقتك ضيق لكن حا احكيلك حكاية صغيَّرة تثبتلك إن المحاولة والتكرار كافية:
- أنا والدي رفض يدخلني الروضة، ووداني كُتَّاب الشيخ عبد الباسط طنطاوي .. في خلال سنتين كنت حافظ جزء تبارك وجزء عم في القرآن وحافظ جدول الضرب الصغير والكبير، وفي العربي ما فيش زيي ... ولما بابا قاللي حا دخلك الابتدائي .. قلت له أنا ممكن أدخل تالتة ابتدائي، قال لي: طيب خلليها ثانية بلاش أنزحة .. وبعد المناقشة اتفقنا إنه يقدم لي لدخول ثانية ابتدائي بشرط إني أذاكر مقرر سنة أولى ابتدائي في الآشيا والرسم لأن المدرسة حا تعمللي امتحان في مقررات سنة أولى، ودول المادتين اللي ما كناش بناخدهم في الكتاب.

بمنتهى التحدي قلت لبابا: أربع .. خمس أيام أكون جاهز، قريت كتاب الآشيا في يوم، وما بقاش ناقصني غير الرسم ... أخويا رجب اتفق معايا يقعد كل يوم ساعة واحدة معايا، يفهمني إزاي أرسم.

أول يوم فهمني إن ورقة الامتحان اللي حا تيجي، حا تقوللي: إرسم موضوع معين ليكن مباراة كرة قدم أو العيد أو احتفال شم النسيم .. أو السوق ومسك ورقة كبيرة من كراس الرسم وقال لي:

يعني مثلاً لو جالك ترسم السوق، حا ترسم بياع بيزق عربية يد عليها طماطم بالشكل دا .. وبقى وهو بيتكلم يرسم اللي بيقوله .. وقعد يوصف لي لغاية ما رسم السوق: البياعين .. والناس اللي بتشتري .. وكرر الرسم تاني، وخلاني أرسم بنفسي وصلح لي الرسم، وتاني يوم وتالت يوم خلاني أرسم لغاية ما رضي عن رسمي للأشخاص وللطبيعة الصامتة ...

وجه الامتحان ... وجاوبت في كل المواد من غير ولا غلطة لغاية يوم الرسم، وانتظرني رجب على باب اللجنة وأول ما خرجت طلب مني ورقة الأسئلة وقرا المطلوب بسرعة وبصوت عالي: إرسم عصبة اللعب أثناء لعبة الاستغماية، وأحدهم معصوب العينين يبحث عن زملائه في الحديقة.

قال رجب:

- حلو قوي ... قول لي: رسمت إيه ...

وبمنتهى الفخر والثقة قلت له:

- رسمت عربية الطماطم، والست بتاعة الـ ...

وقاطعني رجب بينما لطم خديه:

- طماطم ؟! أخدت صفر يا جميل ...

وبالفعل سقطت ودخلت أولى بدل ثانية، وكان ندمي على السنة اللي خسرتها حافز قوي جداً، إني أبدأ أنقل أي صورة أشوفها وارسمها مرة واثنين وتلاتة لغاية ما أرضى عنها، حقيقى أنا ما بقتش مبدع أو فنان أرسم من الخيال، أو من الذاكرة، لكن أنا عوضت الإبداع بالدقة.

استمعت إلى القصة واختلطت على ملامحها الابتسامة بالأسى والتعجب بالإعجاب وعلقت في النهاية:

- بصراحة أنا باحسدك على العزيمة والإصرار، وتصميمك على تحقيق أي هدف شفت إن من حقك تحقيقه، وأسيبك بقى دلوقت عشان أحاول أكون زيك وأجيب النتيجة اللي تفرحني وتفرح ماما وبابا ...

أوصلها إلى الباب، وانصرفت، وأحس رضا عن المقابلة التي أكدت له عدم وجود رواسب وأن الأمور بينهما طبيعية لم تتأثر سلباً بما حدث في نهاية اللقاء السابق، كما شعر

بالارتياح لسلوكه الذي بدا طبيعياً، ولم تتبرم لحظة حين قص عن حياته، بل ضاعف إعجابها به، كما أنها هي التي استأذنته في لقاء آخر في اليوم التالي لاستكمال شرح باقي المواد ...

آن لك اليوم أن تنام ملئ جفونك، فرضا العالم كله عنك لا يعدل حرفاً تنطقه شفتاها في عبارة تمتدح بها قدراتك، أو تعبر عن إعجابها بك!

*****

لقاء الأصدقاء

في كل يوم كانت تؤدي فيه الامتحان في مادة من مواد دراستها، كانت تزوره في شقته قبل أن تدخل مسكنها فتناوله ورقة الأسئلة وتراجع معه أجوبتها فيصحح لها، أو يثني عليها، لكنه في العموم كان راضياً بدرجة عالية عن أدائها وتوقع لها التفوق وأعلى الدرجات، حتى كان اليوم الأخير الذي أدت فيه امتحان الرسم، حيث نقرت على الشراعة كعادتها وحين فتح وأفسح لها طريقاً للدخول كعادته كل يوم، ضحكت ولم تخطُ إلى الداخل، واكتفت بعبارة واحدة:

- لأ أنا بس عديت عليك اطمِّنك إني ما رسمتش السوق.

ضحكا وكرر دعوته لها بالدخول فاعتذرت بينما واصلت الحديث:

- النهاردة بقى في راحة، وحمام، ونوم .. فاصل يعني بين الشقا، والأجازة اللي تبتدي من بكره إن شاء الله، وتستريح إنت كمان مني يوم ولا يومين.
- لأ، يومين لأ، هُوَّا نص يوم،وبكره نشوف مستقبلنا بقى.
- يا سلام، يعني الامتحان مش مستقبلنا؟
- عندنا اللي أهم م الامتحان، يا للا روحي روقي نفسك كده وتسلمي لي نفسك بعد الفجر.

ضحكا، وانصرفت وفي نفسه رضا، وأمل، وفكرَّ في لقاء الأصدقاء فقد ينشغل عنهم بعد ذلك بحبه الجديد، وفي نفسه بعض رغبة في مفاخرة مدحت.

بعد الغذاء استبدل مجدي ملابسه ومضى إلى بيت سعيد، أقرب البيوت من بيته حيث استقبله بسعادة وبشر ودعاه إلى الصعود لمسكنه لكنه طلب منه النزول لمصاحبته في المرور على الأصدقاء والزملاء للتجمع وقضاء بقية اليوم معاً .. وكان أن اجتمعا مع مدحت وصفوت وعبد الهادي سكر، ومحمد عبد الواحد، وحسن القباني، ورفض مجدي استضافة أي منهم للمجموعة مفضلاً السير أو الجلوس على شاطئ النيل فقد كره الجدران بعد طول احتوائها له خلال أيام وليالي الامتحان وما بعده خلال الشرح لنادية ومتابعة امتحاناتها.

سارت الشلة منفذة لكل اقتراح من أحد أفرادها بشرب عصير القصب، أو شراء الترمس والحلبة، حتى إذا صادفا برجولا صغيرة على ضفة النيل، احتلوا مقاعدها؛ متجاورين أو متقابلين حيث استهل سعيد الحديث والمناقشات حين ألقى على مدحت سؤالاً:

- إيه آخر أخبار حماتك يا مدحت؟

وبانفعال واضح رغم شبح ابتسامة على ملامحه رد مدحت:

- هو انت يا ابني ما وراكش غيري؟ يعني ستة غيري قاعدين مش عاجبك منهم حد تسأله إلا أنا؟ يا أخي الحمد لله إن آخر سنة تجمعنا، خلصت، بعد كده، لو انت حا تدخل آداب، أحاول أنا أدخل طب ولا هندسة .. وانفجر الجميع ضاحكين بينما استوقفهم سعيد بلهجة آمرة مصطنعاً فيها الجدية والحزم:
- بس يا جدعان بتضحكوا على إيه؟ زميلنا فقد الذاكرة،ونسى إنه في أدبي، وعايز يهرب مني ويدخل طب.

وعلق صفوت متهكما:

- إيه يا سعيد؟ هي دي المشكلة؟ يعني لو كان في علمي كان حا يدخل طب. دا آخره يعيد عشان يحسن مجموعه.

وبنفسية نقية وروح طيبة رغم السخرية منه، تساءل مدحت:

- هو انتو مش لاقيين مادة للتريقة غيري؟ ما تصلوا ع النبي كده، وتفكروا في موضوع نافع تتكلموا فيه، ولا تناقشوا مستقبلكم المهبب بإذن الله عشان الثقة اللي انتو فيها حا تصدمكم إن شاء الله لما تظهر النتيجة، ومين عالم يمكن أجيب مجموع أكبر منكم كلكم، وساعتها نقعد ع الحيطة ونسمع الزيطة، حقه يا أولاد دا يبقى قلم على قفاكم، وجرسة ما بعدها جرسة.

ورد مجدي عليه بهدوء:

- عشم إبليس ف الجنة يا مدحت، وإذا كانوا بيقولوا إن المستحيلات التلاتة هي الغول والعنقاء والخل الوفي يبقى رابعهم إن مدحت يجيب أكبر مجموع، أو حتى ينجح.

وتدارك مدحت مستدرجاً مجدي إلى صفه:

- لأ أنا ما قصد كش طبعاً يا مجدي، إنت خارج المنافسة، أنا باتكلم عن المتعوس وخايب الرجاء اللي عاملين فيها فلَّقم وهما قلة.

واستمرت الجلسة ساعات؛ سعد فيها الجميع بمداعبات ومناكفات اعتادوا على تقبل أطرافها لقفشاتها وسخريتها دون حساسية، وانصرفوا متواعدين على اللقاء التالي.

وفي طريق عودته إلى منزله، كانت لمجدي فرصة متسعة لاسترجاع أحداث الأسابيع التي خلت، وتحليلها، وتوقعاته للأيام التالية، والتي تباينت صورها من النقيض إلى النقيض فكل المقدمات كانت تؤكد روعة النتائج، لكن شيئاً بعيداً عن حتميات المنطق كان يؤرق فكره، ويفرض نفسه كبديل ممكن، لا يؤيد احتماله سوى نظرة تشاؤمية عودته عليها الحياة، فقد كان واثقاً إنها إن حلت، أوحلت، وهي قد حلت.

تعجب من نفسه أن تشغله هواجس الحب، عن قلقه بشأن نتيجة امتحانات الثانوية العامة بكل أهوالها، وعظم تأثيراتها على كل القادم من مراحل الحياة، لقد طغت صورة نادية وهي تبتسم وتمد يديها في اتجاهه قائلة: أحبك يا مجدي .. على صورة وزير التعليم وهو يعلن اسمه ضمن أوائل الجمهورية.

وحين وصل إلى بيته وجد مفاجأة سعيدة في انتظاره؛ وجد صابر، وقد حضر لاستكمال مناقشة أحس أنها انتهت على غير ما أراد لها، ولما لم يجده، ومع إصرار والدة مجدي على دعوته لانتظاره في ضيافتها وهو أخ لمجدي وهي في حكم والدته، وجدها فرصة طيبة لإدارة حديث معها لعله يستنتج ملاحظتها لشيء بشأن علاقة مجدي بنادية.

رحب مجدي بصديقه الذي يكن له الود والمحبة والاحترام، ودعاه إلى غرفته فغمز له قائلاً:

- لأ الزيارة دي مش ليك .. دي لماما .. ولو سمحت تشوف لك شغلانة وتسيبنا نكمل كلامنا، إحنا مش فاضيينلك.

واندهش مجدي واستنتج من غمزة صابر أن وراءها نفعاً ما لكنه رد عليه مموهاً:

- طب يا سيدي .. من لقى أحبابه نسي أصحابه؟ ربنا يهني سعيد بسعيدة، حا ادخل أنا المطبخ أعمل طقم شاي عشان القعدة تحلوّ.

وضحكت والدته مخفضة من قيمة شهامتة:

- ودي تفوتني يا مجدي وحا استنى لما تيجي عشان تعمل شاي لصابر؟ إحنا شربنا شاي، لو عايز تعمل واجب، جهز كبايتين ليمون لك ولصابر، يا تنزل تجيب إزازتين كاكولا..
- ما شاء الله دي تسريبة دي ولا إيه؟ لأ بقى قوم نقعد في قوضتي، وماما بقى – ملكة الليمون – هي اللي حا تتحفنا من إيديها بكوبايتين ليمون شفا ..

وأخذ بيد صابر وتحرك في اتجاه غرفته قاطعاً الطريق على استمرار المناقشة، فقد كان تواقا لأن تكون المناقشة بينه وبين صابر ...

في غرفته بادر مجدي صديقه بسؤال يمتزج فيه الاستطلاع بالاستنكار:

- إيه يا سيدي الحديث ذو الشجون اللي دار بينك وبين الوالدة؟ إوعى تكون فهمت منك حاجة؟
- حاجة إيه يا مجدي؟ دا أنا اللي استغليت الفرصة عشان أفهم منها حاجة، وأحاول أعرف إذا كانت لاحظت أي تصرفات خارج المألوف بينك وبين نادية ...

وسأله مجدي بلهفة:

- ولحقت توصل لنتيجة؟
- أيوه، واطَّمِن، النتيجة سلبية، والدتك ست طيبة وعلى نياتها، ومبسوطة من انسانيتك واهتمامك بدروس نادية، وشايفة إنك بترفع راسها مع الجيران، أي خدمة يا مجدي؟

سَعِد مجدي بإخلاص صديقه وحرصه على عدم إضاعته فرصة لأداء عمل نافع لصديقه، ولم يضع وقتاً حيث دخل مباشرة في الموضوع:

- شوف يا صابر، أنا قضيت ثمانية وأربعين ساعة في قلق القلق من ساعة ما سبتك لغاية ما جت نادية، ولقيتها طبيعية خالص، واستأنفنا الدروس من غير تعليق ولا إشارة ومشيت الأمور عادية لغاية ما خلصت امتحاناتها النهاردة، وعَدَّت عليَّ طمنتني وقالت لي إنها عايزة يومين راحة .. ونوم .. وحمام ... إلى آخره، وأنا قلت لأ معاكي من دلوقت، لبكره الفجر، وتسلميني نفسك ..

ووقف صابر وعلى وجهه علامات الرضا والبشر بينما قال لمجدي:

- يا عم انت خلصت الموضوع. أمال حا نتكلم في إيه؟ خلاص ما عدش في كلام. انت عديت من عنق الزجاجة، واجتزت الاختبارات الصعبة. مش باقي غير الحرص معاها

علشان ما تشعرش بأي شيء يقلقها، لأن تكرار اللي حصل حا يديها انطباعات مش مطلوبة لازم تستشف إن البوسة دي كانت حاجة عدت في سياقها وإنها مش متكررة إلا في ظرف مش متخطط زي أول مرة، والحرص كمان من إن أي حد يلاحظ حاجة ممكن يفسد لكم الموضوع، بدءً من ماما، لحد الأصدقاء حتى اللي منهم يعرف إنك بتعيش حالة، مش لازم يعرف بالتحديد مين الطرف الثاني. ثم توقف بشكل مقصود، محولاً الحديث: أنا بانصح مين؟! دا أنت طلعت دبور. استأذنك ... وأسيبك تنام في العسل. بس خللي دماغك فوق، عشان التنفس.

ومضى صابر ... وانفرد مجدي، فنفذ نصيحة صاحبه. غاص في الأحلام الوردية لم يكن نائماً فالسعادة – مثلها مثل الشقاء – تسلب النوم من الجفون، ولم يكن يقظاً، فقد انفصل عن الحركة، وافتقد حساب الزمن. مر الوقت؛ دقائق أو ساعات، لم يحصها عداً، استنتج أنها كانت طويلة، حيث خيم الظلام، وأطبق السكون، ومع ذلك؛ لم يغلبه النعاس.

****

سهاد

كان يتعجل الصباح أملاً في بلوغ البداية التي تداعب أحلامه، لكن الزمن عنيد بطبعه، لا يقبل التوسل، يسرع حين يكون المرء بحاجة إلى بحبوحة منه، ويتثاقل ويتباطأ حين يتعجله الإنسان.. لقد مضى الليل طويلاً حتى انتصف ثم مضت ساعة أو زهاؤها، حين تقلب في فراشه. يحاول أن يجد وضعاً يمهد له طريقاً للنوم، لكن جفنه لم يغمض، وأحس لهيباً في فراشه دفعه إلى أن ينتفض واقفا .. فتح شباك الغرفة، وأطل منه فإذا الكون كله ساكن، إلا قلبه .. الطريق مظلم رغم نور القمر في السماء حيث أطبقت المساكن المتقابلة على أنفاس الطريق الضيق فحرمته من الضوء المتاح لمن يرفع بصره إلى السماء. أحس ضيقاً، ولم يطق الثبات على أي وضع، فأعاد غلق النافذة، واتجه إلى المطبخ، وآثر ألا يضيء مصباحه، وقصد الشباك المطل على "المنور" وصل إليه بالغريزة، لم يكن يعرف على وجه اليقين، أذهب ليروي ظمأه فيشرب من ماء القلة البارد أم ذهب على أمل أن يطفئ لهيب الحب والشوق إذا ما تصادف وقوفها خلف شباك مطبخها؛ ربما لتشرب أيضاً من إحدى القلل الرابضة في صينية مشابهة في الموقع المماثل. أمسك بالقلة ورفعها بيده وأمالها ليصب معظم مابها من ماء في جوفه الملتهب ثم أعاد القلة، وثبت نظره محملقاً في الظلام في اتجاه شباكها عبر فاصل لا يزيد عن ثلاثة أمتار اجتازتها مشاعره المتأججة، سابقة لبصره الملهوف ... مضت لحظات ... دقائق وهو على هذه الحال، ثم سمع حركة ثقيلة، وخطوات يعلن عنها صوت "قبقاب خشبي" على بلاط المطبخ، ثم أضئ نور المطبخ، فتوارى خلف زجاج ضلفة الشباك ليرقب من القادم فلعلها تكون نادية مع تحسب ألا تكون هي ... علت دقات قلبه، وأرهف السمع، واسترق النظر .. واقترب وقع الأقدام، ومعها ارتفع صوت دقات قلبه، وفجأة رأى أم إبراهيم أمام الحوض المجاور للشباك حيث فتحت الصنبور لتغسل كوبين، ثم تشمر أكمامها لكي تبدأ التوضأ. أيُّ فرض ترى قامت أم إبراهيم لتصليه الآن؟ الفجر؟ لمْ يؤذَّن لصلاته بعد. إذن هي صلاة العشاء تأخرت في أدائها لجلسة جميلة مع العائلة مضت بالوقت دون أن تشعر بمروره. استراح لهذا الاستنتاج، وتبعه باستنتاج آخر؛ أن نادية مازالت يقظة وأن لديه فرصة لرؤيتها...

أتمت أم إبراهيم وضوءها، وقبل أن تبرح مكانها، سمع صوتاً يناديها؛ إنها نادية. نعم إنه صوتها. وهل تخطئه أذناه؟ وإذا أخطأته فهل يخطئه قلبه؟ وانسحبت أم إبراهيم من أمامه، وخلت الصورة إلا من الحوض تعلوه "مطبيقية" وإلى جواره صينية القلل في الشباك الخالي. لم يكن ليدع هذه الفرصة تتسرب من بين يديه دون أن يظفر بنظرة إلى محبوبته. كان لابد له من تصرف ما يلفت نظرها قبل أن تبتعد ويعزُّ منالها، وبسرعة أطلقت شفتاه صافرة لا تعبر عن لحن معين، وإنما هي صوت؛ أي صوت قد يلفت نظر نادية إلى وجوده فالمستحيل هو أن يترك فرصة – مهما بلغت ضآلتها – لكي يمتع ناظريه برؤية وجهها الجميل.

تقدم خطوة في اتجاه الشباك من جديد، يرقب نتيجة ما أصدره من صوت، وتذرع بالصبر وهو يرى الضوء المنبعث من نافذة نادية يتلاشى بعد أن أطفأت – هي أو والدتها – النور.

وقف يرقب بلا حراك – تسمر في مكانه، وقرر ألا يبرح مكانه حتى الصباح، أو يكلم نادية.

مضت لحظات، أمسك فيها أنفاسه، وهويتنصت، وفجأة؛ سمع صوتاً، كأنه وقع أقدام تقترب. مضت لحظات قبل أن تتناهى إلى سمعه اصوات خافته تحقق من أنها بحق وقع أقدام تقترب برفق وتؤدة من النافذة، حملق من خلال ستار المنور المظلم، فإذا وجهها الجميل، وقد انعكس على خدها الرقيق شعاع وحيد تسرب من القمر كأنما تعمد أن يميل بدرجة تسقطه على ذلك الخد الأملس فينعكس في اتجاهه. لا، بل تضاءل ضوء القمر بجانب ضيائها، وتواضع سحر الليل أمام ابتسامة حلوة بدت له على شفتيها .. تآمر الليل والقمر وسحرها على قلبه المشوق، فلم يتأخر في دفع المفاجاة إلى مشاعره المرهفة حتى صوت خطواتها لم يستمر سوى برهة.

تسمر في مكانه، وانحشرت الحروف في حلقة، فعقد لسانه عن القول؛ لم يعرف ماذا يقول، ولا من أين يبدأ، وأحس بالندم على لحظات الترقب والانتظار التي تسربت دون أن يرتب للحظة اللقاء، ولو استفاد منها لنظم شعراً. أين ما ادخر لساعة اللقاء من عذب الحديث؟ أي ما أعد لجوارها من رقيق الكلام؟ كلها ولت. حتى شجاعته خانت، ولباقته

مضت ... وسمع "بسبسة" في الهواء أعادته إلى واقع أجمل من كل الخيالات، فنادية حقيقة ماثلة أمامه، وها هي تناديه بما يتناسب مع الموقف والمكان والوقت. نظر إليها صامتاً للحظة يمتع نظره ونفسه، وهي لا تراه وقد لف الظلام نافذته، بينما يراها من خلال انعكاس ضوء القمر في اتجاها فاستدرك يعبر بالصوت الخافت:

- مساء الخير يا نادية!

ردت بهمس خفيض، مصححة للزمن:

- صباح الخير يا مجدي.

قال مستدركاً:

- صحيح ! إحنا قربنا على الصبح خلاص.
- وإيه اللي مسهرك لدلوقتي.
- إنتي.

قالها وصمت انتظاراً لتعليقها، لكنها سكتت، إما لعدم استقبال المكنى، أو لأنها لم تشأ أن يواصل معها حديثاً رومانسياً لم تجده مناسباً للوقت .. فواصل الحديث:

- وإنتي إيه اللي مسهرك؟
- قاعدين نتكلم في كل حاجة شوية، وكل ما نيجي نقوم ننام، حد يفتح موضوع يقعدنا تاني لحد ماما ما قامت وقالت لهم: قوموا ناموا بقى حا تضيعوا عليَّ العشا، وقاموا كلهم يناموا.
- يعني نقدر نتكلم شوية براحتنا ...
- لأ. راحتنا إيه. ماما لسة صاحية، وقبل ما تنام حا تنادي عليّ أكيد.
- طيب حا شوفك بكره إزاي وفين؟
- حا جيلكم شوية ع الضهر، واسيب لك ورقة صغيرة بالكلام ده. ودلقت تصبح على خير يا مجدي.

قالتها وانسحبت مسرعة وتمتم مجيباً بصوت حالم لم يسمعه غيره:

- وانت بألف خير يا نادية.

أحياناً؛ تفوق سعادة الانتظار – وحتى ما يعتريها من القلق – تحقُّق ما ينتظره المرء، لقد عاد مجدي إلى غرفته، فأغلق بابها عليه، وتمدد على سريره، فأحس كم تشوق للفراش. استلقى وأخذ يتقلب، يعدل من أوضاع جسده ليرى أيها أكثر راحة لذلك الجسد المكدود، وأكثرها تحقيقاً لانطلاقة أتفكاره وخيالاته مصوراً لعمر السعادة الذي يبدأ من نفس النهار، وعلى بعد ساعات منه. أحس ضرورة لاغتنام تلك السويعات في النوم ليستقبل الواقع الجديد نشطاً قادراً على تحمل دفعات سعادته، لكنه قرر الا يحرم نفسه من دقائق يتصور وقائع اللقاء الأول، ويحضر لدوره في حواراته. مضى مع الأفكار والأخيلة، حتى غلبه النعاس، فمتعة النفس غير قادرة على حرمان الجسد من حقه في الراحة.

امتلأت حجرته بالضوء من خلال طاقة على شكل نصف دائرة تعلو نافذة الغرفة يغطيها إطار خشبي لشرائح من الزجاج الملون، يضفى جمالاً على ما يخترقه من ضوء الشمس في الصباح الباكر إلى ما قبل الظهيرة حين تعطيه الشمس ظهرها، وتطل على الشرفات والنوافذ المواجهة عبر الشارع الضيق.

وكعادته، فقد بدأ يومه بإعداد كوب من الشاي، كانت والدته تحمل عنه عبء إعداداه، ما لم تكن خارج المنزل، كما كانت في ذلك الوقت حيث اعتادت التسوق في سوق الخضر والفاكهة القريب من البيت.

في المطبخ كانت أدوات الطهي المناسبة لأسرة من الطبقة الوسطى في تلك الحقبة من الخمسينيات؛ نملية، وهي دولاب خشبي تتكون ضُلُفُهِ من إطار خشبي لشبكة من السلك مازال يُسمَّى؛ سلك نملية، وأسفلها ضلفتان – أو أكثر – لتخزين أواني الطبخ النحاسية، و"مطبقية" خشبية لوضح الأطباق بعد غسلها وتثبت فوق الحوض، إضافة لترابيزة للطبخ عليها بعض الأواني والأدوات إضافة لوابور الكيروسين، و"سبرتاية" وعلبة أو أكثر من علب الثقاب ...

دخل مجدي إلى المطبخ فبدأ بأعقد الأعمال، وهي إشعال موقد الكيروسين أو "وابور الجاز" فسكب قليلاً من السبرتو في طاسة ماكينة الوابور وأشعلها بعود ثقاب، حيث تم تسخين الماكينة وأصبحت جاهزة لاشتعال الكيروسين الذي سيندفع من "الفونية" بعد أن يدفع "الكباس" إلى الداخل ويسحبه إلى الخارج، وحين ثبتت الشعلة على الوضع المناسب لغلي

الماء، أخذ "البراد" واتجه به إلى الحوض فثبته تحت الصنبور الذي فتحه واندفع الماء إلى الفتحة العليا للبراد، والتفت بنظره نحو نافذة الأمل في حركة تلقائية لا يتوقع من ورائها هدفاً، وإذا نادية خلف النافذة واقفة في مواجهتها وكأنما كانت تنتظره، ولربما كانت تستعمل الحوض، وترامى إلى سمعها صوت حركة في مطبخ مجدي فتوقعته فوقفت تنتظره. وقعت عيناه على أجمل مفاجأة جعلت من ذلك الصباح ابتسامة عريضة من الزمن.

ألقى إليها بتحية الصباح:

- صباح الخير يا نادية.
- صباح الخير يا مجدي. إنت بتعمل إيه عندك؟
- با املى البراد عشان أعمل شاي.
- كل ده بتملى البراد؟

وذكره السؤال بطول الفترة التي مضت منذ فتح الصنبور فنظر إليه ليجد ماءه قد ملأ البراد وفاض عليه ومازال يواصل عطاءه في كرم ... فأغلقه، واتجه من جديد إلى نادية مستكملاً حديثه.

- تصدقي سرحت، والبراد اتملى وزاد وفاض، وأنا سرحان؟
- أصدق، اللي واخد عقلك.
- يتهنى بيه يا رب.
- طب اسمع قبل ما حد يشوفنا، أنا عندي خبر مش تمام.

اضطرب بشدة وعلت دقات قلبه وسألها متلهفاً.

- خير يا نادية، قلقتيني، فيه إيه؟
- أختي سعاد تعبانة ودخلت المستشفى في إسكندرية، وحا سافر مع بابا نشوفها ونرجع بعد يومين، عشان انت عارف ماما حركتها تقيلة، وإبراهيم ما عندوش أجازات.
- وحا تسافروا امتى يا نادية؟
- بعد ساعة، يادوب بابا حا يصلي الضهر وننزل على طول.
- يا ريت ما تزوديش عن يومين. ولا إيه رأيك لو أسافر إسكندرية، ونتقابل هناك؟

- ربنا يسهل، إدعى تكون الحالة بسيطة، وإن زادوا اليومين، إن شاء الله مش حا يزيدوا عن تلات أيام، بس مش حا ينفع نتقابل في إسكندرية عشان الظروف اللي هناك.

أطرق مجدي غير عارف لماذا يقول، لكنه رآها تهم بالإنسحاب من أمامه، وكان ملزماً بأن يقول شيئاً:

- ربنا يكتب لها الشفا ... وتسافروا، وترجعوا بالسلامة ... وأنا في الإنتظار، وبلاش حكاية تلات أيام دي، خليها يومين وحياة والدك.

*****

إلى متـــى؟

كان الوداع سابقاً على اللقاء؛ نزير شؤم، وطالع نحس، فلم يكن مجدي منتظراً للقاء الأول بناءً على رغبة، أو توقع، لكنه كان متفقاً مع نادية عليه، وهي طلبت مهلة ليومين رآهما أطول مما يحتمل، وطلب أن تكون البداية في الصباح التالي، وحين رآها في ذلك الصباح؛ لم يكن ذلك وفاء لعهد، وإنما لتلقى إليه بأول لغم في طريق الحب الوليد ...

حتى حين حاول الاتفاق معها على السفر إلى الإسكندرية في نفس الوقت، ولقائها هناك حتى لا يشعر بالفراق، وقطْعاً على محاولات الزمن للكيد، رفضت بشدة، وأكدت أنها لن تبقى في الإسكندرية لأكثر من يومين، أو ثلاثة أيام على الأكثر .. ولم يكن يملك غير الإمتثال لحكم القدر متمنياً ألا يطول الغياب، وألا تتكرر قسوته.

ساعتان، وسمع صوت (حنطور) تطرق حوافر الحصان الذي يجره أسفلت الطريق أسفل المنزل، ومن خلال النافذة؛ رآه يبتلع حبيبته ووالدها ويمضي في قسوة إلى حيث يفتقدها ...

كان من عادة مجدي، أن يقضي أيام الأجازات الصيفية في نشاط دافق، ففي الصباح إلى نادي المدينة برفقة أصدقاء الجوار حيث حمام السباحة والمسابقات والمطاردات، وكل أنواع المنافسات حتى الظهيرة، ثم العودة إلى البيوت لتلتهم القراءة ساعات إلى أن تخف حدة الشمس القاسية في أيام الصيف، ويعود اللقاء مع تقسيمات كرة القدم أو الهوكي الذي صنعوا عِصِيَّه من خيزران الكراسي القديمة، ومن لا تتسع له المساحة اللازمة لهذه المباريات، ينخرط في ألعاب تتطلب لياقة جسمانية وتوافق عضلي عصبي وكانت تحمل أسماءً مثل "صياد وحمام" أو "رص الطوب" أو "عنكب" وغيرها ... وغيرها ... وبعد الحمام وتغيير الملابس، ينقسم الجمع إلى فريقين، أحدهما يلتف في حلقة حول "عامود النور" لكي يتناقشوا في أي شيء، وكل شيء، ثم يتحركون في مجموعات صغيرة متتابعة حيث شارع البحر من أول المدينة إلى آخرها وبودهم السير إلى منابع النيل لينتهوا مما أثاروه من موضوعات نقاشية وينهلوا من سحر النهر العظيم، ويملؤون بطونهم من كل ما تعرضه المحلات والعربات في طريقهم، والفريق الآخر يتخير من بين الأفلام المعروضة في دور السينما

أفضلها من وجهة نظرهم، وغالباً ما يكون عن رعاة البقر في الغرب الأمريكي، حتى لو كانت الأفلام الثلاثة التي تعرضها دور السينما الصيفية، وبطبيعة الحال لا ينسى أحدهم المرور – في طريقه إلى السينما – على مقلة الصاوي لشراء تشكيلة من اللب بأنواعه والحمص والسوداني المالح وغير المالح بنصف قرش (تعريفة) حتى تكفي السهرة إلى نهايتها والعودة إلى البيوت...

من كل هذه الأنشطة، لم يجد مجدي ما يغريه على مغادرة المنزل للاندماج في أحدها؛ بل إنه لم يجد رغبة في مبارحة غرفته، حتى إلى صالة المسكن حيث الراديو الذي انفردت به شقتهم عن بقية شقق البيت، أو ربما الحي، والذي عشق برامجه وانبهر بأحاديث المفكرين التي تابعها من خلال سهراته، استلقى على سريره، ونظره مثبت على سقف الغرفة، وفكره شارد، وباله مشغول مع المجهول الذي اختطف منه نادية عند نقطة البداية، أخذ يراجع الحوار بينه وبين نادية، ويحلل كل عبارة، بل كل كلمة أو حرف؛ ترى هل ستعود في الموعد الذي حددته – وهو بعيد – أم تتجاوزه يوماً أو أياماً؟ ترى هل قصة مرض شقيقتها المفاجئ حقيقة أم ذريعة للتملص من الوعد؟ ترى هل تعوضه عن ذلك الافتقاد حين تعود؟ بل هل تراها تبدأ القصة بلا تعويض؟! لم تماطل الأيام في صنع اللقاء؟ ولم تضن عليه وتحرمه السعادة التي يستحقها؟

مضى اليوم الأول؛ طويل كمارد، كئيب كبومة تنبئ بالخراب، أو غراب ينعق معلنا حدوث الخراب بالفعل، لم تكن هناك وسيلة تخرجه مما هو فيه، لا طعام يغريه، ولا شراب يرغبه، ولا نوم ينعم براحته، ولا شوق للقاء صديق، ولا رغبة في رؤية أهله الأقربين الذين يشاركهم المسكن ...

هل هذا هو الحب؟ هل هو مرادف للسهر والشقاء والألم؟ أين إذن جنة الحب الموعودة؟ وإذا كان هو جهنم فلم يقدم الناس عليه، ويتلهفون للقائه، ويستعذبون ألمه؟ وهل يملكون الفكاك من قبضته ما دامت في صدورهم قلوب مرهفة؟

تعب من مئات الأسئلة التي لا جواب عنده لها، وكلما نظر إلى معصمه ليتابع الوقت من خلال الساعة السويسرية التي أهدته خالته إياها حين حصل على الشهادة الابتدائية،

لاحظ أن عقاربها متوقفة أو تكاد، وشعر بمرور الوقت ثقيلاً، فيسائل نفسه؛ إذا كان ما مر من الوقت هو يوم منقوص فكيف تمر ثلاثة أيام بلياليها؟

وعلى أية حال فإن مرور اليوم الأول كحقيقة قد تدفع ببريق أمل أن يمر اليوم التالي، والذي يليه ..

صحا مجدي من نومه – إذا كان الوقت الذي أمضاه في عتمة الليل يعد نوماً – فأعدَّ كوباً من الشاي بدون بسكوتة أو تذوق لـ "المنين" الذي تصنعه والدته ولا تدع البيت يخلو منه، ثم فتح نافذة غرفته، وجلس خلفها يرشف من الشاي حتى وصل إلى "التفل" فأحس أن حياته وصلت إلى أسوأ ما فيها وتساءل عن سر عداوة الطبيعة للإنسان واستهدافه بالشقاء، لقد كانت حياته تسير سيرا هادئاً لينا؛ لا متاعب، لا منغصات، لا ألم، ولا قلق، كانت حياته تسير كقارب يتهادى على صفحة النيل لا اهتزاز فيه ولا اضطراب، وفجأة علت الأمواج الغريبة على النيل، فتأرجح القارب ثم علت الأمواج من جديد وازدادت حدتها وقسوتها فاضطرب القارب وأوشك على الغرق. ماذا دهاك أيها النيل .. أيها الساحر الرقيق كيف تحولت إلى غول مخيف وأصبح تيارك عاتياً يجرف قاربه إلى حيث لا يريد، وأسقطت المجاديف من يديه؟ إنك تخيفه حتى مع جرعات الأمل الزائف بأن التغير في طباعك جاء بسبب الفيضان، وفيه بشائر بالخير الوفير.

أطل مجدي من النافذة يرقب المارة؛ والشحيح من حركة عربات الكارو والحنطور، ويركز على الأخير وكل عربة من عرباته تدخل إلى الشارع لعلها تحمل نادية، ذلك مع علمه اليقين بأن الأجل الذي حددته للعودة لم يحل بعد، لكنه كان يمنى نفسه بأن تكون قد اطمأنت على شقيقتها سعاد فآثرت العودة قبل موعدها لإهدائه أول مفاجآتها السارة. كان قلبه يخفق وتواكب دقاته أنغام حركة الخيل التي تجر الحنطور، وتعلو دقاته مع اقتراب أحدها من باب بيته، وتتسع حدقتا عينيه مراقبة لحركته حتى يتجاوز بيته فتتوقف الدقات في انتظار حنطور قادم.

وحل الليل، ولم يستسلم لليأس بل دفع إلى نفسه جرعة من الأمل في أن تفضل السفر ليلاً؛ تخلصاً من حر النهار وغباره ومضايقاته، ثم أن والدها المسن، قد لا يحتمل حر النهار

ومتاعب السفر خلاله، وقد يفضل العودة مع نسمات المساء ويقنع نادية بذلك، وقد يكون من تدبير القدر أن يبعث إلى نفسه وسط ظلام الليل نورا يُبدد اليأس، ويمحو كل الهواجس.

ومضى معظم الليل ... لم يمض بيسر، لكن مروره كان عسيراً مزعجاً، أعصاب مشدودة، وفكر شارد، أماراته تلفت نظر والدته، التي ظنت بطيبتها الريفية وحسن ظنها، أن وراء قلقه تخوف من نتيجة الامتحان، فأخذت تطمئنه بأنه لم يقصر، ولن يضيع الله أجره فالله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ... وأخذت تعيد عرضها عليه بوجبات أو مشروبات مما اعتاد أن يطلبها بشغف لكن رده كان واحداً؛ ثبط من همتها، وذهب بحماسها للتخفيف عنه: "مش عايز".

لكن ملاحظته لقلق والدته دفع بالخشية على نفسه من أن يلاحظ غيرها حالته، ويربط بينها وبين غياب نادية مما يجعلهم تواقين لمتابعتهما بشيء من التركيز والاهتمام ومحاولة كشف المستور, وما أخطر ألسنة جاراته إذا تطرق الشك إلى إحداهن في علاقة ما يعتبرنها فضيحة بيد أن الفضيحة دائماً ما تكون من صنعتهن، وما أخطر الجارات عندما يجتمعن في مسكن إحداهن، أو يتجمعن أمام أحد أبواب الشقق، ويبدأن في الثرثرة، يتحدثن عن أي شيء، ودائماً ما ينتهي حديثهن ولم تهدأ شهيتهن لمواصفة الحديث؛ فهذه فلانة طلقها زوجها بعد أن أنجبت له البنين والبنات وأفنيت زهرة شبابها في خدمته ذلك الرجل "البصباص" النجس المفضوح ... وتلك فلانة التي هربت مع حبيبها وتزوجته "في السر" لأن أباها رفض تزويجها له .. وقصص لا تنتهي ونميمة لا تتوقف، وأخشى ما يخشاه أن تكون قصته مع نادية نسخة جديدة من حكاية حسن ونعيمة تلوكها ألسنتهن الحداد، فهي أقوى من السياط، بل أحد من السيوف، وهو لن يسامح نفسه لو تسبب في ضرر يحيق بها، أو ألم تتجرعه.

مع خشيته هذه حاول أن يتصرف بشكل طبيعي؛ يرسم على شفتيه ابتسامة يتمنى أن تبدو طبيعية ولا تشف ما وراءها، وعلى وجه الخصوص حين كانت نجية؛ زوجة شقيق نادية تزور والدته، ونظراتها غير البريئة التي تتلصص وتنفذ إلى أعماقه قبل أن تبدأ في دس أخبار عن نادية، كان يشك في أنها لجس نبضه واكتشاف شيء من رد فعله. وعلى أية حال فقد كان يطرق السمع، مخفياً شغفه وتطلعه لمعرفة أي شيء عنها، ثم يقنع بما تحصَّل من أخبارها فيتدخل ليغير دفة الحديث وكأن أمرها لا يهمه.

انتصف الليل، وفرضت الوحدة هيمنتها .. نام الجميع إلاَّه. قد تكون هذه الليلة الأخيرة قبل عودتها. أليس هذا هو الوعد؟ وهل صدقت كل الوعود؟ مازال الأمل هو الخيط الواصل بينه وبين الحياة. نعم لقد أصبحت هي الحياة نفسها .. كيف فعلت به عدة أسابيع كل ذلك؟ وألا تفعل الحمى ما تفعل بالإنسان في سويعات فحسب؟ وهل يليق تشبيه الحب بالحمى حتى لو توافقت الاعراض؟!

حين هبط الليل باستاره القاتمة على صدر الكون، سكنت الأنفاس وكأنما حبست بأقفاص العظام. أطل مجدي من النافذة بينما يقدح زناد فكره، فيم تأخيرها؟ وقد أشرف الفجر على البزوغ أحس إعياء الفكر والجسد يجتمعان عليه، فاستلقى في سريره ... استلقى جسده بينما روحه وقلبه هناك؛ في الإسكندرية، مع نادية، يراها، ويسمع صوتها، ويعيش معها بكل جوارحه ومشاعره .. وقيدت أفكاره عقارب الساعة فلم تتحرك، أو هي تحركت على استحياء فمضى الوقت كسلحفاة عجوز يكاد أحداً لا يلحظ سيرها، ثم نفذ شعاع ضوء عبر زجاج النافذة فدفع بنذر يسير من الأمل إلى نفسه، وتخلى عن الفراش ... ومضى إلى باب غرفته ففتحه وخرج إلى الصالة.

ولدهشته، وجد والدته تجلس جلستها الأثيرة إلى نفسها على "كنبة بلدي" تحت الراديو في الصالة التي تضم جدرانها، أبواب الغرف، وباب المطبخ. بدا وجهها، وقد اكتسى بمسحة قلق، وحيرة بخصوص ولدها، وما تعتريه من تغيرات غير مفهومة، لكن هذه المسحة تبددت، وعلت شفتيها ابتسامة خفيفة بوقوع بصرها على وجهه، وهو يلقى إليها تحية الصباح في دهشة وتساؤل:

- صباح الخير يا ماما. إيه اللي صحاكي بدري كده؟

وردت إليه التحية، والسؤال معاً:

- صباح النور يا مجدي. وانت إيه اللي صحاك؟
- إنت مش عارفة يا ماما إن النتيجة باقي لها ايام وتظهر؟! كل طالب في الثانوية العامة قلقان على مستقبله اليومين دول.
- وانت زيهم يا ابني؟ دا انت ما شاء الله عامل اللي عليك وزيادة. اطمَّن يا ابني، ربنا مش حا يضيع تعبك. وبكره تقول ماما بشرتني.

- احنا حا نقضيها حوار من غير ما نغير ريقنا يا حاجة؟
- لا يا حبيبي. أنا مستنية تقولها، ثواني، على ما تغسل وشك حا تلاقيني حضَّرت لك الشاي باللبن، والمنين اللي بتحبه ...

خرج من الحمام، وعاد إلى غرفته حيث رأى على المائدة الصغيرة المجاورة لسريره؛ صينية عليها كوب من الشاي بالحليب، وطبق فيه قدر من المنين، نظر إليه وابتسم بسخرية كأنه كان يعتذر له عن عدم إمكانية تناوله لشيء منه .. حاول، لكن الطريق إلى أمعائه كان مغلقاً سمح بالكاد بمرور الشاي ... ومضى الوقت .. وطال الإنتظار، وانتصف النهار الثالث دون أمارات على قرب انتهاء المعاناة. ما كل هذا الحب؟ أهكذا سريعاً، يجد نفسه أسيرا له؟

تذكر مدحت وقصته القصيرة للغاية مع سامية، وأحس أنه يستحق اعتذاراً منه عن استهزائه به، وسخريته منه، فيومها لم يكن قد خبر بعد، جبروت الحب وسطوته .. قارب النهار على الانتهاء، وكاد الضوء أن يولى، واستعدت الظلمة لتغطي الطريق، وتلون أفكاره، وهم بإغلاق النافذة ليجعل من الحجرة سجناً لجسده، ومن ظلامها منطلقاً لخياله، لكنه سمع حوافر خيل تطرق الأسفلت على الطريق، فأطل برأسه في اتجاه الناصية ليجد عربة حنطور تدخل إلى الشارع وتهدئ سرعتها كلما اقتربت من البيت حتى توقفت تماماً أمام باب منزله ... إذن هي نادية. أوفت بالوعد، وعادت لصنع البداية من قبل أن تنتهي المهلة ... نادية: ما أروعك، وما أصدق وعدك ..

نزل الشيخ خضر ... وتلهفت نفسه ونواظره لعبور اللحظة الطويلة التي تفصلها عن رؤية نادية تتبعه .. مرت لحظة ولم تشرق نادية، ونفذ صبره في أقل من لحظة، ويا ليته احتمل دقائقاً ثم يراها. لكن الشيخ أخرج من جيبه نقوداً أعطاها للحوذي الذي دسها في جيبه ثم هوى بسوطه على ظهر الحصان، فانطلق يعدو ومن خلفه العربة. أين نادية؟ ألم تعد؟ هل عدت وحدك أيها الشيخ؟ ويحك! هل تركتها في الإسكندرية؟ ولم لم تبق أنت وتعود هي، فلن يضير أحداً وجودك هنا أو هناك. نار تشتعل، وسعير يزداد أواره توهجاً في قلبه!

*****

الملاذ

زحف الليل حتى مضى أكثر من نصفه، دون أن تغمض عيناه المسهدتان. وكيف ينام مريض مكلوم، وعاشق محروم، مرتجف من برد الانتظار، محموم بنار الشوق واللهفة؟ سار الليل الهويني، كأنما تدفع كل لحظة فيه سابقتها بيأس لتأخذ مكانها. صراع متثاقل بين اللحظات، ونظرات كارهة لكل ما يحيط به؛ الحجرة الفسيحة بدت سجناً رهيباً، الفراش الوثير كأنه شوك أو جمرات مشتعلة يتقلب فوقها، وذلك المكتب؛ شريك السمتقبل؛ يكرهه هو الآخر، فما فائدة المستقبل إذا خلا من وجودها؟ إنها هي المستقبل. بل هي الحياة نفسها. زفرات ساخنة حارقة احتبسها في جوفه، واشتد لظاها فأخرجها مع زفير كاد يحرق الوجود كله. يريد أن يفعل شيئاً، لكنه لم يعرف ما هو. فلا هو يشعر بحاجة لطعام أو شراب، ولا هو يرغب في لقاء أو رؤية أحد ما دام عاجزاً عن لقائها ورؤيتها ولا كان ذلك الوقت من الليل بالمناسب لعمل أياً كان.

رباه! ما هذا الذي يتردد في نفسهً؟ أهي إرادتك؟ أم هي وساوس الشيطان؟ أليس هو الحب هبتك الخالدة؟ ولكنك قريب، وهو بعيد. يريد أن يصرخ؛ أيفيده شيء الآن؟ قد يخفف نور النهار من قتامة المشهد. ولكن أين هو من ذلك النور؟ وحتى لو مرت الدقائق وتنفس النهار، أي شيء يمكن أن يكشفه فيخفف عنه ما يعانيه؟ انتصف الليل، وافتقد الأمل، وعلى أية حال فقد أصبح يكره كل شيء، حتى الأمل الذي يترقبه رآه سراباً ... بل خدعة، لم يعد يرى علامة من علامات الحياة، فالهواء خانق، والظلام مقيت، والأفكار مجرد هذيان، لم يعد يوقن أيقظ كان أم نائماً، مريض أم معافى بل لم يعد بعرف أحي هو أم ميت! يكاد يجن، فقد السيطرة على كل عصب من أعصابه.

استجمع بقايا قوته، وانتفض من فرشه، وأضاء مصباح الحجرة، وجلس إلى مكتبه، رمز العقل والاجتهاد ودليل الوعي واليقظة، وقرر أن يقضي جزءا من الوقت المتبقي إلى أن يبزغ الفجر في جلسة تعصيف ذهني عله يخرج من حالته التي يتسحيل احتمالها لمزيد من الوقت.

طرح على نفسه سؤالا:

- مم أعاني؟

وأجاب:

- لواعج الشوق، وأوجا ع القلق والخوف.

ودفع بالسؤال الثاني إيضاحاً لإجابة السؤال الأول:

- وما الدافع لهذه المشاعر؟

وعاد فأجاب:

- لأنني لا أملك دليلاً على حبها لي كما أحبها، أو حتى بأي درجة أقل.

ثم تساءل:

- وما هو الدليل المطلوب؟ ألم تتقبل قبلتي المبكرة؟ ألم تتردد على مسكني بصفة يومية لتلقي الشرح للدروس ثم لطمأنتي على إجاباتها في كل يوم من أيام الامتحان؟ ثم الم تعدني بصنع البداية غداة انتهاء الامتحان، ثم اعتذرت حين جد جديد وطرأ ما استدعى سفرها؟ هل أجبرها أحد على ذلك؟

قال في ريبة:

- كل هذا جميل بل ومقنع، ولكنه من زاوية أخرى، استسلام لاقتناص قبله لم تسهم هي فيها حتى بالرضا ومصلحة كانت قائمة وحين انتهت لم تشأ الانسحاب الفجائي دفعة واحدة فبدأ بالاعتذار للسفر، ومن يدري ماذا يكون غداً؟

ثم ارتفع بالحوار إلى قمة المواجهة:

- هل ترى نفسك كفؤ ا لها أم متفوقاً عليها أو في وضع أدنى؟

آه. هذه نهاية الاستدراج الناتج عن التعصيف. كيف يمكن أن يجيب على سؤال عن تقييمه لنفسه، وتقييمه لمن يحب أكثر من نفسه، ثم عقد المقارنة بين نفسه، و ... نفسه؟

حاول الاسترخاء تحقيقاً لهدوء نفسى عله يضع اساساً للتقييم السخيف الذي يتسحيل خضوعه لنظام النقاط ثم استنكرما ذهب إليه وقرر تقييم نفسه فحسب، ولجأ إلى رأي كل من حوله، الذين يرونه متفوقاً، وشخصاً متميزاً، لكنه فطن إلى جانب من التقييم لا يأخذه اصدقاؤه في الحسبان، وهو الفيصل في العلاقة بين شاب وفتاة، وهو الشكل العام والمظهر، كما يقدر الشاب جاذبية الفتاة، فإن الفتاة لابد أن تتقبل الشاب، وعلى الأقل أن تتحد كيمياء كل منهما، فمن أين له أن يستنتج إحساسها هي؟ هو متأكد من إعجابها بكل جوانب

شخصيته، بل إنها أبدت انبهاراً بعقليته وكافة جوانب شخصيته، بقى له أن يطمئن إلى معرفتها أن ما يعلو وجهه من علامات، لا تعدو أن تكون ظاهرة مؤقتة مرتبطة بحقبة مطلع الشباب وسرعان ما تزول، وأن شعره المجعد، تدفع من أجله فتيات أمريكا أنصاف أعمارهن.

وقف، ونظر في المرآة، لم يجد نفسه جميل الوجه، حسن الطلعة، لكنه ايضاً لم يكن دميماً ... بعدها ضحك ضحكة معتوه، يشرف على الجنون يضحك وحده، ومن نفسه، وصاح بصوت مرتفع: يجب حذف كل الأسئلة، وكل الأجوبة فهي كلها مبنية على فكرة سخيفة، ودافعها عدم الثقة بالنفس، ولست أنا من يفعل ذلك. أنا مجدي شاكر من خيرة شباب المدينة طبقاً لكل التقييمات. لا غرور، ولا افتخار، فإن لم تراني ندا لها فسيكون ذلك تدنيا في قدراتها على التقييم بل انعداماً للنظر ولأكن قوياً معتزاً بنفس، ولكتن كرامتي فوق حبي وقبله.

ترك مكتبه وعاد إلى فراشه بعد جرعة الثقة المهدئة، وأغمض عينيه، وتمتم ببعض آيات القرآن ثم أخلد للنوم سويعات، صحا بعدها، فتناول مع الشاي شاندويتشا، ثم بدل ملابسه، وغادر البيت حيث مر بمجموعة الزملاء؛ الواحد تلو الآخر، حتى اجتمعوا في بيت مدحت، وأقفل عليهم باب حجرته، وساد الصمت لحظات قبل أن يقطعه مدحت متجها بنظره تجاه مجدي:

- هه. قول يا مجدي.

واندهش مجدي من العبارة المبهمة رغم أنه اعتبرها غير مستغربة، فقد جاءت على لسان مدحت:

- أقول إيه يا حكيم؟ هوا احنا كنا بنتكلم وانا عليَّ الدور؟
- أمال انت شكلت المجلس دا عشان نلعب طاولة؟
- ما شاء الله. كبرت يا مدحت وطلع لك عقل، لأ ومش أي عقل، دا ذكي ولماح بجد.

تدخل سعيد بسرعة:

- المرة دي مدحت لماح بجد يا مجدي، وحتى سبقني وخد الكلمة من على لساني.

وعلق مجدي:

- أد كدة أنا مفضوح يا ولاد؟

ورد عبد الهادي:

- على وِشَّك يبان يا بتاع اللبان، نبدأ جلسة الاستماع.

واعتدل مجدي في جلسته، وجال ببصره على المجموعة ثم وجه حديثه إلى صفوت ومحمد وحسن:

- وانتو مش عايزين تقولوا حاجة، ولا انتم كمبارس صامت؟ ماشي على كل حال، ما دام اتفضحنا يبقى ما فيش داعي للهروب، بس يا ريت الفضيحة تبقى في حدود الأوضة دي.

ضحك الجميع وكانت الفرصة مواتية لمدحت لكي ياخذ بثأره فوجه حديثه لمجدي:

- الله يخرب عقلك يا مجدي. آل جبتك يا عبد المعين تعينني، لقيتك يا عبد المعين عيان، بمقى احنا فاكرينك قلعة حصينة تستعصى على العدو، تقوم تسقط من أول سهم. دا انت ولا مدحت.

وعلق مجدي على سخرية مدحت من نفسه:

- هو طبعك ولا حا تشتريه يا مدحت؟ بس انبهك لو كنت بتفكر تخلص تارك، وتتريق، يقى بعيد عن شنبك، علشان أنا لسه عندي عقل، أقوى من قلبي وعاطفتي، بدليل إني طلبت نتقابل، ونتكلم عشان اسمع رأيكم المحايد وانتم مش واقعين تحت التأثير العاطفي اللي أنا متأثر بيه.
- أنا شايف يا مجدي إن الحب زي الساقية، مع دورانها بتطلع الميه اللي في البير لفوق على دفعات، أو زي قطر السكة الحديد عربياته كلها بتجري بنفس السرعة، وتفوت على نفس القضبان، لكن من غير ما واحدة منها تحصل اللي قبلها كل واحدة بتسيب الأرض اللي بتعدي عليها للعربية اللي وراها.

وصاح سعيد بصوت عالي:

- إيه دا؟ إيه الإبداع دا يا مدحت، لأ دا انت بتذاكر من ورانا، يخرب بيتك دا انت بقيت فيلسوف وبتَطَلَّع فلسفتك على مجدي، يا واد عربيات القطر ماشية ورا بعضها صحيح، لكن في عربية بضاعة وعربية مواشي، وفيه عربيات درجة أولى مكيفة، وعربيات نوم ... لا انت زي مجدي، ولا سامية زي ...

وتوقف عن الحديث ثم استأنفه موجها إياهُ لمجدي:

- هي صحيح اسمها إيه يا مجدي؟

وتحفظ مجدي قائلاً:

- مش مهم اسمها، ولا المقارنة بينها وبين سامية، أنا بس عايز أقول لمدحت إنه لو كان حب سامية بجد، كان استمر يحبها لغاية ما يموت.

ورد مدحت:

- أنا كنت فعلاً حاسس إني باحبها، وإنى حا اقعد احبها لغاية ما اموت، وفجأة صحيت من الحلم لما راسي خبطت في حاجة ناشفة – عرفت بعد كدة إن اسمها الواقع، وحللت الكلام اللي انتم قلتوه، لقيته مظبوط واكتشفت إني كنت با اخدع نفسي، واتخلصت فوراً من الشماتة والمهزلة اللي كانت حا تضيعني. بس أنا مصمم يا مجدي إن الحب – أيا ما كان شكله – كاس بيلف على كل الناس.

وعلق صفوت:

- بس خللي بالك يا مدحت إن فيه واحد بيشرب الكاس ببطء ويستطعم مذاقه زي اللي بيشرب شمبانيا، وفيه بيشرب فودكا ويقلب الكاس على جوفه مرة واحدة...

واستكمل مدحت ما قاله صفوت موجها حديثه إلى مجدي:

- وفيه كمان ناس بتشرب ويسكي، وناس بتشرب سبرتو – إوعى تشرب سبرتو يا مجدي.

وضحك مجدي رغم ما يعتريه من أسى:

- يا ولاد الإيه ... دا انتم متربيين في خمارة، عموماً اطمئنوا، أنا نقيت الصنف وحا امنع نفسي من الإدمان، وعلى فكرة يا مدحت .. أنا با اعتذرلك قدام المجموعة على مهاجمتي ليك لما عرفت إنك بتحب، رغم إنك أخترت السبرتو، أنا رجلي جت وبدأت اشرب، بس واعي كويس إن القانون ما بيحاسبش اللي بيشرب لكن فيه عقوبة على السكر والعربدة.

وانتقل الحديث بين المجموعة إلى شتات من الأمور انصرفوا في نهايتها شاكرين لمدحت استضافتهم.

****

عــــودة صادمـــــة

راضيا عن لقاء أفرغ فيه بعضاً مما نغص عليه حياته، و"فضفضة" مع شلة الدراسة، عاد مجدي إلى بيته قادراً على ممارسة الحياة بأقرب الأنماط إلى طبيعته المعتادة، وقضى بقية يومه فيما كان يقضيه فيه قبل أن تقتحم نادية عليه حياته حتى جاء المساء فالتقط كتاباً من مكتبته، وظل يقرأ فيه حتى غلبه النعاس...

وأشرقت الشمس، وملأ ضياؤها الدنيا، وأشاعت أشعتها الدفء في أرجاء الكون، قام مجدي من نومه فاغتسل، وشارك والدته طعام الإفطار للمرة الأولى منذ أسابيع، واستبدل ملابسه معتزماً الخروج قاصداً زيارة صديقه المقرب صابر. فتح باب المسكن، وهم بالخطو إلى الردهة خارجه، وإذا بنظره يقع على أغرب مفاجأة، كاد ييأس من تحققها، رأى نادية على فاصل بضع درجات من شقته، ها هي قد عادت بعد طول انتظار، بعد أن يئس قلبه من متعة الخفقان من جديد، ها هي ومازالت حقيبتها الصغيرة في يدها.

في برهة انطلق الشوق الحبيس، ولعبت اللهفة برأسه، وهم يجول ببصره حول المكان ليتأكد من خلوه من العيون لكي يحتضنها، ويروى شفتيه من رحيق خديها وشفتيها، وأفاق على صوت والدته تتخطى عتبة شقتهما، وترحب بنادية:

- حمدا لله على السلامة يا نادية، لكي وحشة يا بنتي، إزاي سعاد دلوقت؟

وقعت الكلمات على سمع مجدي وحسه موقع التوافق والرضا، وردت نادية وكأن قيثارة تعزف لحناً رقيقاً:

- مِرسي يا طنط، الله يسلمك .. الحمد لله سعاد بقت أحسن.

كانت نادية قد تخطت الدرجات الفاصلة بينهما، فمد مجدي يده إليها مصافحا محافظاً على احتضان يده ليدها لحظات بينما قال:

- غيبة طويلة يا نادية، نورتي المنصورة.

وارتسم في عينيه عتاب ممتزج بالأسى، ربما قرأته، ولعلها تغاضت عنه متعمدة، فحيت وانصرفت ... وابتلعها المسكن.

ومضى مجدي إلى جولة قصيرة في الشوارع المحيطة ببيته، دون أن يكمل الطريق إلى بيت صابر كما اعتزم، ثم عاد ليترقب على مدى ساعات النهار فرصة للقاء عبر المنور من خلال نافذتي المطبخين حيث كان اللقاء الأول، وعبثاً مضى الوقت حتى ساعة متأخرة من الليل، فانتحل لها عذراً بجهد السفر، ووعثاء الطريق، أوى إلى فراشه وتقلب فيه طويلاً حتى نام، وهكذا مر اليوم التالي .. ثم الذي تلاه، دون أن يجد سبيلاً لتحقيق الاتصال، أو حتى تلمس أيٍّ من أخبارها، ولم يكن يستطيع حسم تساؤله هل تتعمد تجاهله، أم أن لديها الأعذار ما حال دون تواصلها معه .. وأرهق ذهنه بحثاً عن طريقة يقطع بها الشك باليقين، وطرأت فكرة رآها الوحيدة، فانتفض وبدل ملابسه واتجه على عجل إلى عيادة الدكتور/ رمزي عبد الخالق حيث تعمل كريمة، صديقة نادية المقربة وجارتهما كممرضة، وقبل دخوله إلى العيادة، نظر في ساعته حيث اطمأن إلى أن موعد حضور الطبيب لم يحن بعد، وأن كريمة تكون بالعيادة لتجهيزها لاستقبال الطبيب والمرضى، وعدل مظهره بسرعة واهتمام كأنما سيلقى نادية نفسها.

وفي غرفة الاستقبال بالعيادة لم يصادف أحداً، فسعل سعلة نبهت كريمة لوجود أحد فخرجت حيث فوجئت بوجود مجدي فرحبت به ومدت يدها مصافحة:

- أهلاً ... أهلاً يا أستاذ مجدي.

وفي رده على تحيتها بدا عليه الانزعاج، وفضحته رنة قلق مشوب بالألم بينما قال:

- أهلا يا كريمة .. إزاي صحتك؟
- الحمد لله – اتفضل اقعد، إنت الحقيقة جيت في وقتك، وفيك شيء لله.
- ياه، خير يا كريمة، إيه دا كله؟
- خير، بس اقعد، انت واقف ليه كده؟ مش تستريح الأول وتاخد حاجة ساقعة، وتاخد نفسك كمان؟

وخرجت حيث عادت بعد دقائق، وفي يدها صينية معدنية عليها زجاجتي كوكاكولا، قدمت له إحداها، حيث تلقاها شاكراً بينما أخذت الزجاجة الأخرى، ووضعت الصينية على ترابيزة خشبية أمامه ثم جلست، ونظرت إليه وابتسمت ابتسامة باهتة استنتج منها رغبتها في

قول ما لن يريحه سماعه، ومع شغفه، وتوجسه، اصطنعت حرجا وترددا في البدء، فسألها بانزعاج:

- فيه إيه يا كريمة؟
- لأ، هي رسالة من نادية، أنا مش عارفة أقولها لك إزاي؟ دا هي مكلفاني أنقلها لك من امبارح الصبح وانا مش عارفة أوصلها إزاي. وكويس إنك جيت، وأنا عارفة إنك عاقل وحا تقابل الكلام بشجاعة....

عاقل؟ شجاعة؟ ماذا عندك مما يتطلب مني التعقل والشجاعة؟ أي مصيبة تحملين، وأي خطب تضعينني فيه، فتتحرجين؟! ألا يقول العامة أن وقوع البلاء خير من إنتظاره؟ هيا يا كريمة، هات ما عندك:

- فهميني يا كريمة، إيه الموضوع بالضبط؟ قولي اللي عندك من غير مقدمات لو سمحتي.
- ما تزعلش يا مجدي أنا حاصارحك بالحقيقة اللي ما قدرتشي نادية تصارحك بيها وطلبت مني أقولها لك قبل الأمور بينكم ما تكبر ويبقى الموقف أصعب، ويمكن النهاردة أحس من بكره قبل ما تتعلق بنادية أكتر ... وأكتر.

مفاجأة مذهلة، بل صاعقة، لم ترد إلى ذهنه، ولم يتوقع ما تواجهه به قبل أن يسألها هو عما جاء من أجل معرفته – أتقصد أن نادية ... وقطعت استرساله في التخمين، فأكملت فصول المأساة:

- نادية ماقدرتش تواجهك لأنها بتحترمك بدرجة كبيرة جداً، وفضلت تبعت لك معايا الظرف ده. تم قدمت له مظروفاً صغيراً، فضه بسرعة وأخرج ورقة كان يعرفها، قرأ الكلمتين الأوليتين منها ولم يكن بحاجة لقراءة المزيد، إنه يعرف الباقي، بل يحفظه عن ظهر قلب، لقد كانت رسالته إليها التي طلب منها فيها؛ البداية، فجاءت النهاية قبل البداية، ونظر إلى كريمة متسائلاً عن معنى ذلك وأجابت بلا تردد:
- إنتم مش لبعض يا مجدي، هي كانت عايزة تقول لك من الأول، بس الظروف منعتها؛ امتحاناتك وأمتحاناتها، وخافت تجرحك.
- خايفة تجرحني؟ ودلوقت مش خايفة؟ مش شايفة إنها لو قالت من أول يوم كانت الأمور تبقى أخف وأريح؟ دي لما خدت الجواب ده كانت ملامحها بتنطق بالسعادة، ووعدتني

نبدأ حياتنا بعد الامتحان، وانتهى الامتحان، وقعدت تماطل ... وتأجل، لكن عمرها ما قفلت السكة أو حتى عملت مقدمات عشان النهاية دي. كذبت عليَّ ليه؟ ودلوقتي جت لها الشجاعة تقولِّي نص الحقيقة. يا للا نرجع البيعة؟ لكن لسة ما قالتش النص الأهم من الحقيقة. ليه؟

- هي في الأول خافت تواجهك بالحقيقة، وهي شايفة الحب في عينيك والفرحة على وشك، وكسبت وقت الامتحان عشان تفكر فى الطريقة اللي تبلغك بيها الحقيقة، لكن كل مادة كانت بتشوف الحب بيكبر وبيملا حياتك، فصعَّبت عليها الموضوع وماقدرتش تواجهك وطلبت مني أقوم بالدور الصعب ده.
- تفتكري يا كريمة، لو كانت من أول يوم قالت لي: كفاية يا مجدي نكون جيران وأخوات كنت حا ازعل زي دلوقت؟
- والله معاك حق يا مجدي، بس هي زي ماقلت لك كانت في ظروف صعبة وتفكيرها مجهد وما عرفتش تتصرف صح، وكويس إنها في الآخر طلبت مني أقول لك لأنكم انتم الاثنين جيراني وزي إخواتي تمام.
- عموماً أنا متشكر إنك نبهتيني قبل المسألة ما تتعقد أكثر والحمد لله إننا لسة في البداية برضه، بس أنا كنت عاير أسألك عن شكوك في نفسي ومش عايز أظلمها.

وكأنما كانت كريمة بحاجة إلى مدخل إلى قنبلتها الثانية فقاطعته مريحة له من عبء صياغة السؤال:

- تقريباً أنا عارفة سؤالك وحاجاوبك عليه عشان أبقى وصلت الرسالة كاملة: نادية بتحب سلامة!

كانت القنبلة الثانية أقوى كثيراً من الأولى؛ ألا تحبه فهذه مشاعر لا تسأل عنها، ولها مبررات عديدة مقبولة، فمنها أنها صغيرة لم تنضج لكي ينبض قلبها بالحب، ومنها أن تكون مشغولة بالدراسة، لا تشغلها عنها أمور أخرى، ومنها أنها بحاجة لمزيد من الوقت حتى تقوي المشاعر وتجد نفسها أمام ضرورة الإفصاح عنها...

ولكن أن تحب شخصاً آخر فذلك سكين يمزق كرامته، أما وأن هذا الآخر هو سلامة ... سلامة بالذات من دون البشر فيا لها من مزحة مرفوضة، وأراد أن يمحو اللبس فلعله سلامة آخر فسأل كريمة:

- سلامة مين يا كريمة؟ سلامة العباسي؟
- أنا مش عارفة اسمه بالكامل، لكن هو سلامة اللي في الشارع اللي ورانا، اللي بلكونة نادية بتبص على بلكونتهم.
- هو سلامة العباسي، ومن إمتى بتحبه يا كريمة، دي يا دوب عدت الخمستاشر؟
- من شهرين ... تلاتة ...

أطرق مجدي لحظة، ثم فاجأ كريمة بالخطو في اتجاه الباب وقبل أن يبلغه قال دون أن يوجه نظره إليها:

- سلامو عليكم...

وانصرف عائداً إلى منزله، وفي رأسه قرار بأن يغلق بابه عليه ... ويظل يلعن هذه النفس وينتقم منها بما فعلت به، وأن يمزق قلبه الذي سبب له الهوان. وأن يحاول أن يستعيد عقله الذي أقصاهُ حماقةً.

ولسخرية القدر فعندما عاد إلى بيته، كانت الزغاريد في استقباله، وحين تلمس مصدرها، تأكد من أنها تنطلق من مسكن نادية، وحين اقترب من الطابق الثالث سمع هرجاً وخليطاً من الأصوات ينبعث من مسكنها الذي كان يمثل الأمل في نفسه، والجمال في عينيه. ولم يكن استنتاج السبب بحاجة إلى ذكاء... وعلى أية حال فقد رأي أن الأمر كله لا يخصه فبأي حق يقحم نفسه في أمر لا يعنيه؟

لكنها الدنيا لا تعرض نفسها طوعاً، إلا على المعرضين عنها فلقد فرضت عبارات التهنئة نفسها على سمعه: "مبروك يا نادية"... "عقبال الشهادة الكبيرة"... "يا اختي قولي عقبال العريس". وتخيلها تزف إلى سلامة فاقشعر بدنه، وهز رأسه كأنه ينفي الاحتمال، أو أنه يسقط الصورة الخيالية من رأسه، تلك الصورة الكريهة، والخيال السقيم.. وترامى صوتها السعيد إلى سمعه تملؤه الفرحة ورآه أنانياً كاذباً. أليس شريكها في هذا النجاح، ولأول مرة يلمح في نبرات صوتها الإثم والخداع.

أحس – ولأول مرة أنه يكره كل ذلك العالم، ولا يحب أن يرى منه أحداً، أو يراه منه أحد، حتى نادية سقطت عنها صورة الملاك، وأصبحت إنسانة كسائر البشر قادرة على الكذب والخداع!

مضت اللحظات ثقيلة .. مظلمة .. وهو شارد وساهم، مغلق بابه، لا يستجيب لنداءات أمه المتكررة .. أمه الطيبة التي أرادت أن تدخل البهجة إلى قلبه فزفت إليه – عبر الباب المغلق – خبراً اعتقدت أنه سيبدد سأمه:

- افتح يا مجدي، الفرح بدأ يدخل بيتنا، تلميذتك نجحت عقبالك.

غرست السكين إلى النصل في قلبه، فلم يعد قادراً على البقاء في مشهد الفرح الحزين، ومستنقع الشك اللعين، ففتح بابه ومضى إلى باب المسكن ثم خرج إلى السلم قفزاً، لقد قرر اقتحام كهف سلامة، صديقه اللدود.

****

زيارتان على غير موعد

فوجي سلامة بزيارة مجدي له، فبالرغم من تردده على مجدي في بيته، إلا أن زيارة مجدي لبيت سلامة، كانت نادرة وبفواصل زمنية طويلة. قابله سلامه بترحاب، ولم يُضع مجدي الوقت فقد جاء في مهمة محددة لجس النبض وتجميع الخيوط ومع ذلك لم يدخل مباشرة في الموضوع، بل اصطنع مدخلاً غير ملفت لنظر صديقه الثعلب:

- عندك فكرة يا سلامة نتيجتنا حا تطلع امتى؟
- سمعت إنها حا تعلن زي النهاردة.
- ربنا يكرمنا بقى وننجح ونسيب الثانوي وأيامه، والمنصورة وبلاويها.
- إيه النظرة السوداوية دي، دا احنا لما نروح الجامعة ونتغرب حانتشوق ليوم من أيام المنصورة والأهل ... والحبايب.
- طب الأهل وعرفناهم، لكن الحبايب دول يطلعوا مين يا دبور؟
- انت حاتمسك لي ع الواحدة يا مجدي؟ أصحابنا وزمايلنا، يعني إنت مش من الحبايب؟
- مش عارف، دي حاجة جوة قلبك ما أعرفهاش.
- إخص .. إخص .. إخص. ما كانش العشم، داحنا عرفنا بعض قبل ما نعرف نتكلم، وبعدين إنت قلقان من النتيجة يا مجدي؟ ولا خايف تطلع الثاني مش الأول؟
- "ومن شر حاسد إذا حسد"، يا ابني دي بطيخة، تطلع حمرة ... تطلع بيضا ... وحتى لو طلعت حمرا يا ترى حلوة ولا خيار، أنا اللي قالقني إن نتيجتنا دايماً آخر نتيجة، بيتعبوا أعصابنا لما نتايج النقل تظهر، ونتيجة الإعدادية تظهر والناس كلها تطمن، واحنا لسة بنضرب أخماس في أسداس.
- صحيح نتيجة الإعدادية ظهرت انهادرة، عندكم حد في بيتكم الملغم بالطلبة في الإعدادية؟

وصل مجدي إلى بداية الخيط، فبدأ يدقق في ملامح سلامة مع كل كلمة يقولها لعله يستوضح من قراءتها شيئاً:

- آه. نادية اللي ساكنة في الشقة اللي جنبي. ما أنت عارفها.

- عارفها منين يا خويا؟
- إيه هي تهمة؟ مالك اتكهربت كدة وكأني رميت على وشك مية نار؟
- يا خويا لا نار ولا جنة، إذا كان يريحك أكون عارفها خلاص عارفها، ولو إني بجد والله ما أعرفها.

لم يستطع مجدي أن يستنتج من حديث صديقه، صدقاً أو كذباً، فداوم الحديث:

- معقول زرتني خمسميت مرة، وما صادفش تقابلها ع السلم ... داخله ولا خارجة من الشقة؟
- ممكن، بس ما أعرفش إن اللي شفتها دي اسمها كذا، أنا حاكدب عليه ليه؟ هو أنا لو عرفت اسمها إيه تبقى فيها قلة أدب؟ بمناسبة قلة الأدب، فيه فيلم أمريكاني كله حب ساخن بين ويليام هولدن وكيم نوفاك اسمه نزهة، إيه رأيك لو ندخل حفلة الساعة تلاتةانهاردة ونكسر الملل اللي إحنا فيه والوقت اللي مش عايز يعدي ده.
- شكلك كده – وعلى غير العادة – إنك لا سمح الله بتعزمني؟

ورد سلامة بحماس مدافعاً عن نفسه:

- وليه لا سمح الله، أنا ماكانش قصدي أعزمك، لكن تحدي بقه، يبقى بعزمك وبجد يا مجدي.
- بلاش تهور يا سلامة يحسن أوافق.
- خلاص، قوم نلحق العرض فاضل نص ساعة.
- طيب أنا خالي من ذنبك يا سلامة، أنا قلت وحاسجل النهاردة كيوم من أيام المفاجآت والتحولات التاريخية.

كان سلامة بخيلاً مقتراً لم يسبق لمجدي أن يرى أي عملة في يده، وكان مجدي يحفظ أبياتا من الشعر عن رموز البخل ويكررها على مسمع منه فيضحك لها ولا يلحظ ما يقصده مجدي منها ويعتقد أنها من المنهج الدراسي لأن مجدي كان يكررها مع إيضاح مناسبتها، أو ذكر قائلها كأن يقول له:

- قريب هجاء جرير لبنى تغلب وهو بيوصفهم بالبخل قائلاً:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النار

فتمنع البول شحاً أن تجود به   وما تبول لهم إلا بمقدار

أو يترنم بأبيات ابن الرومي يصف بخل عيسى بن منصور:

يقتـر عيسى على نفسه   وليس بباق ولا خالد

فلـو يستطيـع لتقتيـره   تنفس مـن منخر واحد

كان مجدي يتلذذ وهو يردد مثل هذه الأبيات، لأنه كان يشعر بصدق أنه يصف صاحبه البخيل، لذلك رأى أن ينتقم منه بقبوله دعوته، وأثار التحدي في نفس سلامة نوبة من الشهامة، والكرم المؤقت فتساءل:

- خالي من ذنبي؟ هو انت حا تدبحني يا مجدي؟
- اكتر، أنا حا ادخل السينما على حسابك. وعلى اي حال ح تاخد ثواب كبير.
- على إيه؟
- بسببك، مات يهودي.
- إخص .. الله يلعنك..

استكملا الحديث في طريقهما إلى السينما، وقضيا وقتاً ممتعاً، لكن المتعة امتزجت في نفس مجدي بتأجج العاطفة من المشاهد فائقة الرومانسية وكأنما كان يتمنى أن يكون في موقع بطل الفيلم، وأن يكون موقعه في قلب نادية على نفس المستوى الذي شاهده في العرض الذي انتهى، وغادر مجدي وسلامة دار العرض بينما توجه مجدي بالشكر لصديقه الذي خرج من لقائه معه، بدرجة من الشك في وجود علاقة بينه وبين نادية، وفي طريقه إلى البيت حاول تحليل أسباب الرسالة التي وصلته من كريمة، وهل هي الحقيقة، أم هي مجرد خطة وضعتها كريمة لنادية لكي تشعل الغيرة في نفسه، ولو أنه لم يجد وراء ذلك هدفاً فلم يكن قد تدلل في حبه ولم يكن بحاجة إلى محفز لمزيد من الحب.

من جديد دخل مجدي صومعته ... أو زنزانته، وكالعادة أغلق بابه، وجلس يحلل ويخمن، يستعرض المقدمات ولا يصل إلى النتائج، يثبت وينفي، يؤكد ويدحض .. لم يكن بوسعه القطع بفكرة، ولم يكن أيضاً بوسعه أن يجلس صافي النفس، خالي الذهن، قرير العين، كان يتقلب على جمر، وتستقر بعقله كل أدوات الاستفهام وفي مقدمتها: لماذا؟

وبعدها كيف، وأين؟ وعند من، يتحير العقل: أهو حقاً سلامة؟ رغم دناءة خصاله، فإن ما بدا منه اليوم – حتى لو أجاد التصنع والتمثيل – يؤكد ألا علاقة له بنادية، وبالتالي فإما أن هناك سلامة آخر، أو أن الأمر كله مصطنع .. وبينما هو غارق في بحور الفكر سمع نقرة على باب غرفته، يبدو أنها تكررت قبل أن تلتقطها مسامعه فعلا صوته في عصبية واضحة، واستنكار للإزعاج:

- إيه بس عايزين إيه؟ مين اللي بيخبط؟

وجاء صوت صابر هادئاً، مقدرا لحالة صديقه:

- أنا صابر يا سيادة اللوا .. أقدر أدخل؟ ولا زيارتك بقت بمواعيد سابقة؟

وقام مجدي ففتح الباب واستقبل صابر بالعناق والاعتذار ودعاه للدخول:

- اتفضل يا صابر، معلش أنا مش مضبوط...
- داشرف كبير إنك تسمح لي بالدخول، مع إنك مش مدي فرصة لوالدتك تدخل وتكلمك، ويا عيني شايلة هم وقلق كافيين يدخلوك النار، وما صدقت تلاقيني عشان تستنجد بي عشان اتوسط لها عندك.
- معلش يا صبر أنا متلخبط، ومحبط وكاره الدنيا وما فيها لا عايز حد يشوفني ولا عايز أشوف حد.

وتظاهر صابر بأنه يهم بالإنصراف مما أشعر مجدي بحرج في مواجهة أقرب أصدقائه وأصدقهم مشورة له فاعتذر:

- أنا آسف يا صابر، ربنا يخليك ما تزعلش مني الأيام دي أنا قربت اتجنن.
- ماشي يا مجدي، ليس على المجنون حرج.

تقبلها مجدي لأنه كان على يقين أن صابر خالف عادته في اختيار ألفاظه بدقة فقد كان إنساناً من طراز خاص؛ واسع الإطلاع، معتدل الفكر، طريف الصحبة، مخلص في صداقته، مجتهد في علمه وتحصيله، كان عف اللسان، جاداً إلى أبعد مدى، في صرامة ألزم بها نفسه، يسعى للسبق والتفوق، وينجح في ذلك، كان أول مدرسته وكان حصيف الرأي، لا يفصح عنه قبل تقليبه على أوجهه وتمحيصه، قضاياه كلها جزئية، يبتعد عن التعميم حتى لا يحصر نفسه في ركن، وكان يعطي نفسه مرونة وفسحة بين الاحتمالات، كان كثير

الاستخدام لكلمات: "تقريباً – يمكن – جايز .." لكنه لم يكن زئبقياً يتنصل من رأيه، أو يحاول الإفلات من مسئولية الكلمة، فقط كان حذراً.

ولم يكن صابر يتوسع في اختيار أصدقائه، أو يميل للتواجد ضمن مجموعات، وإنما يختار صديقاً – أو اثنين – بحيث تتوافر فرصة الحوار، وإمكانية مناقشة قضية أو قضايا. لذلك كان مجدي سعيداً بلقاءاته بصابر في تلك الأيام التي كان فيها أحوج ما يكون لرأي حصيف، مخلص، قد ينتشله مما هو فيه.

ورغم إيمان صابر بأن الحب لعبة المترفين، وليس حرفة الكادحين، وأن سِنَّهما مازال مبكراً للغاية وأن حمل الدراسة لا يسمح بمزيد من الأحمال، كان يستثنى مجدي ويرى في حالته نضوجاً مبكراً، أو ربما قدر أن مجدي سقط في بئر الحب دون أن تكون له فرصة الاختيار، لذا تعاطف معه أو رثاً لحاله.

بعد أن دعاه للجلوس، واختار لنفسه مقعداً مواجها له، قص عليه حكاية كريمة، ثم تفاصيل لقائه بسلامة، وبعد أن انتهى منها سأله:

- ما رأيكم؟ دام فضلكم.
- رأيي في إيه؟ هي كريمة دي نظامها إيه؟
- والله سؤالك في محله يا صابر، كريمة دي إنسانة غير مريحة على الإطلاق، سنها فوق الثلاثين ولسة ما تجوزتش، ومصاحبة نادية، وسر نادية عندها و ....

وقاطعه صابر:

- أنا شايف إن اللي زي دي لا يمكن تحب تشوف اتنين وَرَاوِرْ من دور عيالها، بيحبوا بعض، وفرحانين وقدامهم مستقبل مفتوح مش زي مستقبلها، فأكيد لها دور مشبوه. إنت راجل مثقف يا مجدي وأكيد قريت إن علماء الجريمة، عندهم جملة متفق عليها في كل اللغات، لما تيجي تدور على الدوافع: ابحث عن المرأة... Cherchez, La femme. هي دي المرأة اللي ورا جريمة التفريق بينكم ... وأنا رأيي إنك تواجه نادية وتحذرها من كريمة ... وتفهمها إنك متأكد إنها ورا اللي بيحصل، وتخيرها بينك وبينها.

- طب ولو كانت نادية فعلاً بتحب واحد اسمه سلامة ... أي سلامة حا يبقي إيه الموقف لما أواجه نادية بثقة كدة؟ وبعدين خللي بالك، هي بعتت لي الجواب بتاعي مع كريمة، يعني مش كريمة اللي فبركت الموقف.
- يا عم مجدي، الله يكرمك، ما هي كريمة – تسعين في المية – هي اللى اخترعت الحدوتة وأقنعتها بيها.
- إحنا كده بنراهن على احتمال واحد من غير ما يكون عندنا دليل مؤكد لكن مجرد استنتاجات ومعنى كده إني حا امشي على مبدأ خد كل حاجة يا تسيب كل حاجة زي ما بتقوله {Take it all, or leave it all} وأنا نفسيا مش جاهز أضحي بكل شيء، أنا لو عملت كده يبقى عشان إحساسى بأن كبريائي اتجرح، وأنا لو اتحطيت في الاختيار القاسي ده حاكون مضطر اختار كبريائي وأضحي بحبي رغم كل المعاناة اللي أنا عارف إني حا اتحملها.

وصاح صابر سعيداً:

- برافو .. هو دا مجدي اللي أنا عارفه، ما هو يا تبقى الكفة في صالحك يا تكسر الميزان، أنا حا اسمعك بقى قصيدة كامل الشناوي الجديدة اللي ألفها عليك:

وفي دهشة تساءل مجدي:

- عليَّ أنا؟
- أيوه، عليك انت، هوه انت شوية؟
- والله كويس إن كامل الشناوي عرفني وعرف نادية، ولو أن معنى كده إن فضيحتنا بقت بجلاجل. قولّي بقى بيقول إيه كامل الشناوي عليَّ.

وأخرج صابر قصاصة من جيبه، فردها وبدأ يقرأ ما فيها بصوت مسموع:

لست أشكو منك — فالشكوى عذاب الأبرياء
وهي قيدُ — ترسف العزة فيه والإباء
أنا لا أشكو — ففي الشكوى انحناء

وأنا نبض عروقى كبرياء

لست أشكو منك — فاستمع لي وأجبني

ربما أسمع ما يقصيك عني

وبعد أن انتهى صابر من إلقاء القصيدة، حوَل مجدي الحديث:

- أنا اتهيا لي يبقى عندنا دم، ونقوم نفتح الباب لماما تدخل وتكلملك وتكلمها، وتجيب لك حاجة تاكلها ولا تشربها، عشان كده عيب قوي.
- لأ معلش يا صابر، أنا مش جاهز أشوف حد ولا أكلم حد...
- حد مين يا مجدي؟ هي ماما تبقي حد.
- إنت مش غريب يا صابر .. وأنا عمري ما خبيت حاجة عليك، أنا ماما لها دور مش قادر أفهمه، أنا حاسس إنها متأكدة من وجود شيء بيني وبين نادية، وإن خوفها عليَّ خللاها تقوم بدور غامض عشان تفرقنا...

وانتفض صابر واقفاً بينما وجه كلمات حادة لصديقه مجدي:

- اسمع يا جدع، أنا اسمي صابر صحيح، بس صبري له حدود، الهواجس اللي راكباك دي، مالهاش معنى غير السجن اللي انت حاطط نفسك فيه، واثر على مخك، قوم غير بدلة السجن ولا البيجاما اللي انت لابسها دي وتعالى أفسحك ع النيل شوية، وأجيب لك شوية ترمس، ولا كوز درة مشوي، وتشم شوية هوا نقي، يمكن الأكسجين يظبط دماغك، عشان إنت انهاردة مش عاجبني.

بعد رفض متكرر من مجدي، وضغط ملح من صابر، خرجا في نزهة، باركتها الأم سعيدة بالتغيير، متمتمة بالدعاء لصابر الذي أخرج إبنها من حالته، وظلت تدعو الله أن يخرج إبنها مما هو فيه حتى عاد في وقت متأخر وعلى وجهه إمارات تحسن نسبي؛ مسحة من الإرتياح، وبصيص من أمل بعد أن طال حواره مع صابر في ظل طبيعة آسرة أخاذة تفيض جاذبية وجمالاً، على شاطئ النهر الساحر فأحس ضعفاً إنسانيا فرض عليه ما يفرضه جلال الكنيسة على مسيحى صادق من الاعتراف بكل ذنبه أمام القسيس ... لقد أخرج كل ما في قلبه وكل ما في نفسه وعقله، وطرحه أمام صابر واضحاً، لم يخف شيئاً، وفي المقابل فقد أخلص صابر واجتهد في محاولة دءوبة لمساعدة صديقه فارتاح بما فاض به لسانه، وبما نصح به صديقه.

****

فرحتان

أطل مجدي من النافذة، لأول مرة منذ يومين، على اصوات تناديه، وضجيج مرتفع، ليرى كل أصدقائه زملاء الدراسة وقد جاءوا يهنئونه على النجاح الذي علموا به مع إعلان النتيجة قبلها بساعة واحدة، وصعدوا السلم على هيئة زفة مع أنغام ربابة، وطبلة بينما رددوا أهازيجهم:

"إدونا العادة .. يا لله الغفار، لولا مجدي والله ما جينا ... ياالله الغفار. ولا تعبنا رجلينا .. يا لله الغفار ..." ثم توقفوا فجأة ليقلبوا الزفة إلى مظاهرة من مظاهرات ذلك الزمان: "إما الحلاوة .. وإما التكسير .." حتى وصلوا إلى باب مسكنه فاحتشدوا في الردهة وأعلوا صوت الطبلة مع وقع أقدامهم على أرضية الردهة. ولما خرج إليهم مجدي مرتديا (بيجاما) رفعوه إلى أعلا وكرروا الهتافات حتى صاح:

- نزلوني الله يخرب بيوتكم، حا تقلبوني في المنور.

ضحكوا من قلوبهم، وأخفضوا سواعدهم حتى وقف مجدي على رجليه، وقال أحدهم:

- إيه يا عم التُّقل دا؟ ناس بينجحوا، وهما نايمين!

وضحك الجميع ودعاهم مجدي للدخول، والتوقف عن "الفضايح" ... وطبع كل منهم قبلة على وجنتيه وانتقلوا إلى داخل الشقة حيث قضوا ساعة، كرروا فيها المرح والغناء، وسألهم مجدي عن نتائجهم، فأبلغوه بنجاحهم جميعاً، لكحن سعيد علق ساخراً:

- إحنا كلنا نجحنا يا مجدي، بس لسة بقى بعد بكره حانعرف المجاميع، وطبعاً هناك فرق: حا يبقى فيه مجدي، وفيه مدحت.

وقاطعه مدحت بحدة مصطنعة:

- ربنا يوقف حالك، وينكد عليك يا سعيد، هوه أنا مولود فوق راسك يا جدع...

وانصرف الجميع، وبقى سعيد ومدحت، لأن قلقهم على قلب صديقهم لم يكن ليتركهم ينصرفون قبل أن يطمئنوا عليه، ويعرفوا آخر أخباره، ابتسم مجدي ابتسامة باهتة، وثبت نظره في اتجاه نقطة في سقف الحجرة ولم يتبس ببتت شفه.

رمقه سعيد ومدحت لحظات، ولما لم ينطق ابتدره سعيد:

- ياه كل دا حصل يا مجدي؟ لأ دي قصة مؤثرة بشكل مش طبيعي ... ولازم نلاقي حل.
- تلاقي حل لإيه يا معتوه إنت؟
- أنا برضه اللي معتوه، دا إحنا كنا بنتريق على مدحت، تقوم تطلع إنت أكبر روميو ولهان في زمانك؟ على كده يبقى مدحت أجدع منك، أقله ما سقطش زيك، وفيه صحة أربع بغال استرالي.

وأحس مجدي بخدش لكبريائه، فحاول الإفلات من هذه المصيدة، وتحويل مجرى الحديث، أو التمويه على الأقل:

- تقصد إيه يا سعيد؟
- لأ ... لأ، بقى شوف، إحنا حانعملهم على بعض ولا إيه؟ أنا مش من دول يا بتاع البولوتيكا دا أنا أبو اللعب كله، ولا انت دخلت زمرة المستعبطين، ونسيت أبو سعده وأيامه؟ لأ .. ما كنش العشم يابو المجد!

وحاول مجدي أن يعطي الحديث شيئاً من الجدية فهمَّ ينذر سعيد بالتوقف عن التهكم والسخرية منه:

- اسمع يا سعيد ...

ولم يعطه سعيد الفرصة للاسترسال، فقطع عليه الطريق:

- اسمع انت يا مجدي، انت حاتحكي الحكاية من طأطأ لسلامو عليكم ولا لأ؟ يمكن أقدر أعمل حاجة، مش بيقولوا يوضع سره في أضعف خلقه؟، وعلى كل حال معانا مدحت بيه المدرس أول بمدرسة كيوبيد العليا للشئون العاطفية ومنه نستفيد.

ولم يجد مجدي مهرباً، فقد كان حديث سعيد، رغم طابعة الساخر، مطابقاً لواقع الحال يسير مع الحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها، ثم إنه كان بحاجة إلى إنسان مخلص يقص عليه ما وقع عله يجد عنده الرأي السديد، مثلما أسداه صابر أو موازيا له، ومن تعدد الآراء يخلص إلى أنسبها.

حملق مجدي في سقف الحجرة في محاولة لتجميع الخيوط – أو البحث عن البداية المناسبة التي يدخل منها إلى القصة ولكن مدحت الذي جلس وقتاً طويلاً كالمتفرج يتابع نقاشه مع سعيد، صفق بيديه مهللاً:

- أيوه كده اتعدل في القعدة، واحكي لنا، هو احنان أغراب؟

وفي طريقه إلى باب الحجرة، أطلق ضحكة مدوية، وبعد أن أحكم قفل الباب عاد إلى كرسيه المجاور لمقعد مجدي:

- وادي الباب اتقفل وبقت ورد، قول يا عم، قول.

ووجد مجدي نفسه يبدأ الحديث الشائك ويتجه إلى سرد الأحداث المؤلمة:

- طبعاً لولا ثقتي بيكم، ولو ما كنتش عارف إن ....

وقاطعه سعيد:

- من غير مقدمات، ما تضيعش وقت، هو إنت غالب ٣/صفر ولا إيه يا كابتن؟ مش حا نقول لحد والسر في بير بس، خش في الموضوع،

وضحك صديقاه ثم استطرد مجدي في سرد روايته مستهلاً بسؤال هادف:

- إيه رأيكم فيَّ بصراحة يا جماعة؟

ورد مدحت بنفس روح الدعابة محاولاً إثبات أنه فهم ما يهدف إليه مجدي من وراء سؤاله:

- واد لُقطة، ولو كان عندي بنت، كنت أجوزهالك في ثانية.

وأكمل سعيد ما بدأه مدحت، موجهاً حديثه لمجدي:

- مش لقعدتك يا مجدي، مدحت لأول مرة في حياته بيتكلم صح على الأقل كان حا يطلع منك بشوية معلومات تفيده، وكان يتلحلح شوية عن كده.

وأعطى ذلك لمجدي كثيراً من الارتياح، رغم طابع الهزل والتهريج الغالبين عليه، فقال متسائلاً:

- طيب وإيه رأيكم لو إني عرضت حبي على واحدة، ورفضتني مثلاً:

وأجاب سعيد، وفي صوته رنة غضب مسرحي:

- تبقى غبية وحمارة، وبنت ستين ...

واستوقفه مجدي في الوقت المناسب:

- إوقف، لازعل منك، كل دي افتراضات ما حصلتش، أنا بدي بس نتفق على شوية نقط قبل ما أتكلم.

وتعجب مدحت من دفاعه عنها واستنكر منه ذلك:

- شوف بيخاف عليها إزاي؟! مش قلت لك يا مجدي إن الحب يخليك ما تشوفش غير مزايا اللي أنت بتحبها؟ أنا متأكد إنك بتديها ميت عذر وعذر في كل تصرف غلط منها، لكن يا مجدي – ومن غير ما أعرف إيه اللي حصل بينكم – نصيحتي لك إنك تسيبها، إنت إنسان ممتاز وأي واحدة تقدرك وتتمناك، وتكون سعيدة بيك....

ونهره سعيد لسبق الأحداث قائلاً:

- ما بلاش حداقة زايدة، إنت يعني بقيت شرلوك هولمز، بتفهمها خلاص وهي طايرة؟ وتجيب لها حل على الطاير يا ابو مخ طاير إنت؟ أصبر ع الراجل شوف حا يقول إيه.

واستمر سعيد، بينما اتجه إلى مجدي:

- قول يا مجدي، بس إحكي كل التفاصيل من الأول علشان حكمنا يكون سليم.
- الحكاية مش محتاجة تفاصيل ولا دياولد ... الحكاية باختصار ... إديت درس لجارة في الإعدادية، خلال مقابلاتنا اللي تكررت كل يوم تقريباً، شفت في عينيها درجة من الإعجاب بطريقتي في الشرح، واستيعابي لكل المواد اللي شرحتها لها، وأنا كمان شفت فيها صفات عجبتني فقربت منها شوية .. شوية، ولقيت نفسي في موقف اثناء انصرافها من عندي ما عرفش منين جت لي الشجاعة في لحظة لقيتني باخطف بوسة من خدها ... لا أنا علقت ... ولا هي علقت ... ومشيت الأمور بطريقة سِلسَة و ....

استوقفه مدحت:

- سلسة مين يا بويا؟ بوسة؟ دي مرحلة متقدمة جداً لدون جوان خبرة خمستاشر سنة ...

وعلق سعيد:

- اللهم اوعدنا ... يا ريتك تسيبنا نملس على شفافيك اللي تساوي تقلها دي.

نهرهم مجدي على مقاطعتهم، وتعليقاتهم الهزلية:

- حا نقلبها تهريج، بلاش نكمل، حا نسمع ونركز عشان يمكن يكون فيكم فايدة، ماشي؟

قال سعيد:

- لأ نسمع ونركز ...

واستكمل مدحت:

- واحنا زي الجزم، مش حا نطلع صوت، دي الحكاية داخلة في منعطف خطير (ووجه حديثه لمجدي متسائلاً):
- إيه رأيك في منعطف دي مش صورة من صور الجمال اللفظي؟

ابتسم مجدي واستكمل ما بدأ:

- المهم يا سادة؛ خُلص الامتحان واتفقنا نتقابل بعد يوم ولا اثنين، وفجأة بلغتني إنها مسافرة إسكندرية علشان اختها عيانة هناك، حا تشوفها وترجع بعد يومين تلاتة ... اتأخرت وبعدين رجعت، لا حس ولا خبر ... وعشان أشوفها، اضطريت أروح لواحدة صاحبتها ممرضة في عياة علشان أسألها عنها، وأطلب منها توصيل رسالة ليها، وفوجئت بيها بتسلمني ظرف فيه جوابي اللي بعته لها في أول علاقتنا، وبلغتني إنها بتحب واحد ساكن ورانا ...

زارنى وحاولت أعرف منه حاجة، وانصرف بطريقة أثبتت لي إنه حتى ما يعرفهاش، ومن ساعتها أنا با أضرب أخماس في أسداس، يا ترى هو صادق وإنها هي وصاحبتها اخترعوا موضوع من العدم لغرض أنا لسة مش قادر استنتجه، ولا هو حويط بدرجة أنه نجح في إقناعي ببراءته.

ودي كل الحكاية من طأطأ ... زي ما بيقولو ... لسلامو عليكم. أفتوني يا سادة.

قال مدحت:

- نفتيك في إيه يا مولانا، دا انت المفتي المعتمد، وإحنا التلامذة، إنت عملت ما لم تفعله الأوائلُ، وصلت للي غيرك بيوصله في سنين... وحكاية الواد اللي ساكن جنبكم دي حكاية واضحة ومتفبركة، ولا تمشي من هنا لباب الأوضة (ووجه حديثه لسعيد) ولا إيه يا دبور؟
- والله أنا – كدبور – شايف إن زعيم عش الدبابير هو مجدي، وهو مش محتاج رأي .. وقوم يا عم نمشي ونبقى نيجي كل اسبوع ناخد حصة غرام من الأستاذ مجدي.

نهض مدحت مؤمناً على رأي سعيد، ودعاهم مجدي لتناول الغذاء معه واستكمال الحديث، فاعتذرا على أن يعودا للقاء بعد يومين لحديث آخر وتشاور حول المستقبل على

ضوء علمهم بالمجموع الذي يحصل كل منهم عليه. انصرفا وبقى مجدي وحيداً من جديد مع أفكاره وهواجسه.

****

الجنـــــون

في الأيام الثلاثة التالية، كان مجدي كالجندي في الميدان، في حال الطوارئ وكل الإنتباه، وعلى أهبة الاستعداد والتحفز ... ظل مرتديا ملابس الخروج، يطل من النافذة، ويترقب رؤية نادية حتى يرصد خطواتها، ويتابع سلوكها، ويرصد ما يمكنه من الوصول إلى الحقيقة، لكنها لم تبرح بيتها، أو تتخطى باب مسكنها.

انقضى نهار مع التساؤل؛ عشرات الأسئلة، ومئات من الأجوبة والاحتمالات. كان النهار طويلاً مُمِلاً، لكن الليل الذي تبعه كان أطول، وأكثر مللاً، وأشرق صبح جديد لم تكن شمسه العفية بقادرة على معاونته للتمييز بين الشروق والغروب ومضى النهار مع سؤال ملح ومتكرر؛ "المقابر للأموات، وأنا حي لم أزل، فلِمَ أعيش هذا الصمت الرهيب، مع الأشباح والخيالات وجانب واحد من جانبي المصير: جهنم؟"

وفي الليل تكالبت عليه الهواجس والهموم، وتسابقت إليه الآلام والأوجاع، فحرَّمت النوم على جفونه، وفشلت أقصى محاولات التفاؤل بتوقعات النجاح المشرف في الامتحانات أن تخفف من حدة ما يعانيه ... ومع النهار كان نذير شؤم تمثل في إنذار من مصلحة الضرائب بالحجز على أملاك والده ما لم يسدد الضرائب المستحقة على نشاطه عن الأعوام الأربعة السابقة خلال مهلة قصيرة ومُعجِّزة .. وعاوده الصداع اللئيم الذي كان يعاود رأسه كل حين ضيفاً ثقيلاً لا يبرحها قبل أسبوع في أقصر زياراته...

تكالبت عليه آلام النفس والحس، وآوى إلى حجرته في منتصف النهار الثالث بتمزق ... يحترق ولا يدري طريقاً ينحرف به عن طريق الآلام... وأمسك بقلم ووريقة، وتهيأ لكتابة خطاب إليها لم تكن في نيته إرساله لها:

إقسي علي وعذبي مني الفؤاد فلن أمل
أو يؤلم الطير الذبيح الريش ساعة ينفصل

ثم توقف، وضحك ضحكة هستيرية بطريقة مسرحية، توقع معها أن يكون الجنون قد أصابه ثم مزق القصاصة بعصبية وألقاها في أرضية الحجرة ثم انطلق إلى الحمام فوقف

ساكناً لعدة دقائق تحت ماء الدش، ثم خرج فاستبدل ملابسه متهيئاً للخروج ورأته والدته فسألته:

- إنت خارج دلوقتي يا مجدي؟
- يمكن أنزل بعد شوية... ليه؟ فيه حاجة؟
- لأ أبداً، أصل أنا حازور أم إبراهيم شوية عشان بنتها نادية بقالها يومين بعافية.

وتساءل في لهفة وجزع:

- نادية، ولا أختها بتاعة إسكندرية؟
- لأ لأ نادية والدور يا ضناي شديد، إياك ما يكونش الدور اللي جالها قبل كده.
- دور إيه اللي جالها قبل كده؟ ما كانت صحتها تمام، وكانت بتيجي قبل الامتحان وأيام الامتحان.
- لأ قبل كده بكام شهر ...

وقاطعها حتى يسقط أي احتمال لإهتمامه بها تستنتج منه والدته ما لا يرغب في وصولها إليه.

- طيب يا للا يا ماما، روحي بُصِّي عليها، وأنا يمكن أنزل شوية.

وما أن أغلق باب الشقة حتى سمع طرقاً على الباب فعاد ليفتحه ويفاجأ بسلامة، هل عرف بمرض نادية وجاء للاطمئنان؟ هل هي مجرد صدفة وفقت بين المرض والزيارة؟ أسئلة كثيرة تزاحمت في رأس مجدي في اللحظة التي سبقت ترحيبه بسلامة ودعوته إلى الدخول.

وكأنما قرأ سلامة ما يدور في رأس مجدي فبادره بتهنئته على النجاح:

- مبروك يا مجدي مؤقتاً لغاية ما نعرف المجموع. على فكرة؛ النتيجة حاتكون في المدارس بكرة الصبح، نبارك لك بكرة إن شاء الله.
- شكراً يا سلامة، ألف مبروك عليك بصفة نهائية بافتراض إن مجموعك حايكون مشرف إن شاء الله.

بقى سلامة ساعة أو بعض ساعة لم يبدر منه ما يدفع إلى الشك أو يولد الريبة، واستأذن فانصرف.

وعادت والدة مجدي بعد عيادتها نادية والاطمئنان عليها فطمأنت مجدي لحالتها:

- الحمد لله، نادية اتحسنت قوي، وقعدت معانا وهي طبيعية، بس الخوف ليكون الدور اللي جالها ويرجع لها كل شوية.
- الحمد لله، إيه الدور اللي بتتكلمي عنه دا يا ماما؟
- من أربع خمس شهور جت لها سُخنية ورعشة استمرت معاها ييجي خمستاشر يوم، وفكروا كام مرة يودوها الحميات، لولا كريمة جارتنا، الله يبارك لها – كانت قاعدة معاها على طول، تضرب لها حقن، وبرشام كل كام ساعة ... وكمَّادات، وهي راقدة ف دنيا غير الدنيا؛ لا مدرسة، ولا مذاكرة ... لغاية ماخفت، ويا دوب كام أسبوع، وبدأت تروح المدرسة وتذاكر عشان تعوض اللي فاتها، وانت وافقت يا حبيبي – ربنا يكرمك ويقعَّد هولك – إنك تساعدها، واهي نجحت وجابت نمر كويسة، عقبالك.

مضى الوقت كيفما مضى، وقضى مجدي ليلته يتقلب في فراشه معملاً عقله في حسابات معقدة عن احتمالات النجاح ونسبته، أو الفشل ومدى عمقه في نتيجة الثانوية العامة، كما غاص في التحليلات المتشابكة لظروف وتصرفات حبيبته، فكلما اقترب من دليل إدانتها، فاجأه مبرر لا يستطيع إنكاره على عكس ذلك الدليل، وكلما ارتاح لبراءتها وصدقها، صعقه تصرف يعصف بهذه البراءة وينحيها بعيداً عن عقله وقلبه

وأشرق يوم جديد ... يوم الفصل، فبدأ يستعد للتوجه إلى المدرسة لمعرفة المجموع وسحب أوراقه منها، وأحس في طريقه إليها كأنه يسحب أوراق اعتماده من المنصورة ... اليوم آخر عهده بحياة .. وأول السبيل إلى أخرى؛ راوده الأمل في أن تفضلها.

وصل إلى المدرسة فاستقبله الزملاء بالعناق والتهاني، وكان عجيباً أن يهنئوه على النجاح مرة أخرى فتساءل عن الخبر، فأجيب بأنه أول المديرية، ولأول مرة أحس فرحة النجاح، واستشعر لذة الانتصار.

في هذه اللحظة بالذات نسي قلبه، ونسي إخفاقه، لقد فرح بانتصار عقله، فطغى الفرح عل كل شيء، ودخل إلى حجرة سكرتير المدرسة الذي هنأه، وكذا فعل المدرسون الموجودن، ثم تسلم أوراقه، وألقى نظرة إلى استمارة النجاح، ففوجئ بأنه قد حصل على مجموع يؤهله لأن يكون من أوائل من ترحب بهم الجامعة والحصول على مكافآة تشجيعية من الدولة.

وفي طريقه إلى البيت مر بأبيه في متجره حيث زف إليه البشرى واتفق معه على السفر إلى القاهرة لتقديم أوراقه إلى مكتب تنسيق الجامعات، وفي البيت كانت فرحة كبرى؛ دخل على أمه وقد تهللت أساريره، وبدا البشر واضحاً على وجهه، وتقطرت السعادة من سؤال أمه إليه:

- خير يابني، جاي مبسوط يعني وفرحان قوي؟!
- نجحت يا ماما ... أكبر نجاح ...
- الله، طب ما أنت ناجح من أول امبارح يابني.
- أيوه يا ماما، بس النهاردة نجحت قوي ... قوي، نجحت أكتر من أي واحد في المديرية من أولها لآخرها، طلعت الأول على الدقهلية كلها،

وقبلته أمه في عطف وهنأته في سعادة واضحة.

- ألف مبروك يا ابني ... وهي بقى حكاية الأول دي هي اللي كانت مضايقاك قوي كده؟
- أمال إيه يا ماما، مش كفاية دلوقت الواحد ينجح، لازم يكون نجاح يشرف.
- الحمد لله يا إبني، وربنا يكفيك شر العين.

وحول مجرى الحديث خوفاً من ضياع الوقت الثمين:

- ماما، والنبي جهزي معايا شنطتي عشان أنا مسافر مصر بكره.
- بكرة؟ ليه يا إبني؟ كفى الله الشر؟
- عشان أقدم في الجامعة، مافيش وقت.
- طيب يا ابني حاضر، خمس دقايق بس، حا حضرلك الحمام الأول، تاخد دش يفوقك.

وبعد أن أعدت له الحمام ودخل وهم يخلع ملابسه، بل وبعد أن خلع بعضها، سمع طرقاً على باب الحمام، ومع الطرقات جاء صوت أمه:

- مجدي، نادية جابت لك الكتاب بتاعك أهو ...

في سرعة دقات قلبه، كان عقله يعمل: أي كتاب؟ إنه مكتوب وليس كتاب، ولكن بعد كل ما مضى؟ شيء بعيد ... شبه مستحيل.

وفي سرعة دقات قلبه أيضاً، وتفكير عقله، كانت يداه قد أعادتا ما خلع من ملابس إلى جسده، وانطلق من الحمام خارجاً – ومدت أمه يدها إليه بالكتاب، ودخل إلى حجرته،

وأغلق الباب، ثم قلب صفحات الكتاب بلهفة، ليجد بين طياته ورقة، التقطتها أصابعه قبل أن تقع عيناه على محتواها، ووضعها في جيبه، وعاد إلى الحمام حيث أخرجها، وبدأ يقرأ كلماتها الحلوة المفاجئة التي لم يكن يحلم بأجمل منها:

حبيبي مجدي!

أحبك من كل قلبي، وكل جوارحي، إنني لك وحدك، لك أنت يا حبيبي، وسأظل لك إلى الأبد، أما عن سلامة – فبالرغم من أني لا أعرفه – فإنني أمقته وأحتقره لا لسبب، إلا أنني علمت أنك تمقته وتحتقره.

حبيبي!

لقد سمعت الآن، إنك ستسافر إلى القاهرة لتقديم أوراقك إلى الجامعة. أهنئك وأتمنى أن تعود سريعاً، وإلى أن تعود سأعد اللحظات، ودقات قلبي.

حبيبتك نادية

حقيقة .. أم خيال؟ عقله يقول خيالاً، وقلبه يقول: بل أبعد من الخيال، وأمتع من الخيال، وعيناه تقولان، بل واقع تشهد عليه هذه الأصابع التي تحتوي رسالتها ... لقد رأى في ذلك جنوناً أي جنون ولكن ما الجديد؟ أليس الحب هو عين الجنون؟!.

****

قســـوة المكـــان

كانت جميلة ... ومبهرة ... وكانت مكافأته الكبرى، تلك هي زيارة عمه في أجازة الصيف ليمضي شهراً في القاهرة. كان يسعد بركوب الترام كشيء منفرد لا يحظون بوجوده في المنصورة، وكان يصحو باكراً على أزيزه، وكان يحلم بدور السينما الفاخرة، مترو – ريفولي – راديو، وكايرو بالاس وغيرها... كانت القاهرة تعنى له الأهرام، وحديقة الحيوان والمتحف المصري والمتحف الزراعي، وشوارع سليمان باشا، وفؤاد الأول وقصر النيل، وتمثال نهضة مصر في ميدان باب الحديد.. كان يختصر مصر في القاهرة، ولم يعرفها باسمها إلا في الكتب الدراسية، وإنما عرفها بما يسميها به الناس .. كل الناس: مَصر.

لكن زيارته التي أعد نفسه لها كانت ثقيلة تمنى أن يعود منها قبل أن تبدأ رحلته إليها .. تعجب للزمن، فاليوم الذي يتفوق فيه على الجميع في الدراسة، ويفخر بعقله ويؤكد ثقته فيه، هو اليوم الذي حظي – ولأول مرة – بندائها العذب لإسمه مسبوقاً بكلمة "حبيبي" فيطرب قلبه، ويتأهب لاستقبال أيام السعادة، لكنه أيضاً يوم الفراق الكريه، أو هو بالأقل يوم الوداع حتى مع عهد باللقاء..

وهكذا أصبحت القاهرة عزولا يفرق بينهما .. وصل إلى القاهرة فرآها بغير ما كان يراها عليه، وفي بيت عمه استقبل بترحاب عظيم، وتلقى التهاني على نجاح وثقوا في استحقاقه له .. وأحس بمشاعر متضاربة قاسية مزقت فؤاده، فقد كانت العائلة – ومنذ سنوات طويلة – تكرر أن مجدي لإبنة عمه سُمية، وأن سُمية لمجدي ... وتكرر ذلك على مر السنين حتى غدا واقعاً مستقراً طالما شغل عقل مجدي وأجهده في البحث عن حل يمكنه من فك ذلك الإرتباط السخيف دون أن يشق العائلة ويوقع بين الأخوين؛ والده، وعمه.

كانت سُمية على جانب من الجمال والأدب، وكان يشعر منها ميلاً له، ربما جاء نتيجة استسلام لما يتردد منذ نعومة أظفارها بأنها لمجدي، وربما إعجاباً بتفوقه، وخاصة أنها لم تستطع أن تكون كذلك. لكن مجدي بطبيعته كان يرفض القيود، ويُعلي الإختيار، ولربما لو لم تكرس الأسرة لذلك الواقع، لكان قد اختارها بفعل الإعتياد والإرتياح.

الآن يؤكد عمه عليه أن غرفته ستعد لإقامته فترة الدراسة الجامعية، لا بديل أمامه؛ لأنه سيُطالَب أمام أبيه وعمه والأسرة بكاملها أن يقدم أسباب رفضه لهذا العرض السخي الطيب ... وحتى لو وجد الأسباب فما البديل المتاح أمامه؟ توفير مسكن خاص؟ فكرته مرفوضة لأسباب مادية وأخلاقية وأيضاً عائلية. أم يسافر يومياً بالقطار وما يستهلكه من وقت وجهد يؤثران بالسلب على فرصة التفوق، ونفقة إضافية يتحملها والده في ظروف غير مواتية، ولا مبرر مقبول...

كان على مجدي أن يقطع تفكيره المجهد، وأن يؤجله، كما يفرض الزمن تأجيل سعادته في الحب، وقنع بالترحاب من الجميع؛ عمه، وزوجته وسُمية وأخواتها الثلاث... واعتذر عن البرنامج الترفيهي الذي وعد به عمه اكتفاءًا بالمهمة التي جاء بشأنها وهي تقديم أوراقه إلى مكتب التنسيق في الغد، ثم العودة المباشرة إلى المنصورة، وضحك عمه ضحكة انتصار لرأيه وسأل مجدي:

- هو بكره كام في الشهر يا مجدي؟

وأجاب مجدي بتلقائية، فلم يلفت السؤال نظره لمغزاه:

- بكره ٢٣ يا عمي.
- أيوه ٢٣ شهر إيه؟

وبنفس التلقائية أجاب:

- ٢٣ يوليو.
- طيب يا راجل، عايز الناس يفتحوا لك مكتب التنسيق وياخدوا منك الأوراق في يوم الأجازة؟

تدارك مجدي، واستسلم فوراً لتلك القوة القاهرة، فليس لها حل غير البقاء لليوم التالي وربما اليوم الذي يليه، إذا تطلبت الإجراءات التي لا يعرف عنها شيئاً، ذلك.

قضى وقته بين أسرة عمه؛ على وجهه ابتسامة ورضا وعلى لسانه شكر وتقدير، وفي قلبه غصة ولهفة، حتى انتهت السهرة، وخلا إلى غرفته التي سينام فيها ليلته، وربما أصبحت سكنا دائماً، أو سجناً لروحه ونفسه وقلبه... وحاول أن يغمض عينيه، فأغمضها، وحاول أن يغط في النوم بعد يوم مجهد ففشل، واستمر يقظانا حيث انتقل بفكره إلى

المنصورة، والتقى على سحب الخيال بمحبوبته التي وعدته بالحب وعاهدته على الوفاء... تقلب في فراشه الوثير فأحس شوكاً لم يطق معه الإستمرار في الفراش، فنهض، وأضاء مصباح الغرفة، وأخرج من حقيبته قلما وورقاً فسطر خطاباً إليها:

القاهرة في ٢٣ يوليو ١٩٥٨

حبيبتي نادية

اليوم عيد، نعم، كأنما الدولة كلها تحتفل بلقائنا، إلا نحن فقد حَرَمنا صنع المستقبل من لذة الحاضر، لكن عودة الروح للأمة، يمدني بالأمل في استقرار الروح في جسد حبنا، فالمصادقة الرائعة التي صنعت التطابق بين عهدنا على الحب، مع أمل مصر في المستقبل الطيب، يوفر لي شحنات الأمل الجميل.

حبيبتي!

لقد مضت ساعات فحسب على فراقي للمنصورة، تحرقت فيها شوقاً، ومرت كدهر طويل فكيف أقوى على الحياة بجسدي في القاهرة، بينما روحي هناك في المنصورة؟ وهل تستقيم الحياة لجسد بلا روح؟ قلبي يرفض الجامعة التي تفرقنا ولو إلى حين، وعقلي يتلهف إلى الجامعة، صانعة المستقبل الذي يضمنا إلى الأبد.

حبيبتي

أعرف أن هذا الخطاب قد يصلك، بعد أن أكون قد عدت والتقيتك، لكنني لم أستطع منع قلمي عن التعبير عن لواعج الشوق التي تعتصر قلبي.

أحبك ... وإلى لقاء قريب

حبيبك المخلص

مجدي

ها قد أفرغ الشحنة، فانصرف البخار، وأمن الانفجار، أوى إلى الفراش، وتمتم ببعض آيات القرآن، ومن الله عليه بسبات، صحا منه على دعوة عمه للاستيقاظ والاستعداد لمشاركتهم طعام الإفطار الذي لم يعودوا قادرين على مزيد من تأجيل موعده...

صحا مجدي وشارك عمه وأسرته إفطارهم، ثم جمعتهم جلسة كان محورها السؤال عن خطته للمستقبل، كيف يراها، وأي كلية يرى الإلتحاق بها، وتعجب عمه حين قال مجدي:

- الرغبة الأولى كلية الآداب.

وسأله العم مستنكراً:

- حا تدخل كلية الآداب وانت من أوائل الجمهورية؟ طيب والرغبة الثانية؟
- كلية الآداب ... والثالثة كلية الآداب.
- دا أنت مُصر بقى، لكن إيه اللي مخليك متمسك بالآداب للدرجة دي؟
- الاسم ... والمضمون: الإسم معبر ومحترم. مين ما يحبش الآداب جمع أدب، والمضمون اللي بيعبر عنه الإسم رائع لأن دراسة الآداب قيمة عليا وتلخيص لمعنى المعرفة.
- ما شاء الله كبرت يا مجدي وبقت لك فلسفة، وقدرة على الإقناع، ربنا يحميك يا ابني وأنا مقتنع إنك تقدر توجه مستقبلك في الإتجاه الصحيح...

وتابعت الأسرة برامج الإذاعة عن الثورة، وخطاب الرئيس، ودارت بينهم حوارات في السياسة، ومنجزات الثورة، واستأثر قرار تأميم القناة والعدوان الثلاثي والانتصار عليه بمعظم الوقت.

لكن ذلك كله لم يشغل إلاَّ حيزاً قليلاً من فكره، وظاهر اهتمامه، بينما ظل تفكيره عن نادية، وكيف يرسل لها الخطاب الذي كتبه، وما لبث أن اقتنع بالاحتفاظ به، وعدم تعريضها لأي حرج إذا وقع الخطاب في يد شقيقها إبراهيم الذي بدأ يتوجس من احتمالات استنتاجه لوجود علاقه بينه وبين نادية، وبالتالي فلا هو يسمح لنفسه بالمغامرة بإرسال الخطاب بالبريد على عنوانها، ولا عادت نفسيته تحتمل أن يكون لكريمة أي دور في علاقته بنادية بل ويتحين الفرصة لإقناع نادية بالابتعاد عنها.

في اليوم التالي تناول الإفطار مع الأسرة، وأوحى ببعض الخصوصية في شكره لسُمية على الإهتمام والضيافة، واستأذن عمه في السفر إلى المنصورة بعد تقديم أوراقه لمكتب التنسيق، ما لم تكن هناك حاجة لإجراء مكمل في اليوم التالي...

وفي مكتب التنسيق تقدم إلى شباك تم تخصيصه للمتفوقين، فأنهى الإجراءات في دقائق واتجه إلى محطة القطار الذي استقله إلى المنصورة، وفي المنزل حاول إعلام نادية بعودته، فتارة يطلق صافرة بلحن إحدى أغاني عبد الحليم حافظ، وتارة ينادي والدته بصوت مبالغ في ارتفاعه.

ومضى النهار ... وجزء من الليل، إلى أن التقيا عبر شباك الذكريات مع الليل والسكون والقمر، ووجهها الجميل وسألها عن الخطاب الذي كتبه لها، قالت متسائلة:

- جواب إيه؟! إوعى تكون بعت لي جواب؟
- لأ ... لأ، أنا ما بعتهوش.
- أمال بتسأل عن إيه؟
- أصل إنتي وحشتيني قوي، فكتبت لك جواب، وبعد ما كتبته، خفت أبعته فاحتفظت بيه معايا.
- وقعت قلبي يا مجدي، أنا قلت تكون اتهورت، وبعت لي جواب، ووقع في إيد إبراهيم أخويا كان حا يبقى نهارنا أبيض.
- تصدقي يا نادية أنا نفسى إن الدنيا كلها تعرف إننا بنحب بعض.
- ما شاء الله، مش باقولك نهارنا أبيض، ما تخوفنيش يا مجدي، وزي ما الست والدتكم بتقول دايماً: داري على شمعتك تقيد.
- ما تخافيش أبداً يا نادية، أنا مش ممكن أعرضك لأي ضرر أو اي حرج بسبب علاقتنا وشكلنا كده حانقضيها خوف وتطمينات، واحنا مش فاضيين للكلام ده.
- عايز إيه يا مجدي؟
- عايزنا نبدأ بقى، كفاية اللي فات، ولا إيه رأيك؟
- رأيي هو اللي انت تشوفه يا مجدي – أنا تحت أمرك.
- طيب اشوفك بكرة بره البيت؟

وصمتت لحظة، ربما رآها عاما، واعتدلت في وقفتها، فأمسكت بحديد النافذة بيديها، ثم قالت:

- زي بعضه ولو ان إنت عارف ان المنصورة صغيرة، والناس كلامهم مش ولابد.

- لأ نتقابل على النيل بعيد، إيه رأيك؟
- خلاص اشوفك إمتى وفين؟
- بكرة الساعة سبعة عند الكوبري كويس؟
- طيب خلاص، أقابلك هناك إن شاء الله.
- تعرفي يا نادية أنا بيتهيألي إيه؟
- أيوه يا مجدي؟
- بتهيألي إن بكرة الساعة ٧ دي حاجة بعيدة قوي.
- ليه يا مجدي دا كله؟

ولم يتركها لتكمل الحديث فقد كان الجواب عنده:

- ليه؟ لأني باستنى بكرة الساعة ٧ دي بقالي خمسين يوم .. ألف ومتين ساعة.. ٧٢ ألف دقيقة يعني:
- بس، يا خراب أبيض؟ إيه ده يا مجدي إنت حاسبهم؟
- باللحظة يا نادية عشان كده مستني بكرة الساعة ٧، مش حاكل ولا أنام ولا اتحرك...

وكأي أنثى ألقت بالسؤال الذي تعلم جوابه:

- أمال حاتعمل إيه في الوقت اللي فاضل يا مجدي؟
- حامسك ورقة وقلم وأقعد أحسب فاضل أد إيه على ما نتقابل؟

وابتسمت نادية وهي تقول له:

- لأ، دإنت روميو كبير قوي.
- أنا؟! أبداً والله، دانا روميو صغير خالص، لسة في سنة أولى حب، حتى في أول السنة، ودفعت المصاريف، وبرضه مش راضيين يسلموني الكتب، أو يخلوني أحضر الدروس... طالب منتسب يعني.
- طب كويس قوي، تبقى في أولى حب، وفي أولى كلية، تمشي في دي مع دي؟
- ياريت، دا لو كان كده، يبقى ضمنت أكون روميو كبير زي إنتي ما بتقولي.
- أفهم من كده إنك أول كلية الحقوق السنة دي إن شاء الله؟
- ومين قال إني حادخل كلية الحقوق؟

- أمال انت مش كنت بتقول إنك حاتدخل الحقوق؟
- وبعدين لما بقى عندي مجموع قدامي أبواب الكليات كلها، اخترت الآداب.
- واخترت قسم إيه؟
- إنجليزي لأني باحب اللغات بالذات عشان بتديني فرصة أطلع على آداب العالم وثقافاته.
- عشان الأدب، ولا عشان؟!
- لأ إوعي تفهميني غلط، لغيرك إنت ممنوع النظر والتمعن.

ومضت لحظة صمت، نظرت نادية خلالها إلى مجدي في شك، واستقرأ هو ملامحها فرآها وهي تقول له:

- لا يا شيخ؟! ونظرت بعدها إلى ساعتها ثم قالت:
- أظن احنا طولنا قوي يا مجدي، مش كده ولا إيه.
- لو قعدنا للصبح برضه ما نبقاش اتأخرنا.
- صلاة النبي أحسن، ياللا نقعد لنا جمعة كده ع الحال دا. ولا إيه يا مجدي؟
- نفسي أقول آه يا نادية ومش قادر.
- لأ إحنا أحسن نخش ننام، أو أنام أنا ع الأقل. وتقعد إنت تحسب فاضل أد إيه على بكره الساعة ٧؟
- طيب يا نادية – نخش دلوقت ونأجل كلامنا لبكرة إن شاء الله.
- أقول تصبح على خير يا مجدي.
- اضطر أقول لك وإنت من أهل الخير يا نادية.

وانسحبت كأنها خيال ابتلعه الظلام، ظل مجدي كما هو بعضاً من الوقت، ينظر إلى ذلك الطيف الذي ضاع، نظر إلى النافذة كأنها نهاية حلم سعيد، ثم سحب رجليه على غير إرادتهما حيث قادهما إلى سريره، لا لينام؟ وإنما ليمشي بعض الخطوات على الطريق إلى السابعة من أمسية الغد.

****

لقـــــــــاء

إلى جوار ذلك العملاق الأسمر، بكل جماله وجلاله، وعلى شاطئه الشاعري الجميل، في بداية الغروب عندما لاحت الشمس أرجوانية في الأفق عند ملتقى الماء والسماء، كانت روعة اللقاء، كان مشهداً لم يقو مجدي على تصديق عظمته، لوحة رائعة حملت كل جمال؛ جمال الطبيعة، وجمال الصناعة وحوت جمال الساكن، والمتحرك. لوحة جمعت بين السماء الصافية والنهر الساكن الرقراق، والشمس الهادئة الغاربة، وأجمل منها جميعاً وأروع، كانت نادية؛ حقيقة ماثلة يستطيع لمسها، أحقيقة ما يرى؟ عجيب أن يكون الجواب! نعم إنها عين الحقيقة، ومد يده لتحتوي يدها الحلوة، ولكنها باعدتها في تحذير:

- مجدي إبعد إيدك، حد يشوفنا تبقى مصيبة.
- ولم يقو مجدي على سؤالها: أي مصيبة في ذلك؟ لقد خاف أن يبدد ذلك الخيال الذي يحيا في ظله، لقد باعد يده بسرعة، واكتفى بالسير إلى جوارها، وهل كان يطمع في أكثر من لحظة من هذه اللحظات؟!

بعد طول مسير، نظر إليها وأراد أن يسألها، هل تحبينني؟ لكنه أيضاً لمْ يقو – لِمَ ؟ هل يخشى الجواب؟ أليس في سيرها إلى جانبه جواباً حلوا يريح نفسه ويطمئنها؟ ولم تسير إلى جانبه إن لم تكن تحبه وتعشق هذه اللحظات كما يعشقها هو؟ إنها سخافات فكره، ولدتها ليالي الماضي، أو كونتها شكوكه المبنية على المنطق العقلي، لكنه الحب، يسكن القلب، ولا يعرف طريقاً إلى العقل، ولم هذا الطمع؟ ولمَ تفقده فلسفته الرؤية لواقع حقيقي؟ ألم تخط يدها خطاباً تبدؤه بـ "حبيبي"؟

سار وما يدري له هدفاً، وتمنى لو ظل يسير هكذا إلى الأبد، ولكنه خشى أن تمل سكوته، فاراد أن يفتح للحديث باباً، وساءل نفسه، كيف السبيل إلى حديث معها؟ وأي حديث يدور؟ عم يتكلم؟ عن الحب؟ آه. لعنة الله عليه، إن مجدي يجيد الإحساس به والتعبير عنه كتابة، بل والتحدث عنه ولكن ليس لنادية. لماذا؟ ليس يدري! تردد مجدي قليلاً ثم رأى أن يبدأ بالحديث، أي حديث:

- إسمعي يا نادية :

وكأنما أيقظها من سُبات عميق، أو أعادها من نهاية العالم فجأة بندائه لها، فأجابت:

- هه؟! أيوه يا مجدي.

فترك موضوعه الذي أعده للحديث وسألها عن سر سرحتها.

- الله: كنت سرحانة في إيه يا نادية؟
- لا مافيش.
- مافيش؟ ما فيش إزاي؟ دا إنتي كنت هناك، مشيتي على النيل، لما وصلتي البحر، وعديتي البحر ونزلتي على أرض جديدة .. بعيدة مش عارف شكلها إيه، كلميني عنها يا نادية.
- خمن إنت يا مجدي.
- أنا اقول هي جزيرة بعيدة، في وسط المحيط، فيها شجر وطيور حلوة، وزهور جميلة ما ينزلش عليها غير اثنين بيحبوا بعض، ياكلو من ثمر الشجر، ويشربوا من ينابيع عذبة، ويلعبوا بين الزهور، مافيش حاجة تشغلهم عن بعض، طول النهار والليل حب وسعادة ومرح...

ونظر إليها فرأى انشغالها عما يقول فأراد أن يجرها إلى حديثه ويفيقها من تفكيرها الشارد، فسألها:

- مش هي دي اللي إنت بتفكري فيها يا نادية؟

ولدهشته أجابت باقتضاب وجفاف:

- لأ.
- أمال بتفكري في إيه؟
- في أخويا إبراهيم اللي زمانه بيفكر في طريقة يسود بيها عيشتي.

وخاب أمله في ردها، فلم يكن يحسب أن شيئاً في الوجود يمكن أن يشد تفكيرها بعيداً عما يقول، وحاول أن يعيد للحديث شاعريته وحلاوته.

- لا يا نادية، بلاش تخلِّي حاجة في الدنيا تنغص علينا الحظات الحلوة دى.
- كفاية كدة يامجدى، ويالا نرجع وبلاش تخلي إبراهيم ينغص على عيشتي كلها.

ولم يملك سوى الانصياع لرغبتها وينزل على إرادتها، مكتفيا بما نال من سعادة، ومتفادياً لآي ضرر يمكن أن يتسبب لها فيه؟

- حاضر يا نادية، ناخدها واحدة واحدة كدة، ونتكلم واحنا راجعين في الموضوع اللي بنتكلم فيه.
- لا يا مجدي، حاسيبك هنا يحسن حد يشوفنا مع بعض، وبلاش ترجع إنت دلوقت عشان ما يلاحظوش حاجة عندكم أو عندنا.

ولاحظت رغبته في الإعتراض أو المناقشة، فأضاعت عليه الفرصة ومضت في حديثها:

- وابقى أشوفك بكرة الساعة ثمانية مساءًا في الشباك – تصبح على خير يا مجدي...

وتركته بسرعة، وسارت أمامه، بينما وقف هو ينظر إليها، وكأنها أمل يضيع، وأخذ يفكر في تحولها الفجائي وتصرفها الغريب، هل لدغها عقرب؟ هل جنت فجأة؟ كل شيء جائز إلا أن يكون السبب في إنهائها الفجائي لهذا اللقاء هو خوفها من أخيها إبراهيم؟

وقف مجدي متسمراً في مكانه، حتى خيم الظلام فأضحى كشبح، أو جني خرج من قاع النيل، أخذ ينظر إلى حيث كان، أو كأنما أخذ يعد تموجات النيل الهادئة المتتابعة ... وعندما أفاق سحب رجليه وبدأ في طريقه إلى البيت، لقد كان يتعجب من هذا اللقاء الذي تركه حزيناً، رغم كل التوقعات المتفائلة، وما اسم هذا الذي يربطه بها؟ أهو الحب؟ لا – ليس معقولاً أن يكون الحب هو هذا الشيء المؤلم المميت، وإلا للعنه كل الناس وهجروه، قبل أن يعرفوا الطريق إليه، ولكن ها هو يحب نادية، وها هو يتألم ويشقى ويموت في هذا الحب، فلم لم يلعن الحب؟ ولم لم يهجره؟ ولأول مرة أحس بالفشل في فهم شيء، ولأول مرة شعر بأن عقله يخونه ويلقى بالتبعه كلها على قلبه، فلقد حار في قضية الحب.

ووصل مجدي إلى بيته منهكا كأنه انتهي لتوه من مباراة في المصارعة الحرة، ولم يكن في لقاء غرامي طالما تاقت نفسه إليه، وأضنى نفسه وأجهدها في إيجاد تفسير لكل هذه الأمور المتضاربة، وتساءل عن حل للغز الكبير الذي يعيش فيه، ولكن عقله لم يتلق جواباً – ومضت أيام لم تشهد تغييراً في حال مجدي مع نادية، وإنما هو منتصف الطريق وملتقى التيارات، أصبحت حياته مثل كرة تركلها قدم قوية مدربة فترفعها في اتجاه السحاب، ثم

تجذبها الجاذبية الأرضية، فتسقط، وترتطم بالأرض، وتعاود القدم رفعها ولا تتراخى الجاذبية في إسقاطها من جديد...

إلتقيا في الموعد عبر نافذة المنور، وتحدثا في أمور شتى، لكنه لم يشعر دفئاً رغم حرارة الجو في شهر يوليو، والتقيا بالصدفة مرتين، وتواعدا في الأخيرة منهما على اللقاء من خلال شباك المطبخ بعد منتصف الليل ضمانا لخلود الجميع إلى الراحة والنوم... وفي كل مرة يشعر بأن الوقت يمضي في حديث لا يذكر منه شيئاً.

مرت الأيام بغير رضا في نفسه، ولا راحة في قلبه، وتاه قراره فلم يسعد بالشعور بصدق الحب ولم يجرؤ على التفكير في القطيعة، كان يلتقط خيطاً يعتقد أن نهايته الحب الحقيقي، فينقطع فور تعلقه به، ويعمل عقله في دراسة إمكانية الهجر فتصله نادية ويحلو وصالها، وتغريه بالأيام السعيدة والأوقات الطيبة الهانئة.

ولما أعيته الحيلة، وتاه منه الصواب، فكر في العقل الذي يثق فيه ويطمئن لرجاحته، فاستبدل ملابسه ومضى إلى بيت صديقه صابر، فضمتهما غرفة أغلقا بابها، وما لبثا أن جمعهما حوار، سأله مجدي:

- أنا لغاية النهارده ما عرفتش رأيك في الحب، ولاحظت عدم ارتباطك بأي صورة من صوره؟
- ما اكدبش عليك يا مجدي، أنا أحمد ربنا، إن خياله وطيفه لسه بعاد عني ، يمكن ربنا وفقني في قفل الباب على قلبي وقطع الطريق على الحب علشان ما يقربشي مني – الحب ترف ما يقدرشي اللي زيي يدفع فاتورته، واللي ما تقدرش تدفع تمنه، إبعد عنه، وعن مغرياته من بدري، ومش معنى كده إني بأغلطك، إنت ظروفك شكلت لك حكاية حلوة؛ جارة صغيرة وجميلة، أصبحت إنت في وضع الأستاذ بالنسبة لها، حسيت إنها معجبة بيك، ما حاولتش تحدد بالظبط هي معجبة بإيه فيك؛ بتفكيرك؟ بشخصيتك؟ بشكلك؟ بوسامتك؟ بحاجة من دول أو أكتر من حاجة؟ واتعرفتم ببعض في ظروف نفسية وعصبية كان كل واحد محتاج للتاني لسبب مختلف.

وسكت صابر لحظة ثم استأنف الحديث بسؤال:

- مش عارف أنا ماشي صح لغاية دلوقتي ولا شطحت يا مجدي؟

- صح ... وعين الصح يا صابر. أنا محتاج إنك تكمل.

واستمر صابر:

- يمكن ظروفك المادية والاجتماعية أحسن مني شوية يا مجدي، وعشان كده أنا حاطط على قلبي قفل وكاتب يفطة معلقها جنبه: ممنوع الإقتراب، لكن انت سمحت لنفسك بالتجربة وأنا مش عارف إنت وصلت فين في الأسبوعين اللي فاتوا؟
- باختصار خط متعرج؛ فوق .. تحت – فوق .. تحت من غير أسباب مفهومة .. صاحبتها كريمة ترد لي جوابي الأولاني ليها، وتقوللي انها بتحب واحد تاني .. بعدها بيومين تكتب جواب إنها بتحبني وحاتكون لي طول العمر، بعدها تبرد الأمور .. نتقابل ونتفسح ع النيل، وترجع تقول لي خايفة لا يتفضح حبنا، تقرب خطوة من غير سبب واضح، وترجع تبعد خطوات من غير مناسبة، أنا باتعرض لعملية بسترة قاتلة يا صابر.

ضحك صابر وسأله عن قصده، فأجاب مفسراً:

- هي البسترة مش تسخين لدرجة الغليان، وتبريد مفاجئ لدرجة التجمد؟ أهو هو ده. أنا با اطلع من مية مغلية، اتحط في قلب لوح تلج، ما بلحقش أفكر في اتجاه عشان أوصل لنتيجة، تعبت يا صابر، إلحقني برأيك.
- حاول إنك ما تستجبش بسرعة للمؤثرات، يعني لما تقرب منك، إنبسط، لكن ما تفرحش وماتبنيش على الخطوة، وتتوقع خطوات في الاتجاه، ولما تبعد عنك إزعل بس ما تحزنش وما تزقش نفسك لنهاية العالم ...
- والله أشوف يا صابر ... أعرف أعمل كده ولا لأ؟
- لازم تعمل كده. (وتوقف عن الحديث في الحب محولاً إياه إلى اتجاه آخر) إنت ما قولتليش إنت اترشحت لكلية إيه؟
- أنا طلبت كلية الآداب، رغبة أولى وثانية وثالثة، وخلاص قبلت فيها. وإنت؟
- أنا طلبت كلية التجارة وقبلت.
- وحا تقعد في مصر؟ ولا حا تعمل إيه؟
- لأ أنا ومجموعة كبيرة من الزملا حانعمل اشتراك في القطر ونسافر كل يوم عندنا فيه محاضرات.

- يا بختكم، والله نفسي أعمل كده، بس وجود عمي في مصر قطع عليَّ السكة.
- وعمك مصمم إنك تقعد عنده ولا إيه؟
- دا مش مصمم، دا ممكن يضربني بالنار لو فكيت.
- ليه يعني؟ حا يكسب إيه من وجودك عنده؟
- يا سيدي عنده واحدة من بناته، متفقين الكبار مع بعض إننا لما نكبر حا نتجوز.
- يا سلام؟ دا اتفاق جنائي، مين اللي يكتب المستقبل غير ربنا؟
- آهو الموضوع دا اللي منكد عليَّ عيشتي، ومش عارف أخلص منه إزاي؟
- يعني إنت ببساطة ما تقدرش تقول شكراً وتنهي الموضوع؟
- إطلاقاً. مش بالبساطة اللي إنت متصورها. أولاً؛ حا تسبب في خصومة بين الأسرتين، ثانياً؛ ورداً على سؤال من والدي عن سبب رفضي، حا تبدأ والدتي تشغل قرون الاستشعار – اللي ممكن تكون شغالة بالفعل بسبب ملاحظات على تصرفاتي أنا ونادية – ولو وصلت لحاجة حا تبقى فضيحة، وعشان كده أنا بالمح إني مش حاتجوز قبل عشر سنين لما اطَّمن على مستقبلي، وبكده باخد والدي في صفي من جهة، ومن جهة تانية، يا عمي ييأس ويشوف لبنته عريس تاني؛ يا يحلها ربنا من عنده خلال عشر سنين.

وضحك صابر من كل قلبه وعلق على ما قاله مجدي:

- إنت اقتبست الحل دا من جحا، لما اتعهد للسلطان إنه يعلم الحمار يقرا ويكتب خلال عشر سنين لو السلطان ادَّاله ألف دينار، ولما أصدقاؤه حذروه إن السلطان ما يعرفش الهزار .. ولو فشل حجا في تعليم الحمار – وطبعاً حا يفشل – حايقطع رقبته، رد جحا بطريقتك: دول عشر سنين يا يموت السلطان، يا أنا أموت، يا يموت الحمار.

وضحك الإثنان، لأول مرة خلال حواراتهما المتسمة بالجدية، والمزدحمة بالمشاكل المعقدة، واستأذن مجدي فانصرف، وعلى شفتيه بقية من الإبتسام، وفي قلبه ألم موجع، وفي عقله سؤال مازال حائراً: من أنت يا نادية؟

ومضت الأيام والأسابيع. تؤرجح السعادة والشقاء في نفس مجدي حتى مسحت روح الدعابة التي عرفها عنه المقربون منه؛ إلتقى بنادية بعد موعد أضناه الترتيب له، وتم تأجيله

لمرتين، وفي هذه المرة طلبت منه – على خلاف المرة السابقة – أن يكون لقاؤهما في مكان غير بعيد، حيث أن اللقاء في مكان خلوي يلفت النظر إلى نوع من العلاقة يستنتجها الناس، وأعجب بتفكيرها وأقرها عليه، لكنهما حين التقيا سرعان ما طلبت منه إنهاء اللقاء لأن العيون حولهما كثيرة، واحتمال تواجد من يعرفها أو يعرفه احتمال "قائم" ونسبته عالية، فانصرف كل منهما لحاله، ما أثار في نفسه السؤال من جديد حول مدى الصنعة، أو الاصطناع في كل ما يربطهما، وإحساسه المتنامي عن انعدام التلقائية وكم التخطيط، وشكوكه فيمن يخطط، أتخطط هي لنفسها؟ أم أن هناك من يخطط لها مثل كريمة أو أي ممن يكبرنها سناً وخبرة؟

بدأ يتساءل عن حلاوة الحب، وأين هي، وآمن بمقولة العقاد عن الحب، أنه كالخروب؛ قنطار خشب، ودرهم حلاوة، ثم اعتذر لبساطة العقاد وطيبته وصحح له العبارة قائلاً:

إن الحب قنطار من الزقوم، ودرهم من الرحيق ...

هكذا أصبحت فلسفته ... وهكذا مرت به الحياة، وإن لم يرها حياة .. وحان وقت الرحيل، لم يبق على بدء الدراسة بالجامعة أكثر من عشرة أيام، وأصبح عليه أن يجمع ملابسه وأدواته، وكل احتياجاته لإقامة كاملة في القاهرة، وأن يرحل إليها خلال أيام قليلة حتى يستقر، ويستعد لحياة جديدة، وإن كان يراها رحيلاً من الحياة بأسرها!

****

الجامعــــــــة

فتحت الجامعة أبوابها، ودخل مجدي من بابها الرئيسي لأول مرة، كان سعيداً حين رأى جموعاً من الطلبة – يحتجزهم الحرس الجامعي أمام الأبواب لعدم سدادهم المصروفات واستخراج كارنيهات الدخول، وحين اقترب هو من البوابة أبرز الكارنية، فأشار له الشرطي بالدخول وهتف بباقي الطلبة الوقوف:

- وسعُّوا من قدام البوابة عشان اللي معاه كارنيه يعرف يدخل ...

أحس لحظتها بقيمة التفوق الذي حقق له المجانية. وفي الساحة الرئيسية، لمح عن يمينه ساعة الجامعة التي طالما رأى صورها في المجلات والجرائد، وسمع دقاتها في الراديو، ونظر أمامه فرأى القبة الشهيرة ومن تحتها إدارة الجامعة، وقاعة الاحتفالات الكبرى، واقترب ببصره ليرى في اليمين – قبل الساعة – كلية الآداب، الهدف والأمل، فسار خطوات حتى وصل إلى درجات سلمها العريضة، فارتقاها واجتاز بابها الرئيسي ووقع بصره على جمع من الطلبة حول لوحة إعلانات معلقة على إحدى الحوائط. فاتجه إليها حيث رأى جداول المحاضرات فسجل المكتوب كما هو في أجندة في يده، ومضى إلى المدرج الذي أوضح الجدول أن به المحاضرة الأولى لطلاب الفرقة الأولى، وتهيب في الدخول، ثم دلف إلى المدرج، وجلس على حافة "بنش" في الصف الثاني بينما تناثرت أعداد من الطلبة في الصفوف المختلفة ...

مضى بعض الوقت وفدت خلاله أعداد من الطلاب حتى كادت الصفوف تمتلئ بهم، ثم دخل رجل مهيب، يرتدي الملابس الرسمية؛ حُلة كاملة ورباط عنق، وأفصح الشعر الرمادي عن عمره المنحصر في سنوات العقد الخامس، واستنتجوا جميعاً أنه الأستاذ؛ وضع حقيبة أوراقه على "الدسك" أمامه، وأخرج بعض الأوراق، وقرب الميكروفون من فمه، وتحدث بهدوء ووقار، فقدم نفسه، والمادة التي يدرسها، ثم استدار فواجه السبورة، وكتب عليها قائمة بالمراجع التي يوصى الطلبة بالإطلاع عليها بمختلف اللغات، ثم بدأ محاضرته الأولى.

حضر مجدي ثلاثة محاضرات، أحس خلالها بالفارق بين الدراسة في كل من المرحلتين؛ الثانوية، والجامعية، قارن بين الفصل والمدرج، وبين المناهج في كلٍ، وبين المدرس والأستاذ وبين الإنضباط المفروض، والإنضباط الذاتي، فسعد بأجواء الجامعة، وإن

كانت فى حلقِهِ غُصة أصبحت ملازمة له في البيت، وفي الشارع وفي الجامعة ... في صحوه، وفي منامه ...

مضى الاسبوع الأول من الدراسة في محاولة جادة من مجدي لاستغلال بهجة الجديد، وأجواء الجامعة التي تحول حلمها واقعاً يعيشه، في أن يتأقلم معها، وأن يحيا ما بين بيت عمه، والجامعة، بين حوارات البيت، ومحاضرات الجامعة، لكنه أحس بفشله في انتزاع قلبه وفكره من المنصورة. حتى فتيات كلية الأداب بأزيائهن ورونقهن، وتعدد أطيافهن وأذواقهن، لم يصرفن نظره أو تفكيره عن نادية وأحس زهداً في الاقتراب منهن أو التحدث إليهن.

وحتى المحاضرات فقدت بريقها رغم انبهاره بأجوائها في البداية، وأصبح يتردد على الكافيتريا ليقضي بها أوقاتاً طويلة بديلة للمحاضرات حتى لا يعود إلى البيت، ويلفت أنظار أفراد الأسرة إلى عدم حضوره للمحاضرات ...

في بداية الأسبوع الثالث من الدراسة، وبينما هو جالس في الكافتيريا، أحس بربتة على كتفه..

استدار ليرى من ربت وفوجئ بوجه طالما أحبه وأحس حنينا للحديث معه؛ رأى سعيد، رفيق الثانوي والمنصورة، والحوارات الفكهة حتى خلال ساعات الألم، فنهض، وتصافحا وتعانقا، وأبدى مجدي سعادته بهذه المفاجأة، ودعاه للجلوس، فاعتذر سعيد لبدء محاضرة هامة سيحضرها ثم يعود إليه إذا كان في وسعه الإنتظار. وأكد مجدي حرصه على الإنتظار حتى لو طال لساعات، وانصرف سعيد إلى محاضرته، وجلس مجدي في انتظاره، يتعجل الدقائق، ومرت ساعة، وفوجئ بفتاة على قدر كبير من الجمال، يدل مظهرها على مستوى اجتماعي مرتفع، تلقي إليه التحية وتسأله:

- صباح الخير .. أنا ممكن آخد كرسي، وأشاركك الترابيزة علشان مش لاقية ولا ترابيزة فاضية؟
- صباح النور .. بكل سرور. اتفضلي.

وجلست وأخرجت من حقيبتها كتاباً وقاموساً للغة الإنجليزية. وبدأت تقرأ، ومن الحين للحين تبحث في القاموس عن معنى لكلمة لم تمر عليها قبلاً، مضت دقائق لم تلفت نظره،

لكنه مع مضي الوقت بدأ يتابعها، وجاء النادل حيث وضع على المائدة كوباً من الشاي كان قد طلبه مجدي منذ وقت طويل، فتوجه مجدي إلى شريكته على الترابيزة وسألها:

- أعطلك ثانية؟ معلش. تاخدي حاجة؟
- شكراً .. أنا خدت نسكافيه من ساعة، أنا بس حا اسألك سؤال: إنت قسم إيه؟
- إنجليزي.
- طيب كويس. في سنة أولى ولا أكتر؟
- في سنة أولى مش أكتر.
- يبقى ممكن نتعاون في معاني الكلمات، ونراجع اللي خدناه في المحاضرة؟
- نتعاون ونراجع اللي (أخدتوه) في المحاضرة.
- وانت ما حضرتش؟
- بكل أسف؛ لأ.

وبدأت تقرأ ثم تتوقف عند كلمة وتسأله عن معناها فيجيبها قبل أن تنتهي من نطقها. وأبدت استغرابها من حصيلته غير العادية من مفردات اللغة قائلة:

- عشان كده إنت مستغني عن المحاضرات وما بتحضرش؟
- لا ... لا، مفيش طالب مستغني عن المحاضرات، وإلا مش حا يدخل الجامعة. أنا بس عندي ظروف ملخبطة شوية هي اللي مفوته عليَّ محاضرات كتير. لكن لازم أحضر إن شاء الله.
- لا بلاش والنبي.
- ليه؟
- إنت حا تضيعنا، وحا نبان جنبك منتهى البلادة.
- لأ العفو – خلينا نستمر – هي المادة اللي إنتي بتقريها دي إسمها إيه؟
- دي Criticism.
- طيب ما إنتي جامدة في الإنجليزي أهو.
- اشمعنى؟
- ما أنت بدل ما تقولي نقد، قلتيها Criticism.

وضحكا بصوت مرتفع، وفي هذه اللحظة عاد سعيد، فتردد في التقدم إلى حيث جلسا، ولمحه مجدي، ولاحظ تردده فناداه:

- أهلاً يا سعيد إتفضل.
- مش عايز اتطفل عليكم و ...
- اسحب كرسي واقعد.

جلس سعيد ورأى مجدي أن عليه تقديم الطرفين لبعضهما وعمل التعارف، رغم أنه هو نفسه لم يتعرف على الطرف الذي يجالسه، فقدم صديقه بينما أشار بيده في اتجاهه:

- سعيد. زميل من الثانوي، وبلدياتي من المصنورة.

ثم أشار بيده في اتجهها، فقدمت نفسها:

- ناهد. أولى إنجليزي.

تبادل الجميع الترحيب، واستأذن مجدي من سعيد أن يشغل نفسه دقائق، وأن يطلب شيئاً يشربه لحين تصفحه مع ناهد بعض الصفحات، وعرض عليه أن يتابع معهما لعله يستفيد شيئاً ...

وبعد وقت قصير طوت ناهد الكتاب والقاموس وأعادتهما إلى حقيبتها، واستأذنت في الإنصراف على أن تلتقي مجدي حسب الظروف...

وبعد إنصرافها صاح سعيد:

- إنت ما بتضيعش وقت يا مجدي؟ سنارتك بتغمز سريع .. سريع. بتعمل إيه قوللي؟
- والله يا سعيد ما بعمل حاجة، وصدقني لا كان على البال ولا عالنِّية، إنت يادوب سبتني، ودي جت استأذنت تقعد ... وفتحت الكتب والقاموس. ولقت أسهل لها تستعملني بدل القاموس، ويمكن تلاحظ إني ما كنتش عارف اسمها عشان أقدمها لك.
- طيب يا عم – ربنا حا يعوضك خير، وحاتعرف إن الدنيا فيها كتير، ولك فيها عوض.
- بلا عوض، بلا حسنين، خلينا نتكلم عن نفسنا، ونواصل إللي فات: إنت دخلت آداب، بس قسم إيه؟
- أنا في قسم جغرافيا .. وإنت إنجليزي طبعاً.

- تمام كده .. أنا كتبت رغبة واحدة والحمد لله، عمي ساكن في الدقي قرب الجامعة، وصمم هو والعيلة إنى أقعد عنده فترة الدراسة، أنا معفي من المصاريف، فدفعت ثلاثة جنيه رسوم، وطلعت الكارنية في أول يوم. باجي كل يوم، لكن حضرت كام محاضرة، ورغم إنها في مواد بتشكل عشقي، إلا إني باسرح وما عنديش أدنى تركيز، ولغاية دلوقتي ما اشتريتش غير كتاب واحد، وطبعاً ما فتحتوش .. أدي يا سيدي حكايتي بعد آخر مرة شفتك .. وإنت الدنيا ماشية معاك إزاي؟
- والله يا مجدي ... أنا قدمت في مكتب التنسيق وباختصار دخلت قسم جغرافيا .. سددت المصاريف طبعاً وقدمت في المدينة الجامعية، لكن ما حصلتش مكان، فعملت اشتراك في القطر.. وبيني وبينك طلع أحسن لأني أنا واتنين زملا في القسم بنسافر مع بعض وبنلاقي فرصة للمذاكرة والمناقشة ساعتين جاي وساعتين رايح ... وماشية. بس ماقلتليش إنت؛ إيه حكاية السَّرحَان وسدة النفس دي؟ هي الأمور مع جارتك لسة مش سالكة؟

وتنهد مجدي تنهيدة عبرت عن كثير مما استفسر عنه سعيد ثم استكمل إجابته عن السؤال:

- شوف يا سعيد، إنتو كلكم أخدتم فيَّه قلم أكتر من تلات سنين وافتكرتم إني من أذكى خلق الله، لكن أنا شخصياً اكتشفت إني حمار.
- طيب ماهو الحمار ذكي جداً يا مجدي.
- إزاي يا حمار؟
- لا بجد يا مجدي وأكيد إنت عارف إن الحمار ذكي. مشكلته إنه عنيد، ودي مشكلتك إنت عنيد جداً يا مجدي.

وضحك مجدي كما لم يضحك منذ أمد بعيد ورد على سعيد:

- إنت رديتها لي، وبقينا إحنا الاتنين حمير إنت في ذكاءك، وأنا في عنادي.
- طيب برضه ما قلتش إيه اللي غيرك ونكد عليك، وحا يضيع مستقبلك؟
- باختصار يا سعيد. أنا مش فاهم. البنت دي مخلصة ولا لعبية؟ بتتصرف بدهاء وخبث، ولا غلبانة ودماغها على قدُّه. عندي ميت دليل يأيدواكل صفة، ومية تانيين ينفوها. نادية

بقت لغز يا سعيد مش قادر أفك غموضه ودا التحدي الكبير لذكائي أو عنادي وأصارحك يا سعيد. أنا ساعات باوقف تفكيري عمداً، لأني باوصل لحقيقة مؤلمة وباعتبرها مهينة كمان إني لو وصلت لأي نتيجة مش حاقدر آخد قرار غير الاستمرار مع نادية. أنا حاسس إني يادوب باضبّش في العوم، ورميت نفسي في وسط تيار .. أو حتى دوامة بغرور وثقة مالهاش أساس إني قادر أهزم الدوامة. دي حقيقة اللي أنا باعاني منه.

أنصت سعيد حتى انتهى مجدي وتوقف عن الكلام، فنهض وعدل من هيئة ملابسه وقال له:

- الحديث ذو شجون، والوقت عدا، وميعاد القطر قرب. حاسيبك دلوقتي وحانشوف بعض كتير، بس عايز أكدلك اللي استنتجته، واللي ما اختلفش عن معرفتي ليك، إنت ذكي يا مجدي، وذكاء المرء محسوب عليه. وأنا متأكد إن ذكاءك هو اللي ولد عندك الثقة، ووقعك في اللي إنت فيه. وذكاءك هو اللي حايخرجك من المشكلة، وأنا من شوية شفت مقدمة من مقدمات الحل، ولو استمر اللي أنا شفته. شهر وحاتنسى.

وبينما وقف مجدي تساءل في دهشة:

- مقدمة إيه اللي شفتها يا سعيد؟

وبابتسامة وغمزة سريعة أجاب باقتصاب:

- مقدمة ابن خلدون – المقدمة اللي كانت قاعدة معاك وبسرعة إتَّلمِذت على إيديك، وبكرة تكُرَّ المقدمات.

وتصافح الصديقان وانصرف سعيد، وتبعه مجدي في طريقه إلى بيت عمه، وقطع الطريق القصير – ككل يوم – سيراً على الأقدام حيث تواتيه الفرصة الوحيدة لكي يسرح بخياله بعيداً .. إلى المنصورة وابتسامة ثابتة مرتسمة على شفتيه سعيداً بلقائه مع نادية على جناح الخيال ومكرراً بنصف همس:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى   وحنينـه أبـداً لأول منـزل

****

الكبيـــــــــــر

كانت الساعات التي يقضيها مجدي في البيت مع عمه وأفراد أسرته، مغلفة بكثير من الصنعة والتكلف. كانوا يستضيفونه على الرحب والسعة، وكانوا يتسابقون في توفير سبل الراحة له، ويلزمون أنفسهم بتناول ما يفضله من الطعام والشراب، ويحرمون أنفسهم من متابعة برامج الراديو حين يعتقدون أنه اختلى بغرفته ليستذكر. وكان ذلك يعذبه، لأنه كان يشعر بأنه غير قادر على مبادلتهم كل ذلك الحب والتفاني بما يتناسب معه من الوفاء، فكان يظهر ما يقدر عليه من المجاملة، وإظهار المشاعر الطيبة والامتنان...

كان عمه يتحاور معه في ندية، ويتعامل معه كصديق، ويفاتحه في أمور عامة حين يراه ميالاً لمجالسة الأسرة ولا تبدو منه رغبة للإنفراد لتحصيل الدرس، وكانت زوجة عمه، تقدم له الشاي والبسكويت أو الحلويات خلال استذكاره في هدوء كامل، بينما كانت بناتهما تمازحنه وتتسامرن معه، وتتابعن أخبار الجامعة من خلال ما يقصه عليهن، وكانت سُمية تكن له خصوصية تبدو في حديثها معه، ولم يبادلها تلك الخصوصية، إلا حين يلحظ أنه يهمل شكلاً يفرض نفسه عليه في التعامل معها مقابل ما يلقى من الأسرة ومنها على وجه الخصوص ..

والتزم مجدي بالذهاب إلى الجامعة كل يوم، لكنه لم يلتزم بحضور المحاضرات إلا إذا لم يجد شيئاً آخر يفعله .. وتكرر تردد زميلته ناهد على الجلوس معه، وقراءة بعض الأجزاء الصعبة من المواد التي تذخر بالكلمات الجديدة عليها، أو الإنجليزية القديمة كما في أشعار ومسرحيات شكسبير ... ومع الوقت بدأت تصطحب زميلة أو أكثر شجعتها ملاحظتها لعدم استغلاله التقارب بينهما لإقامة علاقات خارج إطار الزمالة ... لكن طبيعة الأمور قضت ألا يقتصر الحديث – إذا طال وقته أو تكررت مناسباته – على موضوع واحد بل يتشعب، مرة حول الأحداث الجارية، وأخرى عن الأمور العامة بالجامعة أو خارجها، وثالثة: قد تغطي مساحة من الأمور الخاصة.. وأصبح ذلك الركن في الكافتيريا يُسمى: ركن مجدي! قصدته الكثيرات وصاحبهن الكثير من الزميلات والزملاء، وأصبح مجدي معروفاً لكل طلبة القسم وليس فقط لطلبة الفرقة الأولى، وكان مثار تحليلات وتساؤلات كظاهرة فريدة تجمع بين

التفوق والزهد في حضور المحاضرات، وقد عمق مجدي خلافات الزملاء حول تشخيص حالته، بعد أن تعرف على الكتب الخاصة بكل مادة، وأخذ يستوعبها في يسر من خلال قراءته لها وهو جالس في الكافتيريا، فكان الجميع يشعرون بأنه يستوعب المواد بأكثر مما يستوعبونها وهم يحضرون المحاضرات وهو لا يحضر، وردد البعض في دعابة أنه يمتلك "طاقية الإخفاء" لذلك لا يرونه في المدرجات.

تعجب زملاؤه الذين اقترحوا عليه أن يرشح نفسه لانتخابات اتحاد الطلبة، ورفض بإصرار رغم تأكيدهم له أن الجميع سيقفون من خلفه، وأنه سيتصدر قائمة الفائزين، وعجبوا من زهده في كل شيء وفشلوا في تبرير ذلك، وكان ذلك دافعاً لزيادة اقترابهم منه بنينا وبنات ...

ذات صباح اتجهت ناهد إلى ركن مجدي، فلم تجده جالساً كالمعتاد إلى الترابيزة التي أصبحت ملاصقة لاسمه، وعلامة تواجده في الكلية، وقبل أن تشغل تفكيرها بالتساؤل عن السبب، لاحظت وجود أجندة على الترابيزة، فأيقنت بوجود مجدي، وأنه يقضي حاجة ما، ما يلبث أن يعود بعدها إلى مكانه الأثير، فاختصت نفسها بمقعد انتظارا لعودته، ومرت دقائق لم يعد مجدي خلالها، وكان الفضول قد أحكم قبضته على عقلها ونفسها، لعلها تجد في هذه الأجندة مفتاح الكنز أو حل اللغز المحير لها وللجيمع.

تلفتت حولها فلم تلمح مجدي في مجال رؤيتها، ومدت يدها إلى الأجندة، وقربتها من موقعها من الترابيزة ثم أمسكت بطرف شريط من الحرير بين صفحاتها ثم فتحت الأجندة على تلك الصفحة، وخطفت بصرها كلمتين بأعلى الصفحة: حبيبتي نادية. فتمتمت هامسة: Cherchez la femme نعم. إبحث عن المرأة، وتلفتت من جديد توقيا لمفاجأة مجدي لها ثم مرت ببصرها على باقي السطور:

باسم الحب جمعنا في الماضي، وباسم الحب مازال يجمعنا، وباسمه سيظل يجمعنا.

باسم الحب القوي؛ يذلل العقبات .. ويمهد السبل .. يفتح المغاليق .. ويفسح المجالات..

باسم الحب الخالد، الباقي مع الأيام ... الدائم، ما دامت الحياة.

لقد علمني المنطق بأن الحياة تتعثر، لكنها أبدا تسير ... والأمل يخفت ولكنه يتوهج من جديد.. وأن الحب يذبل لكنه لا يموت...

قد يراني البعض طماعاً، أريد أن أقطف كل زهور الحياة، ما دمت في روضتها ... قد يرى البعض الواقعية في طلب الممكن ...

وأراها في طلب المعقول، لأن طموحي يفوق إمكاني .. ولأن على إمكاني أن يلحق بطموحي ...

فلننطلق مع الحياة ننهل أجمل ما فيها، فهي تجود بنفسها نهراً لا يحتاج إلي ساقٍ، يروي بسلسبيله كل الواردين!

أتوق شوقاً للقاء ... وإلى أن نلتقي لك كل حبي ... لك نفسي وروحي.

المحب المخلص مجدي

وما أن إنتهت من قراءة الرسالة حتى أغلقت الأجندة وأعادتها إلى سابق مكانها ووضعها، وسادها الإضطراب لحظة حين سمعت صوت مجدي يلقي إليها بالتحية، خوفاً من أن يكون قد لمح تلصصها على سره، ولكنها ما لبثت أن اطمأنت إلى عدم ملاحظته ذلك حين بدا حديثه طبيعيا:

- بقالك كتير قاعدة؟
- لأ، أنا لسة جاية حالاً، واستغربت لما لقيتك سايب أجندة على الترابيزة، ومش قاعد.
- أنا بعد ماجيت وقعدت، ولسه حا اطلب الشاي، إفتكرت إني ما قبضتش المكافآة الشهرية، فقلت أقوم أقبض قبل ما اكسِّل، وبالمرة بقى قبل ما أقعد حاروح أجيب كباية شاي، تشربي إيه معايا؟
- شكراً.
- ما عندهمش شكراً، فيه شاي .. ينسون ... نيسكافيه ... ساندوتش .. يالله حاتاخدي إيه؟

وابتسمت واستسلمت لجدية عرضه:

- خلاص آخد نيسكافيه.

ومضى إلى داخل الكافتيريا لإحضار المطلوب بنفسه، ومن جديد عاودها الفضول لتقرأ المزيد .. ترددت لأنها تعرف أن الفضول قتل القطة، ولكن الرغبة كانت أقوى ..

نظرت؛ فتأكدت من ابتعاده عن مدى رؤيتها فأمسكت بالأجندة من جديد وفتحتها بينما تركتها على الترابيزة ليسهل إغلاقها إذا ما عاد مجدي، وقلبت صفحاتها، وتوقفت بشكل عشوائي عند صفحة لمحت فيها صيغة خطاب جديد:

حبيبتي نادية.

تحية لك مني، وشوق يبلغ القمة ساعة تلوح بالوداع ... تحية الظمآن إلى النبع الصافي الرائق ...

وشوق الخائف إلى بزوغ الفجر ... تحية مني هي تحية الممتن العارف المقدر لحجم العطاء. وشوق، هو شوق الغريق إلى قشة يتلمس فيها النجاة ... أو هو شوق قديس إلى الجنة الطاهرة .. الخالدة.

أذكر كيف تسلل حبك إلى قلبي ... وكيف تحصن به، وقبع فيه .. وقرر ألا يبرحه مادامت فيه نبضة حياة.

هل تذكرين ليالي الاستذكار؟ لم أشعر لحظة بأنني الأستاذ، يجلس إلى تلميذته، وإنما كنت دائماً التلميذ يجلس في محراب الرقة والجمال، ويتعلم الحب كتجربة جديدة. لم أكن الواثق يقدر خطواته ويحدد معالم طريقه، لكني كنت الخائف المضطرب، يتردد ألف مرة قبل أن يخطو خطوة. أو ينطق بكلمة ... حتى جاءت البداية ولمحت ما يشبه الارتياح على ملامحك ... ثم جاءت أحلى لحظات عمري حين كانت قبلة، لم أخطط لها، ولم تتوقعي أن تكون؛ فكانت أسعد لحظات حياتي سأعيش عليها غير طامع في المزيد لأنها تلازمني يقظتي وأحلامي.

حبيبتي نادية.

إذا كانت مشيئة القدر أن تفرق بيننا المسافات لالتحاقي بالجامعة في القاهرة، واستمرارك بالدراسة في المنصورة فإنني أشعر أن ما يجمعنا أكثر بكثير مما يفرقنا، فأنا يعوضني لقاء الأرواح والقلوب، على أمل مرور عامي الدراسي القادمين إلى أن تلحقي بي في القاهرة.

على أمل اللقاء مرة حين أعود إلى المنصورة، وأخرى حين تزورين القاهرة، ستظل رسائلي رسولاً أميناً يعبر لك عن بعض حبي.

وإلى اللقاء،،،

المخلص للأبد

مجدي

لم ترتوِ ناهد، لكنها اكتفت توقيا لعودة مجدي، فحسبها أن عرفت ملخصاً لقصة الحب ... واسم الحبيبة ومكانها ... ورأت أن مزيداً من الفضول قد يفسد ما حققت، ولكن شيئاً غريباً حدث وتفاعل في نفس ناهد؛ لقد أحست غيرة وتمنت لو أن كل هذا الحب كان لها، كما تضاعف تقديرها لمجدي؛ الأستاذ أينما حل، فلقد كانت – رغم زمالتها، وفي نفس الفرقة الدراسية – تشعر بأنه كبير، لا تستنكف اعتباره أستاذاً لها.

وعاد مجدي يحمل كوبين يتصاعد منهما البخار، فوضع أحدهما أمام ناهد والتف حول الترابيزة ليضع الآخر ويسحب مقعداً يجلس إليه بينما وجه سؤالاً تقليديا لناهد:

- هيه. إيه آخر أخبار العُقَد؟
- أنا عقد يا مجدي؟
- إطلاقاً. أنا أقصد الكلمات الصعب اللي عندك ومحتاجة ترجمة ...

واستمر الحديث بين زميلين، أصبحا صديقين، ومن يعرف ما تأتي به الأيام! وتوافد الزملاء والزميلات، حتى أصبح محيط الدائرة أضعاف ما يحيط أي ترابيزة أخرى من المقاعد وشاغليها وكما أصبحت الجلسة متسعة كبيرة، أصبحت كنية مجدي: "الكبير"، كان الجميع ينادونه: "الكبير" ربما لثقافته الأكبر .. ربما لاتزانه وحصافته، وربما لأنه أصبح محور اللقاء الأكبر والتجمع الأكبر بين طلبة الكلية.

هكذا سارت الحياة بمجدي، يراها كثيرون غنية مبهجة، ويراها هو روتينية، مقفرة بل موحشة، لأن علاقته بنادية أصبحت خالية من الندية؛ مشاعره تجاهها تفيض عشقاً وهياماً، ومشاعرها نحوه غامضة متذبذبة، بل لا يعرف لها اتجاها ... وأصبحت خطاباته إليها هي الخيط الرفيع الذي يحمل إمارة لعلاقة أيا كان اسمها، وكان في كل مرة يبحث عن طريقة

لتوصيلها إليها، وخاصة في الفترات – التي أصبحت متكررة – والتي تسوء فيها العلاقة بينها وبين جارتهما الممرضة كريمة ...

وخلال زيارات ثلاثة قام بها مجدي للمنصورة خلال عام، تحقق فيها لقاء واحد مع نادية، بينما لم تسمح الفرصة – أو أن نادية لم تشأ للفرصة أن تسمح – بلقاء تحت أعذار لم يملك مناقشتها، رغم أن بداخله شكوكاً حول صدقها، ولولا الحب العظيم الذي يتملكه، لألقى بهذه العلاقة خلف ظهره...

وقدم الامتحان، وتخلف (الكبير) عن الحضور، وتعجب الزملاء، ولم يحظوا بوسيلة للاتصال به للاستفسار عن سبب تخلفه، ومع قلقهم ولهفتهم، ترقبوا حضوره في كل يوم، حتى كان اليوم الأخير، حيث حضر مجدي، ورحب به الزملاء وسألوه عن سر تخلفه، ولم يزد في رده عن كلمة كررها:

- بعدين ... بعدين ...

أدى الامتحان، وأصرَّ الزملاء على جلسة وداع للعام الدراسي، وجمعتهم ترابيزة الكبيير في الركن البعيد من الكافتيريا، وحين أعاد بعضهم السؤال عن سبب تخلفه، سد أمامهم المنافذ وأبدى رغبة في عدم الإفصاح .. وبدأ الزملاء والزميلات ينصرفون، الواحد تلو الآخر حتى خلت الجلسة إلا منه ومن ناهد ... وحين هم بالقيام والانصراف، سألته ناهد:

- إنت ساكن فين يا مجدي؟
- أنا ساكن في الدقي.
- طيب كويس، دا أنا ساكنة في أول العجوزة. قوم ناخدها مشي كدة، وندردش.

استجاب لطلبها المنطقي، وخرجا معاً من الجامعة وحاولت ناهد تقصي أسباب تخلف مجدي عن حضور الامتحانات، وفي نفسها، رغبتين؛ الأولى أن تجد تفسيراً لسلوك غير مفهوم، والآخر أن تختبر مكانتها عند مجدي، وهل يخصها بما رفض الإفصاح عنه على مسمع من الجميع؟

ببساطة لم تتخيلها ناهد، أجابها مجدي بما لم تتوقع أن تسمعه منه .. قال لها:

- ناهد أنا شايف إننا بقينا أصدقاء، مش مجرد زملا، ودا يخليني افتح لك قلبي، وأحكي لك حكايتي – واستدرك – دا إذا كانت تهمك، وتحبي تسمعيها، مش بس إجابة مباشرة.

تلقفت الفرصة التي تنتظرها منذ شهور، وصاحت مستنكرة:

- يا نهار أبيض ... دا سؤال يا مجدي؟ دا أنا أسعد واحدة إنك بتخصني بخصوصياتك. وأنا باقترح إننا ندخل نقعد في جنينة الأورمان لغاية ما تخلص كلام عشان تركز، وكمان يبقى الوقت ف إيدنا وما يبقاش على قد طول المشوار.

وافق على اقتراحها مثنيا عليه، ودخلا إلى الحديقة الخالية تقريباً من الرواد في ذلك التوقيت وجلسا إلى مقعد تحوطه الزهور العبقة والتي ينسقها المتخصصون في الحديقة في مثل ذلك الوقت من شهر مايو في كل عام، وبعد أن جالا بنواظرهما فيما يحيط بهما فأشبعاها من صور الجمال المبهر. انسابت الكلمات على لسان مجدي يروي حكايته:

- أنا من أسرة كانت من الطبقة الوسطى العُليا، وأصبحت من الطبقى الوسطى الدُنيا، والدي تاجر واتعرضت تجارته لظروف صعبة، لكن توازَنْ، وكبرياؤه أوحى لنا إننا مازلنا في بحبوحة... المهم إني كنت دايماً متفوق والحقيقة إن تفوقي منحة من ربنا، غيري يذاكر كام ساعة، وأنا أذاكر كام دقيقة عشان استوعب أكتر من اللي هو استوعبه، وذاكرتي محكمة مافيهاش تسرب، أي كلمة من أي لغة أسمعها مرة بتتخزن كويس وباعرف استدعيها بسرعة جداً وقت ما أكون محتاج لها .. المهم كنت باطلع الأول في الثانوي، وكنت قدام تحدي إني لو ماجبتش مجموع كبير جداً يضمن لي المجانية في الجامعة ومكافآة شهرية تغطي مصاريفي حاتسبب في موقف حرج لوالدي ودا اللي لا يمكن أسمح بيه حتى لو مادخلتش الجامعة.

في فترة المذاكرة قبل امتحانات الثانوية، طلبت جارتي – اللي كانت في الإعدادية – مني أشرح لها بعض المواد، بدأت بالإنجليزي، وأنا وسعت المسائل للجغرافيا والعربي والرياضة وغيره، لأني ارتحت لها ... وبعدين اتعلقت بيها .. وبدأت اتعود على وجودها جنبي. ورغم إن والدتي – الست الريفية الطيبة البسيطة – هي اللي طلبت مني في البداية إني أشرح لها بناءً على وساطة والدتها اللي ساكنة في الشقة اللي جنبنا، إلا إني لاحظت إنها بدأت تقلق من تكرار حضور نادية عندي والوقت اللي باقضيه معاها في الشرح، لأني

– من وجهة نظرها – أولى بأي ثانية وأنا داخل على امتحانات ثانوية عامة.. كنت باطمِّنها، لكن قلب الأم مايطمِّئش بالكلام.

لغاية كدة والأمور ما فيهاش مشاكل حقيقية.. لكن مع الأيام، اتطورت العلاقة من ناحيتي لحب.. وكتبت لها جواب حطيته في وسط كتاب الإنجليزي، وطلبت منها تقراه وتبقى ترد على، لأني بطبيعتي خجول بدرجة كبيرة، عشان كدة ماقدرتش أصرح بحبي، وأعتقد إن والدتي بقت تلمح لنادية أو والدتها بعدم راحتها لتطور المسائل، أنا استنتجت دا من سلوك نادية اللي كانت بتقدم رجل ... وبعدين أحس إنها خايفة من حاجة مش قادرة تتكلم عنها، فتأخر الرجل الثانية ...

امتحنت ... وامتحنْت ... ورغم الوعود بالقرب والسعادة بعد الامتحانات، كان الخط البياني متذبذب وغامض، وظهرت النتيجة وطلعت من أوائل الجمهورية، وضمنت دخول الجامعة، وكان لازم أروح القاهرة أو إسكندرية، لأن – زي ما إنت عارفة – مافيش جامعات إلا فيهم – ولما كان عمي الوحيد اللي والدي تقريبا مربيه عايش في القاهرة، أصبحت الأمور محددة بأن الوجهة هي القاهرة.

- كويس. وكده تبقى مشكلتك محصورة في البعد عن نادية.
- لأ مش كويس .. مش كويس خالص. عمي ده عنده تلات بنات منهم واحدة، متفقين مع بعضهم من سنين طويلة بأن مجدي لسُمية، وسُمية لمجدي. وأنا مش طرف في الاتفاق ده عشان كده، كنت مكبر دماغي، وباقول لنفسي: خللي اللي يقول، يقول، ولكل حادثة حديث. لما أكبر وأنوي اتجوز حا اختار العروسة اللي أنا عايزها، وكل عقدة ولها حلال ... لاكن إقامتي عند عمي، خلت الفاس – زي مابيقولوا – وقعت ف الراس، والمواقف اليومية حاتفرض على تجاوب يزيد مع الأيام، ومع التخطيط المستمر من كل الأطراف هنا، وفي المنصورة، وطبعاً والدتي – رغم إنها كانت بتفضل إني أتجوز بنت خالتي اللي با اشعر بغثيان لما أشوفها – شافت إن زيادة ارتباطي ببنت عمي وإقامتي في القاهرة حايبعدني عن نادية، ودا الأهم، ومن الضررين اختارت والدتي الأقل.

ومن سلوك نادية غير المفهوم في معظم الأحوال باستنتج، إنها واقعة تحت تأثير مستمر من والدتي من ناحية، ومن جارتنا الممرضة من ناحية تانية بتنفرها مني وتباعد بيننا.

وصمت مجدي لحظة يلتقط فيها أنفاسه لكي يكمل الحكاية، ويريح صدره من شحنة العذاب القاسية، واعتقدت ناهد أنه أنهى الحكاية فتساءلت:

- جميل، وأنا سعيدة إنك حكيت لي اللي إنت حكيته. بس إيه علاقته بعدم حضورك للامتحانات؟
- طيب هي المشاكل اللي أنا حكيتها دي، مش عايزة حل؟
- طبعاً. دي مشاكل معقدة، وداخله في بعضها زي كرة الخيط، محتاجة إنك تمشي على السلك بمنتهي الحذر.
- ما هو عشان كده أنا اتخلفت عن امتحانات جميع المواد، ماعدا مادة.
- مش فاهمة.
- أنا عشان أنقذ ما يمكن إنقاذه من باقي عمري، كان لازم أضحي بسنة واحدة أسقط فيها بعد نجاح مش عادي فتبقى إشارة للجميع إن في عنصر جديد. فيه حاجة غلط، وفي البحث عن الغلط ده أقدر أنا ألاقي مخرج من إقامتي عند عمي.
- طيب واشمعنى حضرت مادة واحدة.
- عشان أثبت لنفسي إنى لسَّه ليه قدرتي على النجاح، لأني لما أجيب امتياز ولا جيد جداً في المادة اللي أحضرها، توفر لي الاطمئنان على نفسي.
- ماشاء الله يا مجدي إنت دماغك ما بيسيبش تفصيلة في وسط الزحمة اللي فيه، بس برضه ما قلتليش، لما تسقط، ويترتب على سقوطك إنك تسيب بيت عمك، مش ده حايخلي والدك ياخد على خاطره من عمك باعتباره قصّر في توفير الجو المناسب ليك، وتبقى مشكلة عائلية؟
- الكلام ده صح ميه في المية نظرياً ... لكن أنا حا اقنع والدي إن معظم الأساتذة في جامعة القاهرة، ليهم منهج مش ماشي مع طريقتي، وإن الأستاذ الوحيد إللى قريب من أسلوبي قدرت آخد في مادته تقدير عالي، وبالتالي أحول جامعة إسكندرية عشان

أساتذتها من مدرسة ما فيهاش تعالى على عقول الطلبة وزملائي اللي راحوا جامعة إسكندرية حققوا نتايج غير عادية.

- معنى كده إنك عشان تسيب بيت عمك، حا تسيب القاهرة كلها؟
- إطلاقاً. أنا ماحدش حايحضر تحويلي من جامعة لجامعة، ولما حا أقول إني بقيت في جامعة إسكندرية حا أعمل اشتراك في القطر للقاهرة على إني عملته لإسكندرية، وأحضر كل يوم عندي فيه محاضرات مع زملائي، ومنهم سعيد اللي عرفتك بيه.
- معنى كده إنك مستمر في جامعة القاهرة، والاختلاف الوحيد إنك حاتعمل اشتراك في القطر بدل إقامتك عند عمك.
- مظبوط كده.
- يعني ضحيت بسنة من عمرك عشان ظروف ما لكش ذنب فيها؟
- ما لا يدرك كله، لا يترك كله، والسنة تتعوض، لكن العمر ما يتعوضش.
- ربنا يقويك على ظروفك، ولو شفت في أي وقت إني ممكن أعمل حاجة مفيدة. أنا تحت أمرك.
- شكراً يا ناهد. إنت صديقة عزيزة عليّ، وأنا ارتحت جداً لما اتكلمت معاك، وحكيتلك ملخص للحكاية اللي بتشكل سبعين، ثمانين في المية من همي.
- يعني لسة في عشرين، ثلاثين في المية من همومك ما قلتش عليهم؟
- مظبوط، بس دي محتاجة قعدة ثانية، قومي أوصلك وارجع البيت عشان أبدأ أمهد للخطوات الجاية.

ونهضا .. وسارا يلملمان أطراف الحديث: عن الكلية .. والزملاء ... والامتحانات والنتائج حتى إذا اقتربا من بيت عمه، أشار إليه لتعرف مكانه، ثم استمر في السير إلى جوارها لتوصيلها إلى منزلها، وقبل الوصول إليه سألته:

- مش حا اشوفك بقى طول الأجازة يا مجدي؟
- لأ إزاي؟ أنا تحت أمرك. أنا مارضيتش أسألك السؤال ده لأكون باحرجك عشان أنا ما اعرفش ظروفك إيه؟
- لأ يسعدني أشوفك قبل النتيجة، ونتفق ساعتها نتقابل مع الشلة يوم النتيجة في الكلية.

فأخرج قصاصة فصلها من طرف ورقة الأسئلة وكتب عليها رقم تليفون وسلمها الورقة متحفظاً:

- اتصلي بي في أي وقت في مواعيد العمل الرسمية، علشان لوْ حد غيري رد، تكلميه على إنك من سكرتارية الكلية، وإني مطلوب أحضر للكلية في اليوم التالي الساعة كذا لمقابلة الدكتور فلان، ويبقى الميعاد ده هو اللي حانتقابل فيه في جنينة الأورمان في نفس المكان اللي قعدنا انهارده فيه.
- ما شاء الله. كل حاجة عندك ليها ترتيب محكم.
- بس يا خسارة زي الإنجليز ما بيقولوا Jack of all trades, master of none أو سبع صنايع، والبخت ضايع.

وردت بإشفاق يمتزج بإعجاب:

- لأ البخت مش ضايع إن شاء الله.

أشارت إلى منزلها وحددت له الطابق ورقم المسكن، واسم والدها ... وودعته بطريقة لاحظ فيها أنها تودعه على غير إرادة ... وكذلك فعل .... وانصرف عائداً إلى بيت عمه.

****

والعــود أحمــد

كانت الأيام الثلاثة التي بدأت بها الأجازة الصيفية، والتي قضاها مجدي في بيت عمه بالقاهرة، دهراً كاملاً ضغط على نفسه لكي يبدو مقتنعاً بما اقترحه هو، من قضائها مع أسرة عمه، قبل العودة إلى المنصورة.

ذلك رغم البرنامج المكثف الذي وضعه عمه للترفيه عن المرهق الخارج لتوه من أتون الاستذكار، ولهيب الامتحان، زارت الأسرة – خلال الأيام القليلة – كل معالم القاهرة: الأهرامات – حديقتى الحيوان والأسماك – عدة متاحف، عدد من المساجد والكنائس التاريخية، ودار متميزة للسينما، وفي خلال تلك الزيارات مرت أوقات صنعت أو – أصطُنعت – فيها فرص الخلوة بين مجدي وسُمية، وخاصة في الحدائق، ولم يجد في نفسه ميلاً لحديث خاص معها، لكنه اختلق موضوعات لأحاديث تناسب الموقف وكان يدعو الله أن يبدو في نظرها ثقيل الظل، وأن ينفرها حديثه، لكنه كان يلاحظ إنبهارها بما يقول، وإعجابها الشديد بما يسوقه ابن عمها من حكايات، وبأسلوبه العذب الذي يفيض رقة وعاطفة.

كان مجدي، قد اتفق مع سعيد – في آخر لقاء جمعهما – على يوم وساعة محددتين، يحضر فيهما سعيد إلى القاهرة، ويلتقى به في محطة قطار باب الحديد ليرافقه إلى المنصورة، في رحلة تجريبية يقرر على ضوئها مناسبتها لتنفيذ قراره بالسفر اليومي من المنصورة إلى القاهرة،. في التوقيت المحدد التقى الصديقان على رصيف المحطة، وفوجئ مجدي بمرافقة سعيد لأربعة شباب، يعرف إثنين منهما معرفة سطحية بينما لم يتعرف على الإثنين الآخرين حتى قدمهما له سعيد ثم واصل الحديث:

- أنا اتفقت مع رفاق الرحلة اليومية إنهم يحضروا معانا التجربة دي عشان تبقى صورة طبق الأصل من الواقع الفعلي، ويقدر مولانا الأمير ياخد قراره عن اقتناع كامل لأسلوب حياته اللي حا يستمر أربع سنين، قابلة للزيادة.
- عَمَى ف عينك، دول قابلين للنقصان.
- ليه ناوي تترفد قبل ما تكمل.

- لا يا خفيف أنا حا اعمل Skip (سكيب).
- إيه سكيب دي؟
- صحيح ما انت جغرافيا. Skip يعني أقفز سنة.
- دا فين النظام دا إن شاء الله؟ في جامعة القاهرة؟

وبدأ الحوار والنقاش، وحضر القطار، وشغلوا مقاعدهم في عربة من عربات الدرجة الثانية، وشارك الجميع في النقاش، وانتقلوا من موضوع إلى موضوع حتى فوجئ مجدي بسعيد، يلفت انتباهه إلى أن القطار دخل المنصورة، وأن عليه بالذات أن يستعد للنزول فهو الوحيد الذي يحمل حقيبة سفر. وغادروا المحطة، وتفرقوا بعد أن انفصل أحدهم تلو الآخر طبقاً لقرب مسكنه.

فتحت والدته الباب لتجد مجدي أمامها فاحتضنته في شوق وحنان شديدين، لكنه أحس بامتزاجهما بدرجة من درجات القلق أو التهيب، ونادت بأعلى صوتها الفرح:

- يا حاج. مجدي جه ...
- وجاء والده وعلى كتفه منشفة توحي بأنه كان في طريقه إلى الحمام للتوضأ، فاستقبل مجدي بعاطفة جياشة واحتضن ولده وقبله من وجنتيه، وطلب منه الجلوس، وطمأنته إلى أحواله؛ قال مجدي:
- كل شيء تمام يا بابا والأمور ماشية وعال.
- وأخبار عمك إيه ومراته وبناته؟
- بيسلموا عليكم كتير.
- وكانوا قايمين معاك بالواجب ولا .. ؟

وقاطعه مجدي في حسم:

- لأ .. ولا إيه يا بابا؟ دول كانوا شايليني شيل. بصراحة أنا كنت با اتحرج من مبالغتهم، لدرجة إني كنت با احس إني عبء مسبب لهم قلق.
- لا يا ابني عبء إيه .. وقلق إيه. دا عمك ده أنا مربيه. يعني أنا أخوه .. وأبوه.
- وهو ما قصرش، لا هو ولا مراته ولا بناته.

وانتقل الأب إلى الموضوع الأهم فحول الكلام إلى اتجاهه:

- وأخبار الكلية إيه؟
- والله يا بابا، موضوع الكلية دا عايز كلام وشرح طويل، يا ريت نأجله لآخر النهار.
- قلقتني يا مجدي. طب إديني إشارة كدة لغاية ما نقعد ونتكلم في التفاصيل.
- طبعاً إنت عارف مصداقيتي يا بابا، وعارف كمان جديتي، وإن أنا مش من النوع اللي حاطط عينه على النجاح لكن عيني دايما على التفوق. وإن أنا اخترت الآداب، مضحي بمجموعي الكبير، علشان فيها المواد اللي أنا باحبها وممكن أحقق فيها أضعاف اللي حققته في الثانوية العامة.
- عارف يا مجدي، لكن انت عايز توصل لإيه؟ انت اتفاجئت بمواد ثانية، أو مقررات مش هي اللي في دماغك ؟
- بالعكس، المواد أنا عارفها قبل ما ادخل الكلية، لكن اللي ما كنتش أعرفهم، الأساتذة، لأن الأستاذ في الجامعة هو المنهج، وهو الامتحان .. وهو النتيجة، وأنا حبيت في الجامعة عموماً، أسلوب الدراسة اللي بيخللي كتاب الأستاذ، مجرد دليل، أو محدد لرءوس الموضوعات، وإن الطالب يطَّلع على الموضوع في الكتب والمراجع اللي يقدر يوفرها بالشِّرا أو من مكتبة الكلية أو مكتبة الجامعة، وباللغات اللي يقدر يتعامل معاها وييجي الامتحان عشان تكون أسئلته مفتوحة من قبيل: "أكتب في ..." أو "أعد بحثاً في ..." ويسيب للطالب يكتب كل اللي يعرفه في موضوع له مقدمة، وعناصر للموضوع وخاتمة، ويقيِّم الأستاذ مجهود الطالب في التحصيل، وقدرته على عرض أفكاره. دا اللي أنا عرفته من الجيل اللي قبلي في الجامعة، لكن للأسف اتفاجئت بأن الأساتذة دلوقتي بيفرضوا كتبهم، والأسئلة من الكتاب بشكل مباشر جداً يعني ناقص السؤال ييجي: تكلم عما تحتويه صفحة ١١٤ من الكتاب.

أنصت الوالد في شغف ثم تساءل في قلق:

- وبعدين يا مجدي؟ إيه العمل؟
- حا نفكر يا بابا. لسة معانا وقت طويل، لأن المشكلة مش سهلة، وأنا ما عنديش استعداد، أسيب الجامعة، ولا أقدر أغير أسلوب الأساتذة. لكن كل عقده ولها حلاًّ.

كانت الأم بطبيعة مشاعرها وأولوياتها، قد تركت الحوار بين الأب وابنه، ودخلت إلى المطبخ تعد وجبة تناسب مقدم الإبن بعد غياب طويل، وكأنه خارج من حصار أو مجاعة، ولم يكن في بيت عمه يلقى من الإهتمام ما يعادل ما يلقاه في بيته، وعادت لتقطع الحديث:

- يا للا ياحاج.. يا للا يا مجدي، الكلام مش حا يخلص، لكن الأكل هو اللي حا يبرد ... أجلوا الكلام دلوقت .. ولسة فعلاً قدامكم وقت طويل، واللي يعمله ربنا هو اللي يكون. تبات نار، تصبح رماد.

وبدأت الحياة الجديدة – أو هي الأصل والأساس – بوجبة طعام، تلتها جلسة شاي، ثم حمام، فراحة، فخروج للقاء الأصدقاء حتى جاء الليل، فعاد إلى منزله متوقعاً أن يكون خبر عودته قد تنامى إلى سمعها فتتردد على شباك المطبخ للتحية، وإتاحة الفرصة أمام اتفاق على موعد .. ومكان اللقاء ...

لكن الليل مضى بطوله، تردد خلاله على الشباك يلقي عبره بنظرة على الشباك المقابل .. حتى اقترب الصباح فاندس في فراشه، وأطلق العنان لأفكاره وخيالاته حتى غلبه النعاس.

مر اليوم التالي كسابقه حتى الظهيرة، حين سمع والدته تسأل أم إبراهيم، من خلال شباك المطبخ عن حالة نادية، فأصغى وأنصت حتى انتهى الحديث، وفهم منه أن نادية مريضة بنوع من الحمى منذ اليوم الأخير من امتحاناتها والتي انتهت منذ أسبوع، وأنها تحاملت على نفسها لحضور امتحان المادة الأخيرة وما أن وضعت القلم حتى أغمى عليها وانتقل شقيقها إبراهيم إلى المدرسة حيث أعادها إلى البيت، وبرفقته طبيب قام بالكشف، ووصف الدواء، وأوصى بكمادات الماء المثلج، وبنقلها إلى مستشفى الحميات إذا لم تتحسن حالتها حتى الصباح.

أشفق مجدي عليها ورق لحالها، ولام نفسه أن ظلمها في فكره، وقطعت والدته استرساله حين عادت من المطبخ فتطوعت بسرد التفاصيل لمجدي، وفوجئ بها تخلف ظنه وتفاجئه بما لم يتوقع منها:

- الحمد لله .. البنت بعد ما كانت بتخرف، ومولعة يا ضناي، اتحسنت واحدة ... واحدة ... وأمها بتقول إنها انهاردة أحسن – حرارتها معقولة، وأكلت النابت وشربت الشوربة بإيدها من غير مساعدة. ألف حمد لك يا رب.

واصطنع الجهل بمن تتحدث عنه الوالدة بافتراض أنه لم يسمع حديث النوافذ فتساءل:

- مين دي يا ماما اللي بتتكلمي عنها؟
- نادية يا حبيبتي يا بنتي، مش كنت باكلم أمها دلوقت؟
- ما اعرفش.
- أنا فاكراك سامعني، مش واجب يا حبيبي تبص عليها ما هي بنتنا وزي أختك؟
- مش عارف يا ماما، إن كان يصح أدخل وهي نايمة، جايز أحرجها ولا أمها تضايق.
- تضايق؟ دي أم إبراهيم بتعزك زي إبراهيم ابنها، ودايما في سيرتك وتدعي لك وما بتنساش إنت عملت إيه مع بنتها السنة اللي فاتت.

كانت فرصة لا تترك ولو كان ثمنها نصف عمره، لكنه أصبح يخشى الكمائن والاختبارات، فتأخر في الرد لحظات، ثم قال دون أن يبدي اهتماماً:

- ماشي يا ماما. بس خليها لبكره، تكون حالتها بقت أحسن شوية، وِادّي فكرة لأم إبراهيم من النهاردة، إني حا اطَّمِّن عليها بكره الساعة عشرة ولا عشرة ونص...

ألقاها بينما رسم على ملامحه عدم الاهتمام وألحقها بقوله:

- أنا حا انزل دلوقت شوية اسلِّم على أصحابي اللي ما شفتهمش إمبارح، واسيبك تكملي قنابل الدخان اللي طالعة من المطبخ ومعاها روايح تجرّي ريق الجيران ... والله حرام ...

وضحكت والدته سعيدة بإطراء ابنها الذي قليلاً ما تسمعه منه معلقة:

- قال يعني أكّيل قوي، يا رب بس تاكل بنفس وتشبع كده زي الشباب يا حبيبي.

في الصباح التالي اراد أن يذكر والدته بالموعد، ولكنه تراجع، وصمد للدقائق الأخيرة حيث فتحت باب الشقة وخرجت دون أن تقول له شيئاً .. ثم عادت بعد دقائق لكي تدعوه لمرافقتها لزيارة نادية .. ثم سبقته في الدخول، واستقبلته أم إبراهيم بترحيب وحفاوة:

- حمدا لله ع السلامة يا مجدي .. وحشتنا .. ما تبقاش تغيب علينا الغيبة الطويلة دي، اتفضل يا حبيبي. وشك حلو، وقدومك سعد والله، دي نادية كانت حا تضيع مننا ... يا دوب أول إمبارح اللي اتحسنت ..

وقادته إلى غرفة نادية، وسبقته والدته إلى السرير الذي جلست عليه محاطة بالوسائد فانحنت عليها وقبلتها ... وتبعها مجدي مغبطاً والدته متمنيا أن يكون في مكانها، فسلم عليها بينما ربت على ظاهر كفها بيده اليسرى، ثم اختار من الكلمات ما لا تفصح عن مكنون مشاعره، ولا يشتم منها ما يفضح لهفته عليها:

- ألف سلامة. إيه يا نادية إنتي بتمتحني حبايبك وتشوفي معزتك عندهم؟ طيب يتهيألي تقومي بقى، أكيد شفتي عاملين إيه علشانك.
- هوه أنا شفت ولا سمعت؟ دا أنا كنت في دنيا غير الدنيا.

وعلقت والدته بما ولد الرعب في نفسه:

- هي كانت عارفة هي بتقول إيه؟ دي ياما خرفت.

ألقتها والدته، ولم تترك فرصة لتعليق بينما نهضت مستكملة الحديث:

- أنا حا استأذن أنا يحسن أنا سايبة الأكل ع النار، وانت شوية وتعالى يا مجدي عشان أعمل لك الفطار.

ومضت خارجة، ورافقتها أم إبراهيم توصلها إلى باب الشقة، واستجاب الله لدعاء مجدي أن تتسبب عبارة على لسان إحداهما في تداعي حديث طويل تتسع بسببه فرصة اختلائه بحبيبته...

نظر إليها في شوق وعتاب، وأمل عبرت عنه عيناه، وأفصح عن حقيقة شعوره:

- مش عارف أقولك إيه يا نادية؟ وحشتيني؟ مش كفاية لإنك وحشتيني من زمان خالص، عاتب عليكي؟ برضه شوية لأن العتاب شوية على معاملتك اللي مش مخلياني فاهم حاجة، لكن دلوقت ما فيش حاجة تتقال غير سلامتك ألف سلامة، والله يسامحك.

نظرت إليه بعينين نصف مفتوحتين، وبصوت مجهد ضعيف قالت:

- حمدا لله على سلامتك، مش إنت رحت وقلت: عِدُّوا لي؟

- أنا لو عليَّ لا كنت رحت ... ولا قلت عِدُّولي .. واضطريت أعمل عمله سودة عشان ألغي إقامتي في مصر وآجي اقعد في المنصورة... وبكره حاتعرفي وتشوفي.
- أوعى تكون عملت حاجة تتسبب في مشاكل ليك أو ليه. عملت إيه ربنا يخليك؟
- بعدين حاتعرفي و.....

وسمع حركة ثقيلة توقع منها قدوم والدتها فحول مجرى الحديث:

- وانت جاوبتي كويس في المواد اللي امتحنتيها قبل اليوم الأخير؟
- وحتى اليوم الأخير، رغم إني كنت تعبانة جداً بس الحمد لله جاوبت كويس لغاية آخر سؤال وبعدها بقى: عينك ما تشوف إلا النور.

وعادت أم إبراهيم إلى الغرفة لكي تعيد الترحيب بمجدي وتسأله عن المشروب الذي يفضله، وعبثاً حاول الإعتذار، لكنه استسلم في النهاية لكي تطول زيارته، ولكي يختلي بنادية من جديد دقائق إضافية تعد فيها أم إبراهيم ما تقدمه إليه.

وتململت نادية في جلستها، كأنما تريد تعديل وضعها، أو تصحح وضع الوسائد التي انزلقت فجعلتها أكثر استلقاءً في الفراش بحيث أصبحت اقرب إلى الرقاد منها إلى الجلوس، ولمح مجدي ذلك، فأحاطها بذراعيه ورفعها فقربها منه، ووضع الوسائد في موقعها الأنسب، ودفعها إلى الخلف بينما رفع كتفيها، فأصبح الوجهان متواجهان وشبه متلاصقان، فطبع على وجنتها قبلة حانية خاطفة، ثم عاد إلى مكانه في لحظة حيث سمع أم إبراهيم وكأنما تنبهه إلى مقدمها حيث أعادت الترحيب به خلال دخولها إلى الحجرة:

- يا أهلاً يا مجدي، منورنا النهاردة، وإن شاء الله دخولك علينا يكون ترياق يا حبيبي.

وقطع دخولها فرصة نادية في التعليق، أو هو أعفاها من ذلك، ووضعت صينية الشاي على ترابيزة صغيرة أمام الكرسي الذي يجلس عليه مجدي، وجلست على حافة السرير إلى جوار ابنتها وعدلت جلستها حيث ارتفعت ساقاها القصيرتين، وابتعدت قدماها عن الأرض وتعلقتا في الهواء، وتناول مجدي الشاي، واستأذن شاكراً لأم إبراهيم حسن استقبالها له، ومتمنيا الشفاء لنادية.

****

العاطفة... والكبرياء

تخلى مجدي عن محاولاته المتكررة للبحث عن الصدفة بعد تردده على شباك المطبخ على أمل وجودها خلف الشباك المقابل في مطبخها ... فثلاثة أيام بلياليها كانت كفيلة بالكف عن هذه الوسيلة ... ولم تكن الوسيلة الأخرى التي طالما حققت له التواصل بمنطقيه خلال أجازة ما بعد الامتحانات حيث يصبح تبادل الرسائل من خلال طيات صفحات الكتب شفافا يظهر ما وراءه، ويكشف ستر ما يحرصون على ستره...

وسبحان الله، ففي ظهيرة اليوم التالي، ومدفوعاً بظمأ حقيقي، ساقته قدماه إلى شباك المطبخ فرفع قلة يفرغ من مائها البارد ما يروي ظمأه، وشرع يعيدها إلى مكانها في الصينية النحاسية من أمامه، وامتد بصره عبر المنور، ليرى نادية بلحمها وشحمها خلف الشباك تنظر إليه منتظرة انتهاءه من الشرب وكأنها تقف منذ ساعة، فألقى إليها تحية الصباح، وتلفت ليرقب والدته، ويطمئن إلى عدم تواجدها على مقربة منه، ثم تساءل معاتباً:

- معقول يا نادية ... أربع أيام لا اشوفك، ولا اسمع صوتك ... ولا حتى خبر عنك؟

وردت على سؤاله بسؤال:

- ولا خبر ليه؟ طيب مامتك زارتنا مرتين، ما قلتلكش حاجة؟ ولا إنت سألتها؟
- ما هي ما دام ما قلتليش حاجة، يبقى أكيد عايزة تشوف أنا حا اسأل ولا لأ ... وأنا حريص جداً إنها ما تلاحظش حاجة خالص، المهم، قبل التداخلات، حا اشوفك إزاي؟
- خلينا يومين ... تلاتة تاني، لأني لسة تحت العلاج، ومش معقول أخرج من غير سبب مقنع.
- يبقى توجدي السبب المقنع وترتبي أمورك من النهاردة، ونتقابل بكرة بالنهار علشان ما يبقاش خروجك بالليل ويلفت النظر... ومبدئياً ممكن تقولي إنك رايحة المدرسة تسألي على النتيجة وممكن بجد نعدي سَوَا ع المدرسة، ونعرف الأخبار.
- ربنا يسهل يا مجدي.

- أكيد التساهيل على الله، بس علشان فرصة الاتفاق صعبة، يبقى خللي معادنا بكرة الساعة ١١ الصبح في نهاية الشارع حا أكون منتظرك قبلها على الناصية، ولما تعدي حا أمشي وراكي مسافة لما نبعد شوية وبعدين أكلمك...

وسمع صوت أم إبراهيم تنادي ابنتها بصوتها الرنان قبل أن تدخل إلى المطبخ، فأشار لها بيده:

- يا للا، مع السلامة... بكره.

ومضى إلى حيث يمارس حياة البشر ... يأكل ... ويحتسي الشاي ... ويغتسل ... ويبدل ملابسه .. وقبل أن يحل المساء، توجه إلى بيت صابر الذي رحب به قائلاً:

- القلوب عند بعضها يا أبو المجد... أنا لابس هدومي ونازل أروح لك... سبقتني ... وانت دايما سباق.
- العفو يا صابر دا انت اللي قلبك أبيض ودايماً تحس بي في اللحظة اللي أعوزك فيها.
- طيب كفاية مجاملات وشغل بروتوكول، وطمنِّي عن أحوالك، إيه آخر الأخبار؟

وقص مجدي كل ما مر به منذ آخر لقاء جمعهما حتى لحظتهما. أنصت صابر مفتوح العينين، فاغر القيه، ولم يقاطع مجدي حتى انتهى من الحديث فسأله:

- الكلام دا حقيقي، ولا ناقله من مجلة البعكوكة؟
- أنا عمري ما قلت لأخويا صابر غير الحقيقة.
- طيب شوف ياسيدي، إنت دلوقت عندك ثلاث مشاكل، أصلهم مشكلة واحدة، والمشكلة دي أنا متأكد إنها هي اللي عليها الحظر، وإنها غير خاضعة للاجتهاد أو إبداء الرأي.

وقاطعه مجدي:

- ممكن توضح قصدك إيه؟
- طبعاً حا أوضح، ولو إنك يعني غالباً فاهمني، بس ما يضرش، إنت عندك مشكلة أساسية إسمها نادية، لا إنت حا توافق على مناقشتها، ولا لو وافقت ع المناقشة، حا توافق على نتيجتها. المهم: المشكلة دي نتج عنها تلات مشاكل:

المشكلة الأولى: هي نادية نفسها؛ شخصية مُحيرة، ومفاتيح تصرفاتها مش تحت سيطرتك، ودا الجزء اللي يخصك لوحدك، وما حدش حا يقدر يشور عليك ولا يساعدك فيه.

والمشكلة الثانية: اضطرارك للدراسة في مصر، وبعُدك فترات طويلة عن المنصورة، دا جانب، والجانب الثاني مشكلة بنت عمك، والجانبين إنت خلاص اتصرفت فيهم؛ الجانب الأولاني بقسوة شديدة وثمن فادح يعني ما حاولتش تدور على العلاج بالأدوية، ولا حتى بالجراحة العادية، لكن بالبتر، ومش عارف إذا كان دا الحل الصحيح الأول ولا الأخير، يعني رجلي لما تتصاب أعالجها ولا أقطعها، لكن على كل حال انت خلاص قطعتها ومافيش جدوى من الكلام اللي عمره ما حيرجعها، والجانب الثاني والخاص ببنت عمك فانت بتحله بأسلوب الخلخلة وكسب عنصر الوقت، ويمكن عدم رجوعك للإقامة عندهم حا يسهل استكمالك للأسلوب ده ...

- طيب والمشكلة الثالثة في رأيك يا صابر؟
- أيوه، المشكلة الثالثة، دي بقى يا سيدي مشكلة الظروف المحيطة بعلاقتكم، يعني رصد والدتك وأنا عارف إنها ست أميرة وطيبة، وإنها بتعزك بخصوصية عالية جداً، وحتى كمان بتحب عيلة نادية، ونادية شخصياً، لكن – وزي كل الأمهات – ما يحبوش حد ييجي بدري كده، ويقطف ثمرة تعبهم وسهرهم وتربيتهم وتضحيتهم ع الجاهز، ودايماً كل واحدة عايزة تحاوط على ابنها، وتبني حواليه جدار محكم وعالي، وعندها إحساس إن ابنها ده أهم واحد في العالم، والستات الريفيات بالذات – حتى لو كانوا أولادهم حاجة كده والسلام – برضه يفتكروا إن بنات العائلات من الزمالك لبولاق الدكرور عينيهم على أولادهم، وما وراهمش حاجة غير التخطيط لخطفهم.
- الكلام ده هو الواقع يا صابر وهي دي المشكلة، لكن فين الحل؟
- اصبر عليّ يا مجدي، المشكلة لا يمكن حلها إلا إذا حددناها... وقسمناها لأجزاء صغيرة ممكن التعامل مع كل جزء بشكل منفصل، وعشان تكمل المحددات دي، فاضل في المشكلة الثالثة، جزء، وشوية جزيئات: الجزء هو تأثيرات جارتكم الممرضة، والجزئيات هي باقي المحيطين بنادية؛ والدتها ... مرات أخوها ... ممكن بعض الجيران.
- والله يا صابر، أنا شايف ان التشخيص ده صحيح جداً، وصحيح إن التشخيص هو المرحلة الأهم في العلاج، لكن كمان فيه أمراض ما لهاش أدوية أو علاج مضمون، يعني لو شخصنا حالة مريض على إنه مصاب بالسرطان، إيه فايدة التشخيص.

- يا عم مجدي ... يا مثقف ... يا مطلع، إنت ما قريتش لشيلر، إنه إذا كان المنطق القديم علمنا إن كل الغربان سودا، يجب أن ده ما يمنعناش من البحث عن غراب أبيض؟ التشخيص مهم، وإذا شخصت صح وما كانش فيه دوا للحالة ... دور عليه ... اجتهد ... اخترعه.

سادت فترة من الصمت كأنما كل منهما كان يبحث عن حل، أو حتى يبحث عن بداية لاستئناف الحديث.

ولاحظ صابر وجوماً، ومسحة من اليأس تكسو وجه صديقه فاستأنف الحديث:

- ما تبلّمْش كده يا مجدي، والدتك علمتني حكمة ظريفة دايماً تقولها: "كل عقدة ولها حلال". إنت بس تسترخي كده وما تشِدِّش أعصابك، وتقعد على كل جزء من المشكلة بهداوة، وأكيد حاتلاقي بدايل كتير للحل، ووصيتي لك إنك ما تستبعدش الحل من المنبع.
- تقصد نادية؟
- أقصد نادية، ولو إني كنت عايز أبعد عن المنطقة دي عشان ما تزعلش مني، لأني عارف إنها منطقتك المحرمة زي ما قلت، لكن ماقدرش أغش مجدي ... يعني لو ماكنتش تتأكد من إخلاصها الكامل يبقى الموضوع ما يجيبش همه، يبقى تطبق تخصصك في نظرية البتر، ووجع ساعة، ولا كل ساعة. أنا قلت اللي عندي، وأنا عارف إنك حاتقول إن اللي ع البر عوام، لكن الموضوع كله في إيديك... والسلام عليكم ورحمة الله.
- أوجزت، فأنجزت يا صابر ... وصحيح النظرية غير التطبيق، لكن؛ الله المستعان، وربنا يلهمني تحمل البتر – إن لزم – من غير بنج....

وهم وافقاً، ومد يده لصابر بالسلام:

- وجعت دماغك، لكن إنت أقرب واحد ليَّ، وما اقدرش آخد خطوة كبيرة في حياتي، من غير ما أخد رأيك، أشوفك قُريَّب إن شاء الله. سلام...

انصرف مجدي، وفي الطريق إلى بيته استعرض حواره مع صابر، وتعجب أنه لم يشكُ له من سلوك غير مرض من نادية خلال الفترة الأخيرة، ومع ذلك فقد كانت رؤيته أنها حالة ميئوس منها، ولولا المجاملة لقال في حقها الكثير، فهل أصبح مقرؤءاً، تتضح ملامحه

بما يكنه حتى في لحظات الرضا والصفاء؟! ألهذا الحد أصبح مكشوفاً وسعادته غائبة، وأصبح السبب في ذلك واضحاً؟

أحس جرحاً عميقاً لكبريائه، وتضاعف إحساسه بذلك الجرح حين تخيل أن الصورة واضحة أمام آخرين ممن هم أقل ثقافة، وأقل إخلاصاً وتقديراً له من صابر، هل تلمح أمه، أو تتخيل للحظة أن ابنها قد أصبح عاشقاً مرفوضاً؟ إبنها الذي ترى فيه نموذجاً، وتستكثره على أي من بنات حواء؟ هل تستنتجه وداد إبنة خالته السمجة، التي تتقرب إليه، ولا تجد مبرراً لتباعده عنها، ولو اكتشفت منافسة تتدلل عليه، ويحتمل منها ما يزيد عن الدلال ويتجاوز معناه، لكان ذلك سلاحاً ستصيبه به في مقتل، ولن تتردد في التشهير بابن خالتها على أوسع نطاق ممكن... وهل يعرف مدحت التفاصيل، فيرد لمجدي الصاع صاعين، والبادي أظلم؟!

حين وصل مجدي إلى بيته، كان قد صاغ المعادلة في سؤال من ثلاثة كلمات: العاطفة أم الكبرياء؟ خير نفسه إذا تعارضت عاطفته مع كبريائه، فلأيهما يتحيز؟ وشعر بقسوة السؤال، واستحالة الإجابة، فلا هو قادر على كبت عاطفته، ولا هو مستعد للتنازل عن كبريائه، إذن ما الحل؟

طلب من والدته إعداد كوب من الشاي، وأغلق عليه الباب، وطرح على نفسه عشرات من الأسئلة استنتج لكل منها عشرات من الإجابات، انتهى منها إلى قرار أقسم فيما بينه وبين نفسه، على ألا يضعف، أو يتهاون في الإلتزام به: "مع كل حبي لنادية فأمامها اليوم فرصة واحدة تبقى على ما بيننا: التعامل بندية كاملة، ومبادلة الحب الواضح بحب أوضح" وقرر مجدي أن يبدأ في تطبيق ذلك بداية من لقاء الغد. وإن غداً لناظره قريب!.

****

تحويل المســـار

قبل الموعد المحدد للقاء، انتظر مجدي ... وحل الموعد، ثم مضت دقائق، وابتاع مجدي كيساً من "اللب"، من "المقلة" التي ينتظر أمامها، كاد أن ينتهي منه حين نظر في ساعته، واكتشف أن نصف الساعة كان قد مضى منذ حضر ... ولم تحضر نادية.

استعاد نص قراره بالأمس، وشعر بضرورة المرونة للتأكد من موقفها لقسوة القرار – على الأقل بالنسبه له – فقرر الانتظار لدقائق عشرة لا تزيد... وانتظرها فلم تحضر، فانصرف، وفي نفسه تحدٍ لاجتياز اختبار العزيمة، وتصميم على عدم السماح للعاطفة بالطغيان على الكبرياء.

كانت الناصية التي ينتظر عندها، قريبة من بيت مدحت، فقرر زيارته .. وسعد مدحت أيما سعادة حين فتح الباب فوجد أمامه مجدي الذي لم يكن قد التقاه منذ قرابة عام، وإن يكن قد تابع بعضاً من أخباره من صديقهما سعيد... وعبر عن سعادته الغامرة ودهشته من زيارة بغير موعد أو انتظار...

- معقول؟! مجدي؟ أهلا ... أهلاً ... أهلاً. واحشني يا أبو المجد. فين أيامك؟

واستعاد مجدي روح الفكاهة والدعابة برغم ما في داخله من أسىً:

- إيه يا مدحت؟ حانقضيها ع الباب ولا إيه؟ ما تروح تجيب لنا الشاي هنا؟

واستدرك مدحت لائماً على نفسه:

- يا نهار أبيض، لا مؤاخذة يا مجدي، أنا الفرحة لبختني.

وقاطعه مجدي بينما خطا إلى الداخل:

- هيَّه الفرحة بس اللي لبختك؟ دا انت طول عمرك لبخة.
- مقبولة منك يا مجدي عشان واحشني بس ... تعالى وقول لي أخبارك وحكاويك.
- لا أخبار ولا حكاوي. غير هدومك وتعالى نشوف الواد سعيد، ونتجمع تاني زي زمان... ويبقى اللي عايز يحكي؛ يحكي.

واستجاب مدحت ... فمضيا إلى الضلع الثالث من المثلث التاريخي، فقضوا ساعات يتبادلون الأخبار... والمزح قبل أن يتفرقوا، ويعود مجدي إلى البيت، وقد عزم على أن يمضي فيما قرره من الرد بالمثل حتى لو اعتذرت أو ساقت المبررات.

فرض على نفسه لوناً من الحياة اعتاده قبل أن يرتبط بنادية، وكان سبباً فيما حققه من نجاح وما كونه من شخصية؛ الثقافة التي اعتمد فيها على القراءة الغزيرة المنتقاة، فقام على الفور وأمسك بإحدى روايات تشارلز ديكنز الذي أحبه، واقتنى مجموعته كاملة بشرائها من سور الأزبكية بخمسة وعشرين قرشاً كاملة، وفتحها وبدأ في قراءة المقدمة، ولم يترك الكتاب إلا حين انتهى من قراءة الرواية قبيل ظهر اليوم التالي، فرك عينيه في محاولة لدفع النعاس الذي اقتحمهما ... ولم ينجح، ورغم إحساسه بالجوع الشديد، ورغبة في احتساء كوب من الشاي الساخن، إلا أنه خرج من غرفته، ليجد والدته، وقد جلست على كنبة "بلدي" في الصالة تنهمك في قطف أوراق الملوخية، فتوقفت حين لمحته، وعرضت عليه، إعداد وجبة إفطار شهية تعوضه عن وجبة العشاء التي لم يتناولها، فشكرها، واعتذر لها، وطلب منها عدم إيقاظه – لأي سبب – قبل المساء، وعاد إلى غرفته، واستلقى في فراشه، وفي لحظات كان يغط في نوم عميق.

أُذِّن لصلاة المغرب، فأيقظته والدته، ووضعت على ترابيزة مجاورة للسرير، الصينية التي تحملها وفوقها أطباق تحوي وجبة لم تُسمِّها، فهي وجبة وحيدة منذ أكثر من يوم كامل وطلبت منه أن يتناولها، ثم ينظر في الكتاب الذي أحضرته نادية منذ ساعات، وطلبت منها تسليمه إليه ...

اعتدل مجدي، وبدأ يلتهم طعامه بشهية ضاعفتها روح الانتصار التي بدأ يحسها قبل أن يرى ما يحتويه الكتاب ... وفتحت والدته باب الغرفة، ومعها {قلة} وكوب زجاجي فارغ، وضعتهما إلى جواره، وقالت له قبل مغادرة الغرفة:

- على ما تاكل حاكون جهزت لك الشاي. بألف هنا وشفا يا حبيبي.

وخرجت والدته، وقد غمرته السعادة، لأنها دخلت فوجدته يتناول طعامه، وكان من الممكن أن تجده وقد بادر إلى فتح الكتاب الذي أحضرته نادية، وكأنه قدا اجتاز اختباراً لم يعرف أجاء عفواً أم بتدبير من والدته لتتعرف على مدى اهتمامه بأمر نادية.

إنتهى من طعامه، وقدمت له والدته الشاي في موعده، ورفعت صينية الطعام، وخرجت ثم أغلقت عليه باب غرفته، فقام في تؤدة، وأمسك الكتاب وفتحه ليجد بين أوراقه قصاصة ألصقتها نادية بشريط لاصق، وقرأ ما كتبته عليها:

"آسفة لعدم حضوري حيث حضرت عمتي من البلد لحظة توجهي لباب الشقة للنزول. قابلني في شباك المطبخ الساعة ٣".

ونظر في ساعته فإذا هى قد تخطت الثامنة فحمد الله، أن الظروف تساعده على أن يكون صلباً، لا يلين أمام المغريات، وأحس نشوة لتخيله إياها، وقد وقفت تنتظر أن يطل عليها في الموعد الذي حددته، كما وقف ينتظرها في الموعد الذي حدده لها، ولم تحضر.. وقرر أن يمضي في تنفيذ قراره الصعب بشيء من المبالغة، فإذا تغيرت الموازين وبدأت هي تسعى للقائه، فقد انتصر وحقق التوازن المنشود، وإذا قابلت ذلك بجفاء أشد كان ذلك دليلاً على خلو قلبها من مشاعر اللهفة، والحرص على اللقاء، وبالتالي فلا خير ولا مستقبل لهذه العلاقة.

قاوم مجدي ضعفه في مواجهة تأجج حبه، ولواعج شوقه، ببرنامج يومي وضعه لنفسه، بالقراءة، فقد كان يقرأ كل يومين كتاباً بإحدى اللغات؛ العربية أو الإنجيليزية، أو الفرنسية، ويلخصه كتابة ويكتب نقداً للكتاب، ويستخرج منه الحكم والأمثال والتكوينات اللغوية التي تعجبه فيسجلها في أجندة. كما وضع نظاماً للقاء أصدقائه والاتفاق معهم على برنامج ترفيهي بمشاهدة الأفلام السينمائية أو التنزة على شاطئ النيل، أو الحوارات الثقافية والمناظرات الشعرية، فلم يكن يركن إلى سريره، حتى يكون النوم قد أطبق على جفونه أو يكاد، ولم يسمح لأفكاره وخيالاته أن تسلمه للسهاد.

ذات مساء، زاره سعيد فناداه من أسفل المنزل، وأطل من النافذة يدعوه للصعود، فطلب منه سعيد النزول حيث يبلغه شيئاً ينصرف بعده لارتباطه بإنهاء بعض الأمور العائلية، ونزل مجدي حيث سلم وسأله عما يريد فأجابه باقتضاب:

- أنا آخر يوم في اشتراك القطر بتاعي بكره، حاسافر مصر وأقابل واحد صاحبي، عايز أعرفك عليه من مدة. فقلت أعدي وأشوف استعدادك تسافر معايا.. ونغير جو سوا.

- والله يا سعيد أنا كنت عايز أروح الكلية أقبض المكافآة – اللي جايز تكون آخر مرة – وكنت مكسل أسافر. كويس إنك بتعرض عليَّ السفر في نفس التوقيت...

وفي هذه اللحظة مرت نادية فدخلت من باب المنزل بينما نظرت في اتجاه مجدي وسعيد ثم سارت ببطء، ولمحها مجدي، فتابع حركتها بطرف عينه، وتعمد إطالة الحديث مع سعيد:

- حا نتقابل الصبح إزاي؟

وحول سعيد الحديث فسأل مجدي مشيراً إلى نادية:

- هي دي يا مجدي؟
- هي يا سعيد. حا نتقابل إزاي؟

وابتسم سعيد، إذ فهم أن مجدي لا يريد الحديث عنها، فعاد ليجيب عن سؤاله دون اكتراث، لأن في الغد متسع على مدار النهار بطوله، لكي يعاد فتح الموضوع والحديث بإسهاب:

- الساعة تمانية نتقابل قدام شباك التذاكر.

ثم انصرف سعيد، ودخل مجدي إلى المنزل متباطئاً، حيث كانت نادية، رغم تعمدها التباطؤ، قد وصلت إلى شقتها، فدخل إلى شقته هو الآخر.. ثم إلى غرفته، وأغلق بابه، وواصل القراءة في الكتاب الذي قطع حضور سعيد مواصلة مطالعته... حتى إذا كان المساء تناول وجبة خفيفة... وأبلغ والدته أنه سينام مبكراً، وطلب منها إيقاظه في السابعة من صباح اليوم التالي، حيث يعتزم السفر إلى القاهرة... وطلب منها عدم إبلاغ والده، حتى لا يكلفه بالمرور على بيت عمه لأي سبب من الأسباب.

والتقى الصديقان في الصباح، وفي القطار لم يُضع سعيد وقتاً، بل بادر مجدي بالسؤال:

- خير يا مجدي، إنت شكل علاقتك بصاحبتك ملخبطة، وملامحك بتقوللي إنك مش مبسوط؟
- والله يا سعيد أنا مش سعيد...
- ما أنا عارف إنك مش سعيد. أنا اللي سعيد، وانت مجدي. قوللي حاجة أنا مش عارفها.

- معلش يا سعيد ماليش نفس أضحك... أنا حا أقولك التفاصيل اللي إنت لخصتها في إن علاقتي بنادية ملخبطة... وأنا ما اعرفش أعيش إذا كانت أي حاجة في حياتي ملخبطة، وعشان كدة أنا أخذت قرار بأن كبريائي أهم عندي وأبدى من عاطفتي، حتى لو كانت عاطفتي نهر مجراه منحدر وتياره شديد، حا ابني عليه سد عالي زي اللي حا يتبني ف أسوان، مش لازم يحوش الميه، بس على الأقل ينظمها ويكبح جموحها...

استمع سعيد في إنصات، وعلق على ما سمعه وكأنه يتحدث في موضوع آخر:

- طيب إحنا حا نخلص موضوعك في الكلية، ونعدي الشارع عشان نزور واحد صاحبي في شارع بين السرايات، أعرفك عليه، ونقضي في ضيافته كام ساعة ونرجع سوا إن شاء الله.
- إيه يا ابني؟ انت نقلت نقلة زي ما تكون ما سمعتش اللي أنا بادِحْ فيه من المنصورة لمصر، هو أنا با حكي لسعيد ولا لمدحت؟

ضحك سعيد ثم فسر ما عرض:

- إحنا خلاص عرفنا المشكلة، وانت حكيت لي على المُسَكِّن اللي انت لجأت له علشان يصرف انتباهك، ويقلل تركيزك في قضية الحب، أنا با اكمل، وبا اقولك اننا حا ننتقل لمرحلة العلاج وحا نبدأ من النهاردة. بس خلاص، وما تعلقش... وما تسألش علشان أنا مش حا ارغي زيك، واقعد أقول تفاصيل، وتفاصيل التفاصيل. يا للاَّ هِمْ وقوم عشان القطر دخل الرصيف.

وقاما فتقدما خلال عربة القطار حتى بلغا مقدمتها، وتوقف القطار، فغادراه، واستقلا الأتوبيس إلى الجامعة، فأنهى مجدي ما حضر من أجله، ثم عبرا الطريق وسارا بمحاذاة المدينة الجامعية عن يمينهما، ثم عرجا إلى شارع فرعي عن اليسار، ودخلا إلى بيت متوسط الحال وارتقيا عدة درجات حيث توجها صوب باب شقة إلى اليمين فضغط سعيد على زر الجرس، وفتح الباب، ومن خلفه شاب في العشرين، ربعة, متوسط الطول، قمحي اللون، ملامحه تشف عن أصل ريفي، وشعره أسود متهدل تتدلى منه خصلة على جبينه، لا تغطي جسده ملابس سوى شورت، ولا غيره، وصاح مرحباً:

- أهلا أبو سعدة. في وقتك يا حبيبي، ورزقك في رجليك. اتفضل ادخل...

ورد سعيد بمزاح مقابل:

- ما تبطل يا واد الشوية بتوعك دول، وقتي إيه؟ وزقي إيه اللي في رجليَّ؟ هوه أنا مش جاي لك بميعاد، متفقين عليه ولا إيه؟ المهم، أنا معايا صديق عمري اللي قلت لك عليه؛ مجدي.

وأشار بيده إلى مجدي حيث رحب المضيف به، ودعاه إلى الدخول بعشم وكأنهما صديقان منذ أعوام:

- أهلاً يا ابو المجد. اتفضل. خش برجلك اليمين، وانت بقى اللي حظك في رجليك.

لم يفهم مجدي شيئاً من تكرار كلمة الحظ على لسان ذلك الزميل الذي لم يتعرف على إسمه حتى قدمه له سعيد:

- صاحبي، وأخويا عبد القوي... وله من اسمه نصيب. زي ما انت شايف يا مجدي؛ حيطة بس قلبه زي الحليب، وصاحب صاحبه، مشكلته إنك ما تعرفش تاكل جنبه، يعني على ما تاكل لقمة، يكون زلط رغيف، وحا تشوف دلوقت إيه اللي حا يحصل في صينية البسبوسة اللي دفعنا، فيها شيء وشويات...

دخلا إلى الشقة المتواضعة في حوائطها وأثاثها وجلسا على ثلاثة كراسي من الخيزران يُفترض أنها غرفة الصالون، واندمجوا في حديث عن شتات الأمور حتى قطعه صوت أنثوي ينطلق من غرفة أخرى:

- يا عبد القوي – حا نقعد كده للمغرب ولا إيه؟

*****

المراجعـــة

انتفض مجدي فزِعاً من مفاجأة لم يتوقعها، ولم يحسب حسابها، كما أنه لم يتأكد من فهم معنى ما قالته الأنثى الخفية، هل تستعجل عبد القوي في التخلص من ضيوفه ليتفرغ لها، أم أنها تود الانصراف دون الظهور في وجود أشخاص لا تعرفهم، كما لم يفهم يقيناً حقيقة هذه الأنثى، وإن كان قد توقع سبب وجودها... وقطع سعيد عليه تسلسل أفكاره فباغته بسؤال:

- إنت جاهز يا مجدي؟

ورد مجدي على السؤال بسؤال:

- جاهز؟ جاهز لإيه؟

وعاد عبد القوي، الذي كان قد غادر الحجرة منذ لحظات، ومعه امرأة نصف عارية، ملامحها غير مريحة، ودفعها في اتجاه مجدي مُوصياً إياها:

- مجدي ضيفنا من المنصورة، وعايزُه يعشق الدقي والعجوزة، وينسى المنصورة...

ثم جذب سعيد من ذراعه واتجه بحديثه إليه:

- يا للا احنا نوصل مشوارنا، ونسيب العرايس دول ساعة ونرجع لهم...

واتجها إلى باب الشقة ففتحاه وغادرا المكان قبل أن يفيق مجدي من المفاجأة، وبالتالي لم يُبدِ أي رد للفعل.. وأسقط في يده... ووجد نفسه يواجه تجربة جديدة لم يعتركها من قبل، ولم يؤهل مشاعره لخوضها.

عاد سعيد وعبد القوي بعد ساعتين، لكي يجريا زفة لمجدي والمرأة التي لم يعد مجدي يجهل شيئاً عنها ... ونال سعيد حظه من الوليمة قبل أن يودعاً عبد القوي ويقفلا عائدين إلى مدينتهما ... وفي القطار عاتب مجدي سعيد:

- ما كانش لك حق تفاجئني كده يا سعيد، وتاخدني على مشمِّي من الدار للنار...
- يا راجل؟ حرام عليك. أنا خدتك للنار؟ بذمتك ما كانت دي مفاجأة عمرك؟
- ماشي يا سعيد – تجربة جديدة، بس المفاجأة خلتني أسأل نفسي: إنت إيه اللي خلاك تعمل كده؟ وإمتى رتبت الترتيب ده واحنا متفقين ع السفر امبارح بس؟

- بص يا أبو المجد، أنا بقى لي فترة بافكر في مشكلتك مع الحب، وبا حاول أوصل لحل، لغاية ما زرت عبد القوي الأسبوع اللي فات، واتفقنا على الترتيب ده، وحددنا ميعاد التنفيذ على النهاردة، ولما عرضت عليك تسافر معايا فوجئت بموافقتك بسرعة، ووفرت عليَّ ألفْ وأدور، حتى كمان فاجئتني بإنك جاي الكلية، يعني جاي عند عبد القوي.
- لكن مين عبد القوي دا يا سعيد؟ انت ما جبتش سيرته قدامي قبل كده.
- دا معانا في الكلية، في سنة تانية، من دمنهور، واتعرفت عليه في اجتماع أسرة الطليعة واتصاحبنا بسرعة، وقربنا من بعض، وفوجئت بأنه بيحكيلي حكاية زي حكايتك طبق الأصل. وقاللي إن العلاقات الجنسية هي اللي ساعدته على نسيان الحب.
- يعني إنت جبتني على إنى حالة بتعرضني في عيادة الدكتور عبد القوي؟

ضحك سعيد حتى مالت رأسه للخلف، ثم أوما برأسه مؤمناً بينما أكد لصديقه:

- أراهن إنك حا تتحسن بسرعة.

بفواصل زمنية ليست بالطويلة – ولا القصيرة – تكررت التجربة، واستعذب مجدي لذة الجديد فأطفأ لهيب الرغبة، لكنه لم يقتل جذوة الحب، وأصبحت حياته مزدحمة بالحب، والشهوة، ونهم القراءة، وتحقيق التوازن بين طغيانها من ناحية، وبين ذلك كله، وبين كبريائه من ناحية ثانية، وبين قدرته على تدبير الموارد لمواجهتها والصرف عليها من جهة ثالثة.

أما نادية، فسادتها حالة من الإندهاش، وهي ترقب سلوك مجدي تجاهها. وتعجبُ، هل فتُر حبه لها، وكانت تراه شلالاً يتدفق بالليل وبالنهار؟ أم أن جفاءها قد استثار كرامته، وأصبح يكبح مشاعره، ويتلظى في نار شوقه دونما ظهور علامة على ذلك؟ بدأت نادية تسترجع قصتها مع مجدي منذ البداية – لقد كان حبه صفحة بيضاء، وكتاباً مفتوحاً قرأته بيسر، لكنها أخطأت حين رأت نفسها صغيرة على التعامل مع الأمر فلجأت إلى الممرضة كريمة، جارتها التي يضاعف عمرها، عمر نادية، والتي لا يعرف أحد – حتى من أفراد أسرتها – أعذراء هي لم تتزوج، أم أنها متزوجة وتقيم مع زوجها أياماً تتغيب فيها عن البيت ثم تعود إليه حين يسافر عدة أيام كل اسبوع لطبيعة عمله، طبقاً لما ترويه أم أنها مطلقة من ذلك الزوج، أو من عدة أزواج، وقد لا يكون ذلك كله، وأنها تصطنع الأسباب حين كانت ترتبط بالمبيت خارج المنزل.

وباقتراب نادية من كريمة وأسرتها، بدأت الأم تتداخل لسماع الروايات، وتبدي رأيها ونصائحها المسمومة، التي أفاقت نادية متأخرة لاستيضاحها. فقد رصدت بعض العلامات على الفساد والانحراف. فالأم كانت ترتاح لمبيت ابنتها خارج المنزل وتعبر عن ارتياحها في وقاحة: "خير وبركة، توسع مكان لاخواتها يناموا براحتهم، وتوفر لهم لقمة ياكلوها ويشبعوا".

قست نادية على نفسها باللوم الشديد إذ كيف تلتمس النصيحة من مثل هؤلاء الناس المنحرفين الحاقدين على كل من تبرق في عينه صورة من السعادة، وكل من يستهدف الشرف والنقاء ...

أدركت نادية ذلك بعد أن ملك مجدي زمام قلبه، واستجلب الوسائل للسيطرة على مشاعره، لم يفقد حبه لها، لكنه أسقط التلقائية، والسعي، وربما الإلحاح في مطالبتها بمبادلته حباً بحب دون تكلف،ولا تصنع، لقد خسرت الميزة التي كانت تمكنها من ممارسة الدلال الذي تستعذبه الأنثى، ومع ذلك كانت مستعدة للتعامل بالقواعد الجديدة للعبة، مع كل خشيتها من انقلاب الوضع، واضطرارها للسعي إلى مجدي، إذا ما أعرض عنها، وله الحق – كل الحق – إذا فعل.

مضى شهر كامل من الأجازة أمضاه الحبيبان في تحليلات، وتخمينات، وربما في اختبارات للقدرة على الصمود، كلاهما ظمآن يلهث من العطش، والماء ينساب أمامه سلسبيلا ويمتنع عن الإقدام وبسط يديه دلالاً من الأنثى، وكبرياءً من الرجل.

****

صيف ساخــن

ومضى الشهران؛ الثاني والثالث من عطة الصيف، والحال هي الحال، فلا انقطع حبل الوصال، ولا انفصمت عرى الشوق، كما أن عذوبة المذاق قد تأثرت، وصفاء الماء قد تعكر....

استمر مجدي في زيارة عبد القوي في القاهرة كلما سنحت الظروف؛ مع سعيد، أو وحده بعد أن توطدت العلاقة بين الثلاثة، فارتوى من بئر المحترفات، ووجد فيه العزاء عن الحب البريء حيث رأى فيه الوضوح؛ علاقة تحكمها المنفعة المتبادلة، وطرفاها راضيان بما عبر عنه استعارة من لغة كرة القدم – التي عشق متابعتها: "هات وخد"، بل رآها أكثر إنصافاً له حيث بنيت العلاقة على مبدأ: "خد ... وهات".

كما مضى مجدي في شغل وقته بالقراءة بنهم، فالتهم عشرات الكتب، وكرر زياراته لصديقه؛ صابر، الواعي، المثقف، يتناقشان فيما استوعب كل منهما، ويتناصحان فيما ينبغي قراءته، ويتبادلان الرأي في أمورهما الخاصة وأهمها علاقة مجدي بنادية، وأسلوبه الجديد في التعامل معها ...

وقام بجولات مع أصدقائه، رفاق الدراسة؛ مدحت، وسعيد، وصفوت وعبد الهادي، ومحمد عبد الواحد وحسن القباني، جماعةً إذا سمحت الظروف وأصاب التنسيق، وفرادى إذا عزت الترتيبات، فيكون الترويح، واجترار الذكريات، ومتابعة أخبار كل منهم بعد أن تفرقت بهم السبل...

لكن مجدي – وكما قرر بداية – لم يسقط نادية من الحساب. لم يرغب في ذلك، ولم يكن ليقوى عليه أو يحتمله، كان ينشغل بكل الوسائل ليطيل المسافات بين اللقاءات وكان خلال اللقاء، يكظم شوقه، ويتظاهر بشيء من البرود، أجاد تمثيل ذلك، لكنه لم ينجح في قتل حبه الأول، أو استئصال شأفته، فقد كانت جذوره ضاربة في أعماق قلبه الغرير، وبالتالي فانتزاعها ممكن فقط إذا استطاع انتزاع قلبه من صدره...

وكانت نادية على الجانب الآخر ملتاعة تتلهف لإشارة منه، فتستسلم للموعد الذي يحدده، والمكان الذي يختاره للقاء، وكانت تحاول منع نفسها من التساؤل عن أسباب التحول

حتى لا تبدي ضعفاً منها... لكن لسانها لم يكن قادراً على الصوم، أو التوفيق في اختيار كل العبارات التي تخلو من معنى السؤال، ورغبة العتاب...

بدأت غيوم سبتمبر تنبه إلى مقدم العام الدراسي، فلم تقو نادية على الإمساك عن سؤال مجدي:

- ناوي على إيه السنة دي يا مجدي؟
- حا أعمل اشتراك في القطر، وأسافر في الأيام اللي عندي فيها محاضرات.

تهللت أساريرها، وارتسمت الفرحة على كل ملامحها، وانطلق لسانها بتلقائية:

- أحسن قرار أخدته يا مجدي، وإن شاء الله تكون نتيجته خير ونجاح...

وتحفظ مجدي على المبالغة في السعادة:

- جميل، بس لغاية ما النتيجة تثبت صحة القرار، إحنا حا نكون تحت الميكرسكوب أربعة وعشرين ساعة يومياً. وأكيد انتي لاحظتي إن عشان اتفق معاكي على الميعاد ده، عملت أكروبات، ورسمت خطة عسكرية، علشان ماما ما تصدقش ودانها لو سمعتنا بنتفق، لأنها عارضت قراري بالإقامة في المنصورة، وحاولت تأثر على بابا علشان يعارض الفكرة، ودا مش ممكن يكون لأسباب موضوعية، لكن لازم تتسبب فيه وساوس حريمي.. وبالتالي لازم الحرص الشديد، وما تزعليش لو أنا أبديت في بعض المواقف نوع من الجفاء المصطنع للتمويه، وزي ماما ما بتقول: "داري على شمعتك تقيد".
- والله تفكيرك صح ميه في المية يا مجدي، وأنا من ناحيتي حا امشي معاك في خطتك دي، بس يا ريت ما تزعلش لو وصلك مرة إني قلت عليك: "دمك تقيل..." مثلاً ولا أوصفك إنك مغرور ... ولا ...

وقاطعها مجدي محذراً:

- ماشي بس من غير مبالغة، لأن أهلنا مش سُذَّج، وهما كانوا زينا من عشرين، خمسة وعشرين سنة ...

وطالت الحوارات... والمناقشات إلى أن فاجأهما مرور الوقت، وقطعا من الليل ساعات أوصلتها إلى لحظة ترقب ملاحظة غيابهما معاً، وتُوقع نادية في استجواب قاس من

شقيقها إبراهيم لو تصادف استمراره يقظاً، فقفلا عائدين حيث تركها عند أقرب مكان من البيت لا يشكل احتمالاً لملاحظتهما معاً على وعد لقاء يتم الترتيب له عما قريب.

عاد مجدي إلى بيته، راضياً، لكنه لم يشعر بنفس الدرجة من السعادة التي كان يحسها لمجرد لمحه لوجهها أثناء عبورها من أمام شباك المطبخ المواجه. لاحظ ذلك لكنه لم يتوقف – أو لم يشأ أن يتوقف طويلاً أمامه – تاركاً للأيام وللقاءات القادمة، وللمشاعر الحقيقية، أن تثبت تفسيراً أو تمحوه...

مضت أيام، وبدأت الاستعدادات للعام الدراسي، وكان على مجدي أن يستكمل الإجراءات لاستخراج اشتراك القطار، حيث استعمله مرة قبل أن تبدأ الدراسة من قبيل التجربة وحساب التوقيتات الفعلية للوصول من البيت في المنصورة إلى الجامعة في الجيزة، ودخل إلى الجامعة بالفعل وألقى نظرة على لوحات الإعلان لعله يجد تنويهاً أو توجيهاً، أو جدولاً معلناً للمحاضرات فلم يجد أي منها، وخرج من الباب المواجه لبين السرايات، ووجد نفسه على بعد أمتار من بيت عبد القوي، فقرر زيارته على غير موعد رغم توقعه لعدم وجوده، إما لوجوده في (البلد) لاستكمال الأيام القليلة المتبقية إلى أن تبدأ الدراسة، أو أن يكون موجوداً في القاهرة، ولكنه خارج المنزل لقضاء حاجة أو استكمال لاستعدادات العام الجديد.

ضغط على زر الجرس، ولم يتلق رداً ... انتظر قليلاً، ثم عاد ليضغط من جديد، ولم يسمع رداً أو يرصد صوتاً لحركة بالداخل، فاستدار وهم بالإنصراف... وقبل أن يهبط الدرجات السبعة إلى المدخل، سمع صريراً ناشئاً عن فتح الباب وسمع صوتاً من خلف الباب وخلال فتحة تعادل قبضة يد:

- مين؟

فتوقف، واستدار في اتجاه الباب قائلاً:

- أنا مجدي ...

ففتح الباب على اتساعه وسمع صوت عبد القوي مرحباً:

- أهلاً .. أهلاً يا مُرزق... أدخل برجلك اليمين يا مجدي ... يا تلمتيت مرحباً.

ودخل مجدي، وأغلق من خلفه الباب، وتعانق الصديقان، وبعد تبادل التحيات تساءل مجدي:

- إيه بقى يا سيدي حكاية مُرزق دي، انت جت لك زيارة فطير وبط من البلد؟
- لأ وانت السادق جت لي زيارة بط من الدقي...

أطلق مجدي ضحكة مدوية وعلق قائلاً:

- يخرب عقلك يا عبد القوي. انت استهلكت كل البط اللي في الدقي.
- وماله يا مجدي يعيش الفتى، ويبقى كل يوم عريس.
- لأ مش كده، وبعدين دا لو بدأت الدراسة واستمر الحال على كده، يبقى ما فيش جامعة ولا محاضرات ولا امتحانات طبعاً، لأ بالراحة شوية يا عُبدَ.

وسمع صوتاً نسائياً قادما من غرفة العمليات – كما كانوا يطلقون عليها:

- ما تبقاش من قطَّاعين الأرزاق ياسي مجدي.

واستغرب أن تناديه باسمه ولم يعرف هل التقطت الإسم من نداء عبد القوي عليه، أم انها تعرفه .. وسأل عبد القوي:

- هي المحروسة تعرفني؟
- يا عم هو انت عاد حد ما يعرفكش.؟ دا انت لو اترشحت في دايرة سليمان جوهر حا تجمع أصوات ماينافسكش فيها إلا سهير صديقة الطلبة.
- يا نهار أبيض هي دي سهير؟ (وصاح بصوت مرتفع) إزيك يا سهير، قاعدة جوه ليه؟ ما تيجي تسلمي، ولا مكسوفة عشان لابسة قصيَّر؟

ومضى الوقت في ضحك، ومناوشات، ومداعبات ... حتى جاء الليل فاستأذن مجدي وعاد ليستقل القطار عائداً إلى المنصورة...

وفي الأسبوع التالي بدأت الدراسة، وباتفاق مسبق على التفاصيل، إلتقت المجموعة العزيزة على قلبه من الزملاء، على اختلاف كلياتهم، واستقلوا القطار، وجمعهم حديث ممتع عن ذكريات أجازة الصيف والدراسة السابقة، وعن توقعات وأمنيات العام الجديد... كان سعيداً بهذا الجمع، وإن لم يستطع – حتى في أقصى لحظات المرح والسعادة – أن ينسى أن كل أصدقائه وزملائه سينضمون إلى الصف الثاني في الجامعة، بينما هو الوحيد الذي يبدأ الدراسة من بدايتها، خفف عنه الشعور بالنقص أو التدني، أن بقاءه في السنة الأولى جاء

بقرار منه، وليس رغماً عنه، فاستراح وزاد تصميمه على تعويض ذلك العام بالتفوق في كل أعوام الدراسة بالجامعة.

****

في رحاب الجامعة

كأنما طرحت ساحات الجامعة أجساداً ورءوساً، امتلأت الطرقات الداخلية بآلاف الطلبة، وازدحمت الممرات في مباني الكليات بشباب من الجنسين في عرض ملفت للأزياء؛ البنين يرتدون أفضل ما لديهم من الثياب، معظمهم في ملابس رسمية؛ البدلة الكاملة.. رباط العنق، وأحذية لامعة، وقليل منهم اكتفوا بالقميص والبنطلون، إما لضيق ذات اليد، وإما لإبراز ما يرونه كمالاً لأجسامهم. أما الفتيات فكرنفال من الموضات والألوان، حديقة مليئة بأنواع وألوان الزهور اليانعة، وحركة ملفتة جيئة وذهاباً في نشاط ليس غريبا عليهم في أكثر سنوات أعمارهم حيوية ونشاطاً.

أبرز مجدي وزملاءه بطاقاتهم الجامعية الدالة على سداد الرسوم والمصروفات لرجال الحرس الجامعي، وعبروا الباب الرئيسي للجامعة، وقبل أن يذوبوا في طوفان الطلبة، وقفوا جماعة على رصيف الحديقة التي تتوسط الساحة الكبرى، وأخذوا يرقبون حركة الطلاب، ويميزون بين المستجدين منهم، والقدامى من خلال ثبات خطواتهم، ووضوح مقاصدهم وتوجهاتهم.. وبعد وقت قصير، اتفقوا على ساعة ومكان اللقاء للعودة إلى المنصورة.. وتفرقوا حيث توجه كل منهم إلى كليته.

أمام لوحة إعلان جداول المحاضرات، سجل مجدي مواعيد وأماكن محاضرات السنة الثانية، قبل أن يسجل محاضرات السنة الأولى، ذلك لأنه لن يلتقي بناهد – كما تعودا – في الكافتيريا حيث كان يعسكر طيلة اليوم خلال العام السابق، وقد قرر الانتظام في حضور المحاضرات، والتواجد في الكافتيريا في الفواصل بينها أو الأوقات الخالية منها، فكان عليه أن يلتقي بصديقته في المدرج، وينسقا معاً متى وكيف يلتقيان.

رغم لقاء مجدي بناهد مرتين خلال أجازة الصيف، إلا أن لقاءهما في أول أيام الدراسة كان له مذاق مختلف، قد يعني بداية التواصل المستمر والتلاقي اليومي.. وقد يكون موحيا بتجدد موضوعات الحوار على خلفية موضوعات المحاضرات ومقررات الدراسة، وقد يكون ما يرمز له المكان وصلته بنوع العلاقة بينهما. المهم أن كلاهما كان سعيداً باللقاء، ولم يحاول أيهما أن يخفي ملامح تلك السعادة.. كانت لهما فرصة واسعة وفسحة من الوقت

حيث لم تنتظم الدراسة في يومها الأول، وكانت حلقة الكافتيريا حيث ضمت معهما عديداً من الأصدقاء والصديقات من الزملاء والزميلات.

غصة ليست بالقاتلة، لكنها على كل حال موجعة؛ الجميع في السنة الثانية بالكلية، ماعدا مجدي وحده مازال في السنة الأولى. ثقة مجدي بنفسه كانت وحدها كفيلة بتخفيف الألم، أو محوه، حيث رأى نفسه، وقد نصبه الجميع كبيراً للجلسة، ومحوراً للمناقشة، ومعيناً بالرأي الثاقب في سبيل القرار الراشد. لم يقاطع مجدي ركنه بالكافتيريا، ولم ينتظم انتظامه في العام الأسبق، لكن الجميع رصدوا توقيتاته، وحرصوا على توفيق مواعيدهم معها، وفي مقدمتهم كانت ناهد، التي كانت ملامحها تنم عن حرصها الشديد على متابعة حواراته، كلمة ... كلمة، لا جملة بعد جملة، وتشى بإعجابها الطاغي بلباقته، وغزارة معلوماته، وقدرته الفائقة على توصيل ما يريد توصيله لكل الحاضرين – على اختلاف عقلياتهم وتوجهاتهم – بيسر وفي تواضع شديد وتواصل متمكن.

مضى العام الدراسي، وتنامت مع مرور أيامه، ثقة مجدي في تحقيق أهدافه، كان تحصيله للدروس ملفتاً من خلال أسئلته أو تعقيباته في المحاضرات "والسكاشن"، وكانت علاقته بكل الزملاء والزميلات تكسوها البساطة وتسودها المحبة، ويكللها الإحترام ... وكانت علاقته بناهد – على وجه الخصوص – تتقدم باطراد، وتتشكل ملامحها ومقاصدها؛ هو يعتبرها زميلة مقربة وصديقة محببة، وملجأ أسراره ومصدر مشورته، وهي تبادله كل ذلك وترضى به، وإن كانت في قرارة نفسها، تتمنى أن تتقدم خطوات فتكون الحبيبة، والأثيرة في قلبه، والوحيدة على عرشه.

وكانت المجموعة تضم عدداً من البنات ترضيهن الصداقة والزمالة، ويشعرن بأن مجدي نجح في تشكيل مجموعة اكتسبت سمعة طيبة في مواجهة مجموعات أخرى كان بعضها أقل احتراماً، بينما فقدت بعضها كل الاحترام، وكان أفرادها شباباً وشابات عرضة للغمز واللمز، فسعد بهذه الصورة وسعدت معه مجموعته، واعتبروا هذه الصورة حصن أمان لسمعتهم، ودافعاً قوياً لتفوقهم...

واكتملت لمجدي دوافع الرضا؛ باستطاعته التواصل مع نادية مسيطراً على الرغبة الجارفة في تقارب اللقاءات فكان لهما لقاءٌ شهرياً يتبادلان فيه التعبير عن مشاعر الحب،

ويقتنعان أن الفاصل الطويل بين اللقاءات مبرر لظروف سفر مجدي اليومي والساعات اليومية الطويلة التي يقضيها في تحصيل ما تلقاه في الكلية لإصرارهما معاً على أن يحقق مجدي تقديراً يعوض ما لم يحققه في عامه الأسبق، وتبادلا الرضا بما هو كائن، والاقتناع بأنه يغض الأبصار عن متابعتهما، وهو هدف عزيز لتحصين ذلك الحب، ومحو الارتباط بينه وبين الفشل الأول والوحيد في حياة مجدي الدراسية.

كما لم تخلُ حياة مجدي من زيارات متباعدة نسبياً لوكر عبد القوي مع الحرص الشديد على التخفي، حتى لا يلفت نظر أحد من المجموعة لوقوع ذلك الوكر على مرمى حجر من الكلية.

في امتحانات نصف العام (التيرم الأول) حمَّل مجدي أوراق الإجابة عصارة ما اجتهد في الإطلاع عليه واستيعابه بتركيز ووعي، ولم تكن النتيجة مفاجئة لأحد فقد حصل على امتياز في مواد الامتحانات وكما علق بعض الأساتذة أن الامتياز في موادهم جاء عزيزاً غالياً فلم يحصل طالب على هذا التقدير خلال عشرة الأعوام السابقة، وكانت حالة نادرة أيضاً ألا يحقد الطلبة على من فاقهم في التقدير، بل علق أحدهم بأن مجدي يستحق تقديراً أكبر، إذا كان هناك ما هو أكبر من الامتياز.

ومضى النصف الثاني من العام بما مضى عليه النصف الأول، وانتهى إلى نفس النتيجة، وتعززت مكانة مجدي بتحقيق نتيجة عملية، وأحست ناهد بالفخر للامتياز الذي حققه مجدي كأنها هي نفسها التي حققته رغم حصولها على تقدير عام بدرجة جيد، وتلقت التهاني لنجاحها ولتفوق مجدي المبهر...

وفي المنصورة أقيمت الأفراح ... احتفلت أسرة مجدي بشكل معلن وواضح، فقد قصدت والدته أن يفرح معها المحبون، وأن تكيد العزال الذين شعرت بشماتتهم فيما تعرض له مجدي في العام السابق، أما والده فقد سعد قلبه وقرت عينه لاطمئنانه على ابنه الذي خشي أن تهتز ثقته به نتيجة لما تعرض له، وتأكد أن ابنه رجل يصدق فيما يقول، يلتزم بما تعهد به، واستفاد مجدي من هذه الحالة فصارح والده بما أخفاه:

- بابا أنا عايزك تسامحني عشان أبقى مستريح وإن شاء الله أحقق نتايج أفضل دايماً.

وتعجب الأب من ابن يطلب السماح وقد رفع رأسه بما أنجز:

- أسامحك ؟! أسامحك على إيه يا مجدي دا انت طولت رقبتنا.
- معلش يا بابا. أنا اضطريت أقول لك إني حولت جامعة إسكندرية من خوفي لتفسر سقوطي على أنه تقصير لا سمح الله من عمي أو أسرته – وربنا شاهد إنهم كلهم كانوا بيتسابقوا عشان يوفروا لي الراحة والظروف المناسبة للمذاكرة، ودا اللي أنا قلته لحضرتك، بس خفت كمان، لو قلت لك إني مستمر في جامعة القاهرة إنك تسألني طيب حاسيب بيت عمي ليه ما دام مش هو السبب. ولو قلت لك إني حا غير أسلوب تعاملي مع المذاكرة ومع الإجابة في الامتحانات، إنك تعتبر إني أنا اللي كنت فاشل في التعامل مع الموضوع، وكمان ما كنتش حا تبقى واثق من نجاحي في السنة الثانية على التوالي، ودا كان حا يبقى مصدر قلق لك طول السنة لغاية ما حقق نتيجة مختلفة.

وقاطعه الأب عاتباً على أول كذبة، ومقتنعاً في نفس الوقت بأسبابها:

- خلاص يا مجدي ما ترهقش نفسك في الشرح، أنا فهمت تفكيرك، وأنا رغم اقتناعي بإن مفيش كدبة بيضا وكدبة سودة، لكن إنت خلاص مسحت الغلطة، وأثبت إنك بتفكر بطريقة صحيحة. ألف مبروك يا ابني وما تشغلش نفسك باللي فات. أنا عايزك تفرح... وترفع راسك زي ما كنت دايماً ... وأنا موافق إنك تتصرف في حياتك بالشكل اللي إنت شايفه، بس خلينا معاك في الصورة عشان نطمن عليك.

أحس مجدي بارتياح شديد، وقد أسقط حملاً ثقيلاً، وأصبح يعيش حياة واضحة ليس فيها ما يخفيه، إلا تردده على مسكن عبد القوي. وبرر لنفسه ذلك الإخفاء:

- طبعاً دي حاجة ما تتقالش، ومافيش مانع إن تكون في حياتي حاجة واحدة ما يعرفهاش غير عبد القوي وسعيد... وعلى كل حال دي حاجة مؤقتة حاتزول بزوال دوافعها أو تغير الظروف.

والتقى مجدي نفس المساء بنادية بناءً على مبادرة منها من خلال شباكي مطبخي مسكنيهما وكان لقاءًا رائعاً احتفلا فيه بنجاحها وانتقالها إلى السنة الثالثة؛ عام الثانوية العامة الرهيب وتفوقه، أو معاودته التفوق وتصحيح المسار الذي انحرف في عام استثنائي. وبدأت نادية بالتهنئة:

- ألف مبروك يا مجدي. أنا سعيدة بنجاحك وتفوقك لأكتر من سبب.

- أولاً؟
- أولاً عشان مجدي حبيبي نجح ورجع له حقه في التفوق، وأثبت للجميع أنه لا يمكن يكون فاشل تحت أي ظرف.

انتشى مجدي لسماعه كلمة "حبيبي" مقترنة باسمه لأول مرة على لسان نادية وأراد أن يطلب منها تكرارها عشرات المرات لولا تغليبه العقل فامتنع عن ذلك الطلب حتى لا تشعر بالخجل، وقد يدفعها ذلك إلى عدم تكرارها مستقبلاً، فآثر مواصلة الحوار:

- وثانياً؟
- ثانياً. لأنك أثبت قدام الكل إنك مجدي... وحاتفضل مجدي، مصدر فخر كل اللي يعرفك أو يقرب منك.
- ثالثا؟
- وثالثاً. لأنك كده دافعت عن حبنا اللي ممكن الكل يتهموه بأنه كان سبب الفشل.

صفق مجدي وصاح بحماس:

- برافوا!

وتلفتت نادية حولها للتأكد من عدم تلصص أحد الموجودين حولهما في الكازينو على حوارهما، ولما تأكدت من انصراف الثنائيات الغارقة في بحر الغرام عنهما، كل بشأنه الذي يغنيه، تساءلت:

- برافوا على إيه يا مجدي؟
- برافوا عليكي، أنا اتطمنت دلوقتي عليكي إنك حا تاخدي عشرة على عشرة في التعبير، وبرافو عليَّ إني قدرت أساعد بجزء في قدرتك على التعبير بكفاءة وفكر مرتب عن اللي انتي عايزة تعبرى عنه.
- ما تبقاش متواضع يا مجدي وتقلل دورك وتقول إنك ساهمت بجزء، أنا مش قليلة الأصل، أنا لازم اعترف وأفضل اعترف طول حياتي إنك ساهمت بكتير... كتير قوي، في تشكيل طريقتي في التفكير وشجعتني على الإطلاع على حاجات كتيرة قوي في السنين اللي فاتوا ... أنا حسيت إني كبرت عشرين سنة.

وقاطعها مجدي محتجاً:

- لأ. عشرين سنة إزاي؟ دا انتي لسة وردة بتتفتح، وأنا حاسس إنك قطة شيرازي جميلة ووديعة، عايز أضمك لصدري، وتفوت العشرين سنة اللي إنتي بتقولي عليهم واحنا على نفس الحال من غير الزمن ما يسيب أي علامات علينا، أو يغير أي حاجة في نفوسنا.
- إوعدني يا مجدي إنك تكون ليَّ على طول.
- وإيه سبب الطلب دا؟ إنتي حاسة إني ممكن اتغير؟ يا ريتك إنتي يا نادية اللي تثبتي على اللحظة اللي احنا فيها دي.
- طيب وأنا إيه حا يغيرني؟
- السنة اللي جاية حا تكوني في الجامعة. بنت جميلة زيك حا تكون فاتنة كلية الآداب ... شبان كتيرة حا يقربوا منها ... حا يحاولوا.

وقاطعته معترضة، رغم علامات الرضا التي ظهرت على ملامحها.

- بلاش مبالغة، وإذا كان فيه اللي ممكن يغيرني في أسباب أكتر تغيرك.
- زي إيه؟ لا أكون جان برمييه ومانِشْ داريان!
- وما انتش دريان ليه يا مجدي، وانت متفوق، وأكيد البنات اللي في الكلية بيعتبروك عبقري وكل واحدة منهم تبقى عايزة تقرب منك وتدخل جوه عقلك.
- عبقري؟ الله يسامحك، إذا كنت عبقري ما تيجي نمثل مع بعض فيلم: الفاتنة والعبقري.
- ونمثل ليه؟ خللينا نعيش حقيقة بين إيدينا ولو إني باشكرك على المجاملة اللي فيها مبالغة ...

استمر الحوار بينهما، إلى أن لفت نظرها خلو المكان من رواده فرفعت معصمها ونظرت في ساعة يدها ليصعقها تجاوزها للعاشرة فانتفضت واقفة وأشارت لمجدي بكفها إلى أعلا:

- قوم يا مجدي، ونكمل الكلمتين اللي فاضلين في السكة يا احسن إبراهيم...

وقاطعها مجدي:

- إنت بقت عندك فوبيا إبراهيم، دا أبو نسب دا راجل طيب، وبكره هوا اللي حا يوصيكي عليَّ.

وقعت الكلمات عليها برداً وسلاماً، ورغم بداية القلق والارتباك، أحست راحة وطمأنينة لسماعها كلمة "أبو نسب"، واستكملا الحديث على مدى خطوات اقتربت بهما من منزلهما حيث افترقا على وعد بلقاء قريب.

****

بالكربـــون

كنسخة بالكربون مضى العام الدراسي مطابقاً لعام سبقه؛ انتظام في حضور المحاضرات، ومعه حرص على تخصيص أوقات محددة للقاءات الكافتيريا ... تنامى علاقاته بزملاء الكلية... انفتاح كامل، ومصارحات غير محدودة تتطور في كل لقاء مع ناهد، ... حلقات نقاشية ساخنة مع كل رحلة قطار من المنصورة أو إليها عن كل أمور الحياة؛ المواد الدراسية فيما بين زملاء الكلية الواحدة، أو السياسات العامة، أو حوارات جانبية عن الحب بين ثنائيات تجمعها علاقات أوثق... أو حتى هامسة بين مجدي وسعيد عن مواعيد تناسب زيارة عبد القوي في مسكنه كخصوصية لا يعلم غيرهما شيئاً عنها... كما اتفق الرفاق على تخصيص نصف ساعة من كل رحلة للصمت الذي يتيح لكل منهم القراءة الخاصة.

وفي المنصورة التي تواجد فيها كل يوم بعد انتهاء رحلة الدراسة، توافرت لمجدي فرصة للقاءات أكثر مع نادية، لكنه لم يشعر بالاندفاع لتحقيقها، واكتفى بلقاءات متباعدة، لم يستطع التخلص من شوقه إليها أو الرغبة الملحة في تحقيقها... وحاول الوصول إلى معنى ذلك الشعور الذي يجمع بين الشيء وضده، وفي لقائه مع صابر لتحليل الظاهرة، وخلال المناقشة المطولة توقف مجدي فجأة، وضحك بصوت اقترب من القهقهة، وحين تمالك، وسيطر على صوته، قال لصابر:

- أمي دايماً تكرر مثل بيقول: "لا أحبك ولا أقدر على بعدك" ... وأنا با اعدل في المثل عشان يكون: "أحبك وبا احاول أبعد مش قادر" وبا اسأل نفسى هُوَّا أنا لسة با احبها؟ وإن كنت با احبها، ليه باحاول أبعد بعد هي ما قربت؟
- أنا مش مصدق إنك مش عارف سر اللخبطة دي، مع إن الموضوع سهل وواضح؛ الحقيقة الأولانية، إنك بتحبها وزي ما الست والدتك بتقول: "اللي يحب ما يكرهش" وكنت بتحبها في عز ما كانت محيراك وتعباك. لما هي استقلت بقراراها وسابت مشاعرها لطبيعتها، وقربت منك شعرت إنك حققت ذاتك، وأثبت لنفسك إنك جدير بالحب،ومع الدون جوانية الخطيرة اللي بتستمتع بيها على ترابيزة الكافتيريا، بدأت تحس إن نادية

واحدة من الوحايد في وسط الشيوعية العاطفية اللي إنت لقيت نفسك بتعيشها بإرادة ومن غير إرادة.

وأبدى مجدي دهشته لرأي صابر والصورة التي أصبح يرسمها له:

- هيَّ دي بقت نظرتك ليه يا صابر؟ إنت أول مرة تبدي رأي من غير ما تحاول تعرف كل الحقيقة.

أنا عانيت بشكل رغم إنك عشت معايا تفاصيله، لكن الإحساس بالألم غير العلم بيه. أنا كنت بتحمل نار في قلبي لأنه ما شَعرشْ بتجاوب من نادية، وإجهاد في عقلي لأنه مقدرش يوصل لأسباب سلوكها، ووجع في كرامتي لإحساسى بصدها وبعدها، وعدم قدرتي على نفض إيدي من قصتها... واتناقشت معاك ساعات طويلة، واتكلمت مع سعيد اللي بيمثل النقيض لفكرك، ووصلت لروشتة علاج تخفف درجة تركيزي في التفكير في نادية، وقدرت أوازن بين الحب والصداقة، والجنس والمستقبل والتوازن دا مش سهل. أنا عامل زي لاعب الزانة ماشي على سلك رفيّع وماسك زانة تحفظ توازنه. ممكن يعجب بنفسه.. وممكن الجمهور يسقَّف له، لكن لو الزانة طولت مللي زيادة في ناحية، يقع وتتقطم رقبته. أظن إنت ممكن تقدر نفسية واحد ماشي ع السلك أربعة وعشرين ساعة في اليوم يا صابر.

أنصت صابر لصديقه، وتابع انفعالاته باهتمام، وظهرت على وجهه بعض أمارات الأسى ثم علق:

- أنا عارف إني مهما عشت حالتك، مش ممكن أحس بكل معاناتك، ونقتبس من السيدة والدتك "النار ما تحرقش إلا اللي ماسكها" لكن إنت زي اللي استعان على الرمضاء بالنار. إنت قللت معاناتك مع نادية – أو منها – لكن عشت في قلق، وعرضت نفسك لمخاطرة شديدة، ومستمرة.
- أي حاجة في الدنيا أخف من اللي كنت فيه، وما تنساش يا صابر، إن الإحساس بالتميز في وسط مجموعة من الزملا المفروض إنهم أنداد ليك، بيرد لك جزء كبير من الثقة في نفسك كان ممكن تضيع منك و"ماذا يفيد الإنسان لوربح العالم، وخسر نفسه؟!".
- مجدي. اتكلمنا شوية كافيين علشان يريحوك من شيلة راكزة على قلبك،وانت عارف رأيي فيك دايماً إنك كفيل بحل أي مشكلة ومواجهة أي موقف صعب، وأنا سعيد بتقديراتك في

الكلية اللي بتقول إنك لسة متماسك، ومتمالك لكل قواك وقدراتك وأهمها العقلية، المهم إنك تكون دايماً مركز عشان تحقق التوازن في علاقاتك، لأني مش حا اتحمل خبر وقوعك من على السلك...

وواصل الصديقان حديثهما في أمور شتى؛ عن الكلية، والسفر، وكافتيريا الكلية، وعن معنى إشارة وردت في حديث مجدي عن الجنس، وكرر صابر تحذيره لصديقه قبل أن يفترقا:

- الزانة ... خللي عينك على الزانة يا مجدي، وإوعى يعجبك الدور، وتزيد ثقتك وتحاول تمشي ع السلك معصوب العينين ... إوعى يا مجدي.

مضت أيام وأسابيع، واتسعت الحلقة حول "ترابيزة مجدي" وكان معظم روادها من الجنس الناعم؛ طالبات من مختلف المستويات الاجتماعية والثقافية، وأصبحت الحلقة معرضاً للأزياء،ومعملاً للروائح والبارفانات، واتخذت الجلسات شكل الندوات أو الصالونات الفكرية مع بعض القفشات والضحكات، وكانت الحركة نشطة ودائمة، فالجلسة ممتدة، أما روادها، فهم بين حضور ومغادرة، يزداد العدد في الفواصل بين المحاضرات ويقل – ولا ينعدم – خلالها، فدائماً هناك من لا يرتبط بمحاضرة ما، في لحظة ما ...

في ظهيرة يوم من أيام السبت حيث كثافة المحاضرات عالية، وعند اقتراب بداية إحداها، انصرف كثيرون، ولم تكن ناهد قد حضرت في ذلك اليوم، وكاد المكان يخلو إلا من مجدي الذي هم بالمغادرة وسوزان – زميلة في الثانية قسم إنجليزي، جميلة، رقيقة، بسيطة في ملبسها، وفي زينتها، مقلة في حديثها، لكنها تختار الكلمات بعناية تطعمها ببعض المفردات الإنجليزية – التي جمعت أشياءها وكتبها ووضعتها في حقيبتها وهمت هي الأخرى بالإنصراف، فسارا معاً ... وقبل باب المدرج أخرجت كتيباً صغيراً، أعطته لمجدي قائلة:

- الكتاب دا أنا قريته وعجبني جداً رغم أن لغته عالية قوي، ووقفت قدامي بعض التعبيرات، علشان كده قلت لو مجدي قراه حا ينبسط منه، أنا كاتبة لك إهداء عليه.
- أشكرك يا سوزي، وإن شاء الله بعد ما أقراه ممكن نتناقش في موضوعه.
- بس يا ريت تلاقي وقت قريب تقراه.
- علطول. إن ما كانش النهاردة في القطر، يبقى بكره بالكتير إن شاء الله.

- D'accor باي.

ودخل كل منهما المدرج؛ فرقتهم صفوف المقاعد .. وبعد المحاضرة انطلق مجدي إلى محطة القطارات والتقى في عربة القطار برفاق الرحلة اليومية ... تبادلوا التحية، وتحدث بعضهم عن حصاد يومه، واكتفى البعض بالإشارة إلى ما لفت نظره خلال اليوم الدراسي، وانتحى مجدي قبل حلول موعد الصمت اليومي، ففتح حقيبة كتبه، وأخرج الكتيب الذي أهدته سوزان إليه، وتصفح الكتيب في مطالعة سريعة تعود عليها قبل بداية القراءة لأي كتاب، وعند منتصف الصفحات لاحظ وجود ورقة لبنية اللون، مطوية ومثبتة بعناية بين صفحتين، إعتقد في البداية أن سوزان نسيتها، فتردد في فتحها وقراءة ما فيها، ثم رأى أن يفتحها فقد تكون سوزان تعمدت تركها ليقرأ فيها تعليقها أو تحليلها لبعض ما حمل الكتيب، أو أسئلة عن مقصود بعض التعبيرات، تطلب منه تفسيرات عنها.

فتح الورقة المعطرة وفوجئ بما حوت:

" مجدي!

أعرف الكلمة التي ينبغي أن تسبق اسمك، ولكني لا أعرف مدى حقي في استعمالها. أرجو أن يتسع وقتك للقاء خارج الكلية لحوار حتى لو كان لمرة واحدة. وأرجو أن تضع ورقة تحمل الموعد والمكان داخل الكتاب بنفس الطريقة عندما ترده إليَّ. وإلى اللقاء.

سوزان

قرأها مرتين قبل أن يطوي الكتاب ويعيده إلى الحقيبة، وينظر إلى الفضاء من خلال شباك القطار، ويعود بخياله لأكثر من ثلاثة سنوات حين صنع الشيء نفسه في ظل قلق شديد دفعه إلى التحسب لاستنكار نادية، أما سوزان فخطابها واضح ومباشر وصريح، هي تطلب لقاء خارج إطار الزمالة التي تجمعهما داخل الكلية، وهي الأنثى التي يوجعها الرفض ويجرح أنوثتها، بأكثر مما يوجع الرجل الذي شاءت الأقدار، وفرضت الأحوال أن يكون هو الطالب دائماً، وأن يكون للأنثى القبول أو الرفض.

كان الإحساس الأول هو الرضا عن النفس، فسوزان جميلة ورقيقة، وتبدو من طبقة اجتماعية متميزة، وهي زميلة له في نفس المستوى الدراسي، وكونها تبدأ بطلب العلاقة، فهذا

شيء يبعث على الرضا.. والثقة.. والتعويض. نعم التعويض عن سنوات كادت ثقته في نفسه تهتز نتيجة للصد أحياناً... والتذبذب أحياناً أخرى، والبخل الشديد في استعمال مفردات تنم عن الحب، وتبادل المشاعر بنفس الدفء، ونفس القوة.

وتوقف عن الاسترسال في تفكيره بسؤال وجهه لنفسه:

- هل معنى ما أفكر فيه، أن أستبدل حب نادية، بحب سوزان؟ وهل معنى ذلك أن قلبي معروض لمن يسلم بتفوقه ويعترف بأنه الجانب الأقوى في العلاقة؟ وهل هذه الأمور خاضعة للإحساس أم القرار؟ وإذا لم يكن ذلك كله، فهل أنا قادر على تحقيق التوازن في ظل إضافة لنوع جديد من العلاقة هو حب لا أبادله حباً بنفس الدرجة؟

وشعر بحركة الزملاء يستعدون لمغادرة القطار، وقرر مرافقة صابر في الطريق إلى منزليهما فقد تسمح لهما مسافة السير بالإجابة عن أسئلة حائرة، وسمع نداءً بداخله يستغيث:

إلحقني يا صابر، الزانة بدأت تختل!

*****

موعـــــد

لم تكن المسافة فيما بين محطة السكك الحديدية، ومنزل صابر – الأقرب إليها – كافية لوصول المناقشة بينه وبين مجدي إلى نهايتها، فوقفا أمام الباب زهاء ساعة حتى ينتهيا من الحديث الذي بدأه صابر ضاحكاً:

- إيه يا مجدي؟ إنت عندك كل يوم جديد ... ومثير بجد، أنا مش لاحق آخد نفسي عشان أرد على استشاراتك المجانية، ولا عندي فرصة اتكلم معاك في حاجة تخصني. إنت عندك تدفق في الأحداث، وسيولة في المفاجآت وثراء غير طبيعي في تداخل الأمور. وأنا باقترح تشكيل هيئة استشارية لمتابعة وتحليل والرد على تساؤلاتك.
- مش تحمد ربنا إن انا نميت قدراتك في التحليل النفسي وأهلتك تكون طبيب نفسي متمكن؟
- تقصد أسيب الكلية من سنة ثالثة، وأبدأ من سنة أولى؟ الله يسامحك. هات ما عندك.
- قص مجدي عليه ما حدث وسأله صابر:
- وإنت شايف إيه يا مجدي؟ اسمع أنا رأيك مرة قبل ما أتكلم.
- والله أنا ما عنديش البجاحة اللي تخليني أرفض مقابلة سوزان. أنا شايف إني أقابلها واسمع منها، وأكوِّن رأي. بس توقعاتي بنسبة ٩٩% إنها مش طالباني عشان تلاعبني دور شطرنج.

يعني الجواب باين من عنوانه. قصة حب جديدة، لازم قبل ما أقابلها أكون جاهز بالرأي.

- طيب الكلام ده صحيح وأنا متفق معاك إنك عندك عرض بحب جديد. هل أنت جاهز للتجاوب معاه؟ وإذا كنت جاهز، هل انت ممكن تحب إثنين؟ ولا حا تتخلص من نادية؟
- أنا كنت باشكي من فقر عاطفي، وكنت حا امتلك الدنيا لو اتجاوبت نادية معايا وعشنا قصة حب حلمت بيها ودعيت ربنا يوصلني ليها، ويظهر إن الدعاء المستجاب حلت بركاته عليَّ من وسع؛ نادية اتغيرت وبقت إيجابية أكتر مني، وناهد اتطورت الصداقة معاها، وبتطوَّر بسرعة ومش عارف ألاقي اسم لعلاقتي بيها، ومش عارف التطور الجاي

حا يوصلني لإيه؟ وادي سوزان. حكاية جديدة. إنت حذرتني إن الزانة لو ما توازنتش حا تكون طريق الهلاك. وأنا مقتنع بالكلام ده، بس مش عارف اتصرف إزاي.

أطرق صابر هنيهة بدا خلالها – وللمرة الأولى – عاجزاً عن إسداء النصح أو إبداء المشورة وفضل كسب الوقت للتمحيص وتقليب الأمر:

- بص يا مجدي. إنت حا تتفق مع سوزان وتقابلها،وخللي كلامك معاها مفتوح ما توصلش لارتباط ودا حا يوفر لنا فرصة يومين على ما تقابلها، وكام يوم على ما تقابلها المرة اللي بعدها، حا يبقى عندنا الوقت والمعلومة عشان نحاول ننزلك من على السلك اللي انت ماشي عليه. لأنه مش ممكن حا تقضي حياتك كلها في السيرك.

افترق الصديقان، واستكمل مجدي طريقه إلى منزله، واستغرق في التفكير حتى لاحظت والدته شروده وتكرار صمته وعدم رده عليها في الحديث، فبادرته:

- إيه يا مجدي.. إنت زرعتها قمح، لاقيتها ملح؟ مالك يا ابني؟ إيه اللي شاغلك كده؟
- لأ ما فيش يا ماما، أنا بس بافكر في زحمة الموضوعات في الدراسة، وخايف الوقت يبقى ضيق على تحقيق هدفي. أنا مش ممكن أقبل أقل من الامتياز.
- بالراحة يا ابني على نفسك،وخللي تكالك على الله. تبات نار، تصبح رماد.
- كله على الله يا ماما. ما تشغليش إنتي بالك. قدها وقدود إن شاء الله.

في اليوم التالي كانت لديه فسحة من الوقت بين وصوله إلى الجامعة مقيداً بمواعيد القطارات – وبين بداية المحاضرة الأولى، فمر على الكافتيريا حيث حمل كوباً من الشاي واتجه إلى"ترابيزته" في الركن البعيد، وفوجئ بوجود سوزان فألقى تحية الصباح وسألها بينما وضع حقيبته وكوب الشاي على الترابيزة:

- أجيب لك إيه تشربيه قبل ما أقعد؟

كان في ذهنها ما هو أهم من المشروبات، ذلك الذي دفعها للحضور المبكر قبل توافد الزملاء، وها هي قد حظيت بما تمنت، وحضر مجدي، فأصرت على عدم رغبتها في أي شيء. وجلس مجدي،وعلى وجهه ابتسامة تدل على الراحة والرضا لكي يشجعها على الحديث، لكنها لم تزد عن عبارة تقليدية:

- إزيك يا مجدي عامل إيه؟

- أنا كويس، ومبسوط والحمد لله، وقريت جوابك، واستغربت و ...

وأكفهرت وامتقع لونها حين قرع مسمعها التعبير عن الاستغراب خشية أن يكون ذلك معناه الرفض لما حملت رسالتها، لكنها تماسكت، وألقت إليه بسؤال استيضاحي فيه قدر من الدهشة وقدر من الدلال:

- استغربت من إيه يا مجدي؟ من الجواب ولا اللي في الجواب.

وابتسم مجدي مطمئناً:

- لا من الجواب، ولا اللي في الجواب. أنا استغربت من فهمي البطيء، وتأخيري في فهم رسايل العيون، وانتظاري لرسالة مكتوبة. مش ده نوع من الغباء يستوجب الاعتذار يا سوزان؟
- يا نهار أبيض! لما توصف نفسك بالغباء، أمال يبقى مين الذكي؟!
- الغباء مش بس في العقل والتفكير، الغباء الأشد في الإحساس والألمحية. عموماً سريع كده قبل ما حد يجي، تحبي نتقابل فين وإمتى حسب ظروفك؟
- لو يناسبك نتقابل بعد بكره في جروبي الساعة عشرة صباحاً، ونيجي على الكلية نحضر أول محاضرة الساعة ١٢.
- يناسبني جداً. ونغير الموضوع عشان راشد وممدوح وصلوا.

وحول الحديث بسرعة ولباقة ...

أيوه ما هو ت . س . إليوت كانت أراؤه...

ووصل الزميلان فاصطنع مفاجأته بوصولهما، وقطع استرساله في الحديث مرحباً بهما، وداعيا لهما بالجلوس فاعتذرا لضيق الوقت المتبقي حتى بداية المحاضرة واستنهضاه وسوزان للتوجه إلى المدرج على وعد اللقاء بعد المحاضرة.

وتحركت المجموعة في اتجاه المدرج.. وفي الطريق، التقوا بناهد ومايسة، فتبادل الجميع التحية، ولاحظوا قدوم الأستاذ المحاضر عند بداية الممر، فدخلوا إلى المدرج وانتظموا في المتابعة.

****

مكاشفـــة

في ذات القطار الذي يصل إلى القاهرة يومياً في الثامنة والربع صباحاً، وصل مجدي وقد تبقى على موعده ما يناهز الساعتين، فوجدها فرصة للسير في شوارع القاهرة شبه الخالية بسبب رذاذ المطر الذي انتشر في الجو فأضفى عليه انتعاشة وشحن نفسه بكل معاني الحياة، والتزم بالسير على أرصفة شارعي رمسيس وعماد الدين احتماءًا بالجدران والشرفات من ماء المطر، وتعرض لبعض البلل خلال عبوره للتقاطعات، واعترضه شارع ٢٦ يوليو، فانحرف يميناً حتى وصل إلى شارع طلعت حرب عن يساره فدخل الأميريكين، وجال بين الموائد والمقاعد ثم التف فخرج من الممر الداخلي، ليواصل سيره ثم يعبر الشارع ليتوقف على الرصيف المقابل أمام سينما مترو فاستعرض كروت عروض الأفلام ... وتعمد التمعن لإطالة استهلاكه للوقت قبل أن يعود إلى الرصيف الذي تركه لتوه فيتوقف أمام سينما ميامي .. ثم يعاود السير في بطء، يشاهد نوافذ عرض الملابس والأحذية في المحلات العديدة على جانبي الشارع حتى وصل إلى ميدان طلعت حرب، وفي مواجهته رأى جروبي فمتع نظره بصورته الخارجية ذات الطراز الأوروبي المتميز، ودخل إلى المحل العتيق، الأنيق، وداخلته بعض الرهبة من فخامة المكان وبهائه، فأختار مائدة يفصلها عن شارع قصر النيل حائل زجاجي تمكن خلاله من متابعة قطرات المطر المتساقط، وكم كان هاوياً لتلك المتابعة، ويفضلها في حالات الزخات الكثيفة حيث كان يراها غسيلاً للكون، وتطهيراً للنفوس.

قبل الموعد بدقائق، أهلت سوزان؛ بهية الطلعة، رقيقة في مشيتها .. بدت له أميرة من أميرات بريطانيا الإقطاع أو فرنسا الملكية، أو روسيا القيصرية، فوقف وابتسم لها، وسحب مقعداً إلى الخلف وانتظر لحظة حتى أصبحت فيما بين المقعد والمائدة، فدفع بالمقعد لكي تجلس. فعل ذلك تقليداً لما شاهده في أفلام الرومانسية كسلوك لجنتلمان من طبقة النبلاء .. وألقت إليه بتحية الصباح:

- صباح الخير يا مجدي.

- صباح الخيرات يا سوزان. أنا باشكرك من كل قلبي لأنك إديتي لي فرصة جميلة بمبادرة طيبة ونبيلة من إنسانة كلها رقة تستاهل كل التقدير.
- لا ... دا كتير قوي عليَّ. دا أنا اللي باشكرك لاستجابتك لطلبي. وقطعت الطريق على القلق في نفسي.
- طيب – بلاش عبارات المجاملة دي تنسينا حا نطلب إليه ...

وقبل أن يسترسل في الحديث ويسألها عما تطلب، تذكر أنه لم يغش مثل هذه الأماكن الأرستقراطية فلم يتمرس على التعرف على مسميات الكثير من أصناف الأطعمة والحلوى والمشروبات التي تقدمها، وخشى أن تطلب مالا يستطيع نطقه بطريقة صحيحة، فينتقص ذلك من كبريائه. لذلك تراجع مصححاً:

- أقول لك، خدي وقتك لغاية الجرسون ما ييجي وشوفي حا تاخدي إيه.

ورأى شخصاً يرتدي بدلة سوداء ويوبيوناً يتحرك بين الموائد، فأشار إليه بيده، وناداه:

- يا متر.

وحضر الرجل ووقف محاذياً لمائدتهما بانحناءة خفيفة، فسألها مجدي:

- تاخدي إيه يا سوزي؟

فأجابت بينما وجهت حديثها للجرسون:

- هات لي نسكافيه، وكروسان لو سمحت.

وصدق حدس مجدي، فلم يكن قد سمع أو تعرف على ما ذكرته سوزان، فوجه حديثه للنادل:

- اثنين، واثنين لو سمحت.

سادت لحظات من الصمت، انتظر فيها كل طرف أن يعفيه الطرف الآخر من مهمة البداية، كانت هي تعتقد أنها – كأنثى – قد طلبت اللقاء، وذلك يمثل أقصى ما يمكن أن تذهب إليه، وكان هو يرى أنها هي الداعية للقاء فلتعبر عما دعاها إلى ذلك، وليلتقط هو الخيط، ويكمل الغزل والنسيج ...

لكنه عاد ورأى واجباً عليه – كرجل – أن يمهد أمامها الطريق، ويعفيها من كل حرج، وكفاها أن ملكت الشجاعة، وعرضت رغبتها في اللقاء، فبادأها بالحديث:

- أنا من السنة اللي فاتت عيني عليكي، ومعجب بشخصيتك وبأسلوبك في التعامل مع الزملا، وفكرت أكتر من مرة إني أطلب منك فرصة نقرب من بعض بعيد عن زحمة الكلية وعيون الزملا، لكن كنت باتردد، وارجع أخاف لأن الرفض كان حا يحرمني حتى من لقاءاتنا العادية في الكلية، وكان حا يحط حاجز، وفضلت إننا نستمر زي ما احنا، أفضل من المخاطرة.
- بس أنا ما خفتش، وقلت ياالله. هي موتة ولا أكتر؟
- يا ساتر. هي حصلت موتة؟ طيب أنا فضلت أحافظ على الوضع اللي كان، وقلت شيء أفضل من لا شيء...
- بس أنا اقتبست جملتك اللي بتكررها كتير Take it all, or leave it all، وأنا فعلاً شايفة إن أنصاف الحلول مش مرضية. الواحد يحصل على كل شيء أو يخسر كل شيء...
- شجاعتك صفة إضافية لحاجات حلوة كتير باشوفها فيكي يا سوزي.
- شكراً يا مجدي. أنا حاصارحك بحاجة بس إوعى تزعل مني.
- إذا شتمتيني، بكل تأكيد حازعل، لكن أي حاجة تانية ما ازعلش.
- أنا بصراحة أول مرة شفتك وحواليك حلقة من الزملا والزميلات، وانت محور الكلام، وبترد على كل كلمة وكل سؤال بثقة واختصار، كنت بصراحة متغاظة منك، وقلت عليك فذلوك وشايف نفسك، ومغرور، وقررت إني ماقعدش مع مجموعتكم تاني ودا اللي قلته لرجاء تاني يوم، لما قالت لي، تعالي نروح نقضي الفاصل بين المحاضرتين في ركن الكبير، قلت لها: إيه الكبير دا؟ وطلبتْ مني إني أأجل الحكم عليك لغاية ما نقعد معاك مرتين عشان حكمي يكون عادل.
- وجيتي مرتين.
- المرة الأولانية، بدأ رأيي يتحرك في اتجاه إيجابي، لأني حسيت إنك شخصية حقيقية خالية من الصنعة أو التكلف، ودا اللي كان مخليني كاشة في الأول.
- والمرة الثانية؟

- بعد ما روحت استرجعت اللي حصل ولقيت نفسي استفدت مجموعة من الحكم والأمثال وأسماء كتب ومجلات ترفع مستوى المعلومات العامة عندي، وركزت ملاحظتي عليك وانت بتتكلم لقيتك بتتكلم بتلقائية شديدة وحسيت بطيبة وتواضع شديد، فتمنيت أقرب منك.
- يا سلام. دا أنا كده حا ابدأ أتغرْ في نفسي. لما سوزان هانم تقول فيَّ شعر، يبقى أنا أكيد حاجة كبيرة قوي.
- طبعاً انت حاجة كبيرة قوي يا مجدي, بس التواضع هو اللي عامل التوازن وقاطع الطريق على الغرور.

وأحس حرجاً من الاستمرار في الحديث عن صفاته ومزاياه فحول الحديث إلى اتجاهه الصحيح:

- إنتي مش شايفة إن التواضع ده تتوصف بيه واحدة جميلة ورقيقة، وراقية، وتتنازل، وتقعد مع العبد الفقير صاحب الشعر المجعد، والتقاطيع الإفريقية، وعدم التناسق بين طوله وعرضه. ابن الطبقة المستورة بالكاد؟ دي إعادة لقصة ست الحسن والشاطر حسن.

وقاطعته سوزان في اعتراض صادق:

- إزاي بتقول كده عن نفسك؟ أولاً الجوهر النفيس مش ممكن يرخص حتى لو كان عليه شوية تراب، وانت يا مجدي عمر التراب ما يجرؤ يغطي صورتك الجميلة، الشعر اللي انت بتقول عليه مجعد بندفع للكوافير شيء وشويات عشان يعمل لنا شعرنا زيُّه. والعينين اللي انت ما دققتش النظر ليهم فيهم مغناطيس، رغم شيء من الحدة والثقة اللي بتطل منهم ولونهم غريب.

توقفت لحظة ثم تساءلت في دهشة:

- انت ما حدش سألك عن لون عينيك؟ أنا مش قادرة أميز اللون؛ هما عسلي ولا فيهم زرقة خفيفة. والله لون عينيك فريد، وأنا حاسة إن ربنا خلقهم من لون متركب بقدرة رباني، وما وهبش حد تاني نفس اللون.

أسكرته عبارتها، وخشي أن تواصل غزلها في محاسنه فيفقد توازنه... أو تواضعه:

- كفاية يا سوزان. كفاية. أنا بدل ما اتغزل فيكي بصدق وإحساس، بتجامليني وتحسِّني صورتي، وترفعي معنوياتي؟
- والله ما باجامل. ودي الصورة اللي أنا شايفاها بصدق. إنت الشاطر حسن، وإنت اللي بتجاملني لما قلت عليَّ ست الحسن.
- دي ست الحسن، لما أخدت مسحة من حسنك، سموها كده. إنتي ست، ست الحسن.
- تيجي نتفق إن كل واحد يحتفظ بصورة التاني جواه، ويشوفها بإحساسه مش بعينه، من غير ما نضيع وقت في ترديدها على لساننا؟
- موافق. تيجي نقوم جري نلحق محاضرة الساعة ١٢؟

نظرت إلى ساعتها وشهقت في استغراب لسرعة مرور ساعة ونصف الساعة وكأنها دقائق معدودات، لم تشعر بمرورها وأومأت برأسها موافقة، بينما أمسكت بحقيبتها ووقفت استعداداً للإنصراف، ولفت نظرها إلى التريث حتى يسدد الحساب...

بعد خروجهما هم يستوقف تاكسياً فأمسكت بيده التي بدأ يرفعها إشارة للسائق وخفضتها:

- بلاش تاكسي. إحنا جنب ميدان التحرير، تعالى ناخد الأتوبيس، علشان ماحدش يلاحظ عند الجامعة إننا نازلين من تاكسي مع بعض.

وافق على فكرتها، ولكنه شك في أن تكون قد لاحظت عليه شيئاً من التضرر أو المفاجأة عند دفع الحساب فأشفقت عليه أن يدفع أجرة التاكسي، وتردد في الاقتناع بذلك حيث دفع – إضافة للحساب – خمسة قروش كاملة كبقشيش مرضٍ بدت علامته في ابتسامة عريضة على وجه النادل.. كما تردد في قبول فكرة خشيتها من الإنفراد معه في سيارة التاكسي، لأن انفرادها في مجالسته في مكان رومانسي، والحديث الذي تبادلاه لم يعلوه سقف ولم يحده تحفظ.

زجر نفسه على شكوكه وتماديه في التحليل لكل كلمة، وفلسفة كل فعل، وسار وهي إلى جواره حتى وصلا محطة الأتوبيس، الذي جاء بعد وقت لم يشعرا بطوله أو قصره، وانتقلا إلى الجامعة حيث حضرا المحاضرة في موعدها، ونفذا ما اتفقا عليه من التصرف بطريقة تصرف الأنظار عن ملاحظة جديد، أو متابعة لما يستجد، فانصرف بعدها كل إلى

حال سبيله، واتخذت مقابلاتهما في الأيام التالية صورة تلقائية، لا تختلف عن لقاءات مجدي بكل الزميلات والزملاء...

لكن عين الأنثى دائماً فاحصة، مدققة، تنفذ إلى داخل كل الأخريات، ولا تكتفي بما ترى، فلقد رأت ناهد شيئاً إضافياً في سلوك سوزان تجاه مجدي، ورصدت عنصراً جديداً في حركتها، فبدأت تدقق في متابعة حركاتها وسكناتها، لعلها تكتشف شيئاً يؤكد أو ينفي إحساسها، ويصدق أو يكذب حدسها.

ومن الطرف الآخر كان الحرص الشديد من سوزان، والتلقائية المتقنة من مجدي سياجاً حجب كل ما يمكن رصده من تغير ... كانت جلسات الكافتيريا التي تناقصت إلى ثلاثة لقاءات في الأسبوع تضم خليطاً مختلفاً في كل جلسة، ولم تكن سوزان تتردد على المكان أكثر من مرة أسبوعياً، وكانت كعادتها – نادرة المداخلة، كانت مستمعة دائماً، وكثيراً ما استأذنت في الإنصراف قبل موعد محاضرتها بوقت أطول من المتوقع بما يوحي بدرجة متواضعة من الاهتمام.

*****

روشتـــة

بناءً على غمزة من عين صابر، ترك مجدي مقعده في القطار وانتقل إلى حيث اختلى الصديقان ببعضهما بعيداً عن مقاعد الزملاء: ولم يهدر صابر وقتاً حيث ابتدر صديقه بسؤال:

- إيه الأخبار يا مجدي؟ كنا متفقين تقول لي على التطورات ونتناقش على ضوءها؟
- والله يا صابر أنا برتب دماغي للقعدة دي، ومش عارف أبدأ إزاي، أو أسألك في إيه... أنا كل ما اجي أكلمك أفتكر كلام الدكتور برهان لما كان دايماً يقول لنا: "اللي مش فاهم ما يعرفش يسأل. اللي بيسأل هوه اللي فاهم، وعايز يفهم أكتر". أنا بقى ما بقيتش فاهم وعشان كده مش عارف أسأل ولا أفتح الموضوع.
- إيه اللي انت مش فاهمه يا مجدي؟
- ما انا مش فاهم برضه إيه اللي أنا مش فاهمه ... تخيل يا صابر أنا با أحاول اسلِّك الأمور وقسِّم الموضوعات لكن وصلت لمعضلة: "خشبة مين؟ خشبة حبشي. حبشي مين؟ صاحب الخشبة" المسائل دخلت في بعضها، وأولها بقى بعد آخرها، وآخرها قبل أولها.

وقاطعه صابر بينما وضع كفه على جبهته يتحسس حرارته ومستوقفاً إياه:

- مجدي ... مجدي. إيه دا؟ دا السلوك دخلت في بعضها، والفيوزات ضربت. أنا أول مرة أشوفك بالتشوش دا. فيه إيه؟ واحدة .. واحدة، وكل عقدة ولها حلال.
- يا صابر أنا كنت محتاس في علاقتي بنادية، وكانت حيرتي بتتلخص في سؤال واحد: بتحبني ولا لأ؟ دلوقتي بقت نادية، حب عمال يتحرك زجزاج من الطرفين ... وناهد الصديقة اللي كل الأمور بتقول إن الصداقة معاها حالة مؤقتة يا تطور لحب يا تنتهي وتزول ... وسوزان اللي اتفقنا أشوف مَيِّتها، ولقيتني من أول مقابلة زي الجعان اللي ما صدق يقعد في جروبي يشوف بقى حا يعمل إيه ... وعبد القوي ...

وقاطعه صابر:

- إيه دا؟ إنت خلصت ع الحريم، بدأت تحب رجاله يا مجدي؟

- يا راجل أحب إيه؟ وأنا لو أحب راجل حا يبقى عبد القوي؟ طيب خليه عبد اللطيف.

وضحك كلاهما من هذه المزحة التي خففت من وطأة الحالة وتابع صابر:

- لأ صحيح إيه حكاية عبد القوي دا التاني؟
- إحنا قولنا فيه حب، وفيه صداقة متطورة، وفيه مشروع عشق اتولد قوي بعضلات، وفيه عبد القوي، ودي الحالة اللي أقدر أصنفها: إدمان.
- يا خفي الألطاف، نجنا مما نخاف. إدمان؟
- ترددي على شقة عبد القوي بدأ ياخد صورة الإدمان. مش الإدمان إنك تتعود على حاجة ما تقدرش تتوقف عنها مهما فقدت اقتناعك بيها، أو الإحساس بمتعتها؟
- يعني!
- طيب، أنا اترددت على شقة عبد القوي، وكان الجنس بالنسبة لي شيء جديد وممتع، لكن مع الاستمرار، ومع نوعية المترددات على الشقة، ومشاركة أكتر من واحد في وليمة حيوانية خلاني أتعفف وأتراجع رغم قسوة ضغوط الرغبة والاعتياد... أنا باشعر بالقرف من اللي بيحصل بس عارف لما تتعزم عند ناس في منتهى الكرم، ويحطوا قدامك أكل لا إنت طايق شكله ولا متحمل ريحته، ولا إنت حتى عارف إيه اللي إنت حا تاكله ده، ويقعدوا يضغطوا عليك عشان تاكل، وعينيهم عليك بيلاحظوا تصرفك، وتلاقي واحد راح دابب إيده في حلة فيها لحمة مسلوقة على كرشة ما تعرف بشوربتها، وييجي طالع بإيده وفيها حاجة كده بتتهز ويحطها على طبقك ويحلف يمين طلاق لا تاكلها... وساعات تكون إنت جعان ما كلتش من يومين، جربت إنت الصراع بين الجوع والقرف يا صابر؟
- اللي أعرفه إني أنا ابتديت أحس بالقرف ... وإنت بدأت تواجه مشاكل المترفين اللي أنا ماليش فيها، لا جربتها ولا أعرف طعمها، وعشان كده صعب عليَّ أتعامل معاها أو أساعد في حلها.
- مترفين؟ بقى فجأة كدة أتنِقل من المطحونين للمترفين؟ دا إحنا بنكمل بقية عشانا نوم يا صابر. دا أنا لما قعدت مع سوزان في جروبي بقيت حاسس إني سايح في دولة أوروبية وخايف اتصرف تتكشف حاجات ماكنتش أحب إنها تشوفها. ورغم إني حطيت مصروف الشهر في جيبي، كنت خايف إن الحساب يطلع أكتر من اللي معايا، إن شاالله قرش

صاغ، أتحط في موقف لا تحمد عقباه. لو أنا من المترفين كانت تسعين في المية من المشاكل اللي عندي حلِّت نفسها.

- طيب رغم الموقف المأساوي اللي إنت حطيت نفسك فيه، أو حطتك فيه ظروفك – علشان ما تزعلش – لكن ممكن نمسك طرف الخيط ونسلك واحدة واحدة: نادية، تركز في استعراض تاريخك معاها واللي وصلتوله دلوقت، وبشجاعة تقرر إما تستمر معاها وتتابع تقدم علاقتكم وكل فترة تعيد التقييم، وإما باي باي وبالاحترام تنهي علاقتك بيها أو تكمل وتستمر، وعلى ضوء قرارك بخصوص نادية حا يبقى قدامك اختيارين ناهد وسوزان، لو حاتستمر مع نادية يبقى تفهمهم الاثنين إنك مرتبط وإن علاقتك بيهم زمالة وصداقة وبس. لو حا تنهي مع نادية، يبقى حا تختار الأقرب لقلبك منهم وتطور علاقتك بيها، وتفهم الثانية حدود علاقتك بيها ... أما عبد القوي فا انت بتدلع يا سيد مجدي. إنت جربت حاجة كانت في الأول جذابة وممتعة. طبعاً واحد حا يموت من العطش، لقى مية ساقعة في كباية معدن ما شافش اللي جواها كويس ... شرب وارتوى وبعدين حس بإنها مية عكرة وريحتها وحشة وطعمها مش هو طعم المية. لو عاقل حا يبطل شرب لغاية ما يلاقي مية صافية وطعم عذب وريحة كويسة يبقى يشرب زي ما هو عايز، ويبقى استفاد إنه عرف الفرق بين النوعين فيحمد ربنا إنه هداه للسلسبيل، ويستغفر ربه عن اللي فات.

استمع مجدي لحديث صابر صامتاً، مستمتعاً ومقتنعاً إلى أن توقف فقال له:

- دكتور! والروشتة مقنعة وما ليش تعليق ولا كلمة، وخلال أسبوع حا حدد كل المسائل إن شاء الله.

واحتج صابر على لقب: دكتور:-

- دكتور زي عبد القوي بتاعك؟ كتر الدكاترة – زي قلتهم – يضاعف المرض.

ضحك الصديقان، وانضما إلى بقية الرفاق حيث كانوا في فترة صمت، يراجع كل منهم ما يرى مراجعته من المحاضرات في هدوء، فانضموا إليهم، وفتح كل منهما مذكراته واندمج في المراجعة.

****

على خطـــاه

هل كان ذلك من تدبير القدر، أو محض الصدفة، أن تسير نادية نفس مسيرة مجدي وأن تتبع خطاه؟ أم كانت إرادة منها، وقراراً مخططاً؛ قناعة منها، وإعجاباً بنهجه؟ فقد حصلت نادية على الثانوية العامة بتفوق، وترتيب متقدم – صحيح أنه لم يرق إلى ما حققه مجدي – ولكنه تفوق ملفت على أية حال ... وكان قرارها مسبقاً بأن تلتحق بكلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، بجامعة القاهرة – وليست الإسكندرية – كما رأت الأسرة وضغطت بمنطق أن شقيقتها متزوجة ومقيمة بالمدينة، مما يوفر لها إقامة مريحة وبلا تكلفة، لكن منطقها أن تفوقها يدعوها للالتحاق بالجامعة الأولى في الترتيب، ثم إن ذلك سيمكنها من الاستفادة بسبق مجدي، جارها المخلص في الأخذ بيدها، وتقديم العون لها شرحاً، وربما بتوفير لبعض الكتب التي لم تتغير مناهج موادها ... في النهاية رضخت الأسرة لرغبتها في الالتحاق بجامعة القاهرة، واستصدار اشتراك للسفر اليومي بالقطار ...

وهكذا وفرت الظروف فرصة للقاءات يومية مطولة تبدأ من مغادرة المنزل في الصباح الباكر والسير إلى محطة السكك الحديدية، ثم ركوب القطار، والانتقال في القاهرة من باب الحديد إلى الجامعة، والتلازم طوال اليوم باستثناء سويعات المحاضرات التي يحضرها كل منهما منفرداً، ثم العودة إلى المنصورة وصولاً إلى البيت.

كان مجدي قد ألزم نفسه، خلال العام الدراسي المنصرم بتحقيق توازن مجهد بين التركيز على الدراسة وكل ما يرتبط من التزام بحضور المحاضرات، واسترجاع لما تلقاه فيها والاستعانة ببعض المراجع، ما فرض عليه التردد على مكتبة الكلية ومكتبة الجامعة، وبالتالي تخفيض لقاءات الكافتيريا إلى جلسة مستفيضة واحدة أسبوعياً، ولقاء عابر قصير مرة ثانية – وبين ارتباطه بصداقة ناهد التي ركز على إقناعها بالرضا بمرتبة الصداقة بينهما، وتجميد علاقته بسوزان عند مستوى اللقاء اليتيم الذي تحقق خارج الجامعة دون تقدم عليه أو تقهقر عنه، ودون أن يفسر الأسباب أو يشرح الدوافع قصد إبراز سلوكه بالانشغال الكامل بالدراسة كمبرر لتجميد علاقاته عند مستوياتها، كما توقف تردده على شقة عبد القوي الذي اقتنع هو

الآخر باهتمامات مجدي التي حققت له التفوق بينما رسب هو وأعاد العام فاصبح زميلاً لمجدي في نفس السنة الدراسية.

وكان ظهور النتيجة التي انتقل بناءًا عليها مجدي إلى السنة الرابعة بتقدير جيد جداً مرتفع كأول للدفعة، مؤكداً للجميع ما قصد مجدي أن يقنعهم به. والغريب أن نفس النتيجة أعلنت ما توقعه مجدي لنادية من فشل في عبور سنتها الأولى في الجامعة، فقد رصد منذ بداية النصف الثاني من العام الدراسي انفصال نادية تدريجياً عن مجموعة الأصدقاء المشتركين بينهما لتنضم إلى شلة "عصام"؛ الشاب الثري، المتباهي بثرائه، الفخور بتقليده للممثل الأمريكي جيمس دين في ارتداء البنطلون الضيق والقمصان ذات الألوان "الفاقعة"؛ الأسود، والأحمر والأصفر، وربط البلوفر بأكمامه حول الرقبة وتغطية البلوفر للظهر وتدلى الأكمام على الصدر، أو إسقاطه على المؤخرة وتدلى الأكمام أسفل البطن، ومع تراخي إجراءات أمن الجامعة التي كانت تقضي بدخول سيارات أعضاء هيئة التدريس – دون الطلبة – إلى الحرم الجامعي، فقد كان يدخل بسيارته المكشوفة حتى تجاور الكافتيريا ... كان ذلك يجذب انتباه كثيرات من الطالبات المراهقات في زمن كانت السيارة فيه علامة أكيدة على تميز الطبقة التي ينتمي لها مالكها، وبدأت بعضهن لا ترين ما يُشينهن في مرافقتهن له، والخروج في سيارته عند انتهاء المحاضرات أو خلالها.

ولاحظ مجدي أن نادية قد تبوأت مكان الصدارة في شلة عصام، وانصرفت معه أكثر من مرة فلم ترتبط بمواعيد القطار في العودة مع مجدي إلى المنصورة... وحتى لم تعد تهتم بإبلاغه بتخلفها عن مرافقته في السفر، وبالتالي لم يعد يهتم بالتنسيق معها في رحلة الصباح للذهاب إلى الكلية..

رأى مجدي واجباً عليه مفاتحة نادية وتنبيهها إلى الخطأ الذي ترتكبه في حق نفسها وسمعتها، فانتهز فرصة توافق وجودهما في قطار العودة:

- أنا عايز أكلمك في موضوع مهم، حا اتكلم فيه مرة واحدة مش حا أكررها، وأرجو إنك تسمعيني كويس.
- خير يا مجدي.

- الحقيقة مش خير يا نادية. طبعاً إنتي حرة في اختيار أصحابك، وفي كل تصرفاتك، لكن الفرق بين علاقة الزمالة أو الصداقة وبين الانحراف، فرق مخيف يستحق الوقوف والمراجعة و...

وقاطعته نادية بنبرة ممتزجة بدرجة من الحدة:

- انحراف؟ انحراف مين يا مجدي؟
- طيب سمي انتي خروج – طالبة شابة مع شاب زي عصام بيستعرض وجودها في عربيته، واللي ممكن يثيره ده من أسئلة في عقول ونفوس الزملا الأسوياء؛ رايحين فين؟ ليه؟
- ولما أنا باخرج معاك بعد انتهاء اليوم الدراسي، ما كانش ده بيثير أسئلة؟
- على الإطلاق. ما تخلطيش الأوراق. الكل عارف إننا بنسافر ونرجع مع بعض في القطر، ومعانا ييجي عشر زملا. على عينك يا تاجر. وبعدين أنا سمعتي ووضعي بين الزملا ينعكس على نظرة الطلبة وثقتهم، بعكس نظرتهم لعصام بيه...
- إحنا ليه بنبص للغَني على إنه لازم يكون منحرف، يعني لما يعرض خدماته على زمايله نفسرها تفسيرات فيها نوع من الحقد.

وأثارته الكلمة فاحتد عليها:

- حقد؟ حقد مين على مين؟ هو احسن مني عشان أحقد عليه؟ أنا داخل البكالريوس وأول دفعتي، وهو مفعوص في سنة أولى حا يا خد له سنتين سقوط ويترفد ... لغاية كده ... أنا مش حا أكمل يا نادية. واضح إنك حددتي طريقك وما عندكيش استعداد تتراجعي، أنا بس عايزك تسألي نفسك هي ليه خدمات عصام مقتصرة على البنات، ومافيش ولد واحد بيقعد معاه، أو يركب عربيته. غيري الموضوع أو إقري لك كلمتين، يمكن ينفعوكي... وأنا كمان حا اراجع محاضرات النهاردة.

وانصرف الطرفان كل في شأنه، وطورت نادية الخلاف، فلم تعد تتواصل مع مجدي ورد هو على سلوكها بجفاء أكبر وازدراء أشد، ولم يعد يعيرها اهتماما ما أو يتواصل معها.

وكلما تقدمت الأيام ازدادت غياً وكيداً، واصبحت تتعمد التصرف بطريقة تؤكد تحديها لمجدي وأنها ماضية فيما هي فيه.

صبيحة أول أيام الإمتحان، وفي القطار وفور مغادرته لمحطة المنصورة، لاحظ مجدي جلوس نادية – على غير العادة – على مقعد مواجه لمقعده، وحين تلاقت نظراتهما، لاحظ انكساراً، وربما دمعة تكاد تفر من عينها ... وبعد فترة صمت مع اصطناع الإنشغال بالقراءة تلاقت نظرتهما من جديد فتأكد مما أوحت به إليه النظرة الأولى، ولاحظ أنها لا تمسك كتاباً ولا تشغل نفسها بالمراجعة لما تمتحن فيه بعد ساعتين، فسألها:

- مالك يا نادية. شكلك مش طبيعي؟ وإن كنتي لسة شايفة إني مش من حقي اتدخل في أمورك مش حازعل لو ما ردتيش.
- بالعكس دا أنا متشكرة قوي لسؤالك عني، وقرايتك للي في عيني.
- طيب خير.
- الحقيقة مش خير، وأنا مش حا أكابر وأقول إني ما غلطتش، إنت نصحتني وكنت أمين في نصحيتك وأنا عاندت ودماغي كانت جزمة قديمة. وأنا با اعتذر لك يا مجدي.
- ولا تعتذري ولا حاجة، إنتي أقتنعتي بكلامي، خدي بيه، ويا دار ما دخلك شر.
- لأ الدار دخلها شر يا مجدي.

انتابته حالة من القلق الشديد بدا على ملامحه وعبر عنه في سؤاله:

- قولي يا نادية؟ قلقتيني!
- المفروض ما أقولش الكلام اللي حا قوله لمخلوق، لاكن لو ما قلتوش ممكن انفجر. ومش حلاقي حد مخلص ودماغه كبير وأمين يحافظ على سري قدك يا مجدي.
- سرك في بير ... قولي يا نادية قلقتيني.

بصوت يقارب الهمس، وأسى واضحاً على ملامحها، قربت فمها من أذنه وقالت:

- اختصاراً عشان الوقت اللي باقي على ما نوصل ... علاقتي بعصام اتطورت، وخرجنا مع بعض مرتين بره الكلية، وجه مره وصلني المنصورة بعربيته، على إنه عايز يقرب مني أكتر عشان يجيب أهله، وييجو عشان يخطبني في الأجازة... المهم إنه طلب مني آجي مصر كام يوم، ولما اتقابلنا قال لي بلهجة فيها جدية واستعجال، إنه عامل لي مفاجأة، وإنه عايز يوريني الشقة اللي بيجهزها عشان نتجوز فيها في الزمالك، ورغم ترددي ما اعرفش عمل إيه، زي ما يكون نومني مغناطيسي لقيت نفسي با أروح وياه...

وبعد ما دخلنا الشقة لاحظت إنه بيقفل الباب بالمفتاح... ولما استنكرت تصرفه، قال لي ابداً أنا متعود أعمل كده، خدي المفتاح معاكي.. ولف معايا في الشقة عشان يفرجني عليها ... وعند أوضة النوم لقيت عصام بقى شكل تاني، واتصرف معايا بطريقة حيوانية مش قادرة أوصف أكتر ولا عايزه افتكرها.

- مفهوم ... وبعدين.
- قعدت أسرَّخ وازق فيه وأخربشه، وفجأة لقينا الباب بيتفتح، واتكهرب هوه وزقني وقال لي: "بابا وماما رجعوا"... واتفاجئت بأبوه وأمه قدامي وبيكلموني بطريقة مهينة واتعاملوا معايا على إني واحدة ساقطة، وفتحوا الباب وطردوني مع استعمالهم أسوأ الألفاظ.. وأحط الشتايم، ومع ذلك حمدت ربنا، ونزلت ع السلم جري ما استنيتش الأسانسير.

استمع مجدي إليها حتى فرغت من روايتها، ولم يعلق.. ولم ينطق، لم تسعفه الكلمات، فقد اختلطت في نفسه مشاعر القرف والازدراء، وربما الاحتقار، مع قليل من التعاطف والمواساة، وكثير من الدهشة والاستنكار...

ووصل القطار، وانتقلا إلى الجامعة ليؤديا الامتحان فمضت دقائقه يسيرة مواتية بالنسبة لمجدي، بينما عانت نادية خلالها انعداما للتركيز، وصعوبة في الفهم والاستيعاب، وقصوراً في الإحاطة وبعداً عن الإجابة السديدة... والتقيا بعد الامتحان، وبناءً على طلب نادية أجلا موعد السفر إلى القطار التالي، حيث جمعتهما جلسة طويلة في حديقة الأورمان، على نفس الأريكة التي جمعته قبلاً بناهد أمام نفس حوض الزهور الذي جمع باقة رائعة عديدة الألوان من الورود في موسمها خلال شهر مايو البديع..

بدأت نادية الحديث لتصل من حديثها المر ما انقطع:

- أنا تقريباً ما جاوبتش، مع إني مذاكرة بدرجة مقبولة يعني..
- وليه ما جاوبتيش؟ هي الأسئلة مش مباشرة؟ ولا جت من الأبواب اللي ما ركزتيش فيها ولا إيه؟
- الموضوع اللي حكيتهولك مالي علي حياتي ليل ونهار، مش قادرة أسامح نفسي، ومش عارفة إزاي أنا عملت كده، مع إن المسائل كانت واضحة، وانت كمان حذرتني ونبهتني بطريقة يشوفها الأعمى ويسمعها الأطرش...

- هي الحكاية دي حصلت امتى يا نادية؟
- من عشر أيام بالظبط.
- يعني في فترة المذاكرة المركزة والمراجعة المهمة، إنتي طبعاً غلطانة يا نادية بكل المقاييس وبميت سبب، لكن الحمد لله إنها غلطة ما تسببتش في كارثة، ومش حا أقولك انسيها، بالعكس حا اقولك افتكريها كويس علشان تستفيدي من خطئك، بس ما تخليهاش تملي عليكي حياتك. ركزي في مذاكرتك، واستدعيها بس لما تتعرضي لتجربة مماثلة... ويلاّ بقى نقوم علشان نلحق قطر أربعة ونص، يمكن نذاكر شوية بالليل لمادة بعد بكره، وعايزك تركزي قوي، إنتي ما عندكيش فرصة ثالثة – لوْلا قدر الله – سقطتي السنة دي حا تترفدي، وما تيأسيش عشان عدم توفيقك النهاردة، إنتي ممكن تتنقلي سنة ثانية ومعاكي مادة، ولو عزتي أي حاجة في أي مادة، تحت أمرك.

اعترتها مسحة من الارتياح، ونظرت إليه في خجل واعتذار ومزيج من الندم والأمل:

- مجدي حا يفضل مجدي.. هو السند والمعين، وأوعدك إني استفيد من التجربة دي وأركز في المواد الجاية، ولازم اعتذرلك لأني بعدت عنك واحدة ... واحدة، وما أخدتش بنصيحتك المخلصة، والنتيجة إني كنت حا اضيع. أرجوك يا مجدي ما تتخلاش عني؛ ولا تحاسبني على غلطاتي الكتيرة في حقك، مع إنك ما تستاهلش غير كل خير واحترام وحب.
- طيب كفاية الوقت اللي ضاع ... أسبوعين وحا يبقى عندنا شهور نحكي فيها براحتنا، يللا افتحي كتاب واقري كلمتين وأنا معاكي لو عزتي حاجة...

وولت أيام الإمتحان سراعاً حملت لمجدي بشري سعيدة بالتفوق على كل الآخرين، وحملت لنادية كثيراً من الأمل في اجتياز عام المضيق للانتقال إلى البحر الفسيح بكل رحابته، وكل أمواجه وأنوائه أيضاً ...

وجاءت النتيجة مطابقة للتوقعات، فمجدي أول الدفعة، ما وضعه في صدر قائمة المرشحين للتعيين معيداً بالكلية، ونادية نجحت وانتقلت إلى الثانية وفي جعبتها مادة مبادئ الاقتصاد لتضيف عبئاً على مواد السنة التالية.

لكنها أحست أنها هي التي حققت التفوق، وأنها مشروع معيد بالكلية. أليس مجدي هو المرشح لذلك؟ وما مجدي إلا صنو روحها، ورفيق صباها، وحبيب قلبها، وموضع احترامها وتقديرها!!

هل كانت هذه المشاعر جديدة على جوارحها؟ هل تفجرت مع ما حققه من نجاح فاق كل نجاحاته السابقة؟ هل تسببت نصائحه الصادقة لها – والتي ثبت لها إخلاصها وعقلانيتها – في انطلاقة قوية لمشاعر حبيسة في نفسها؟ ربما كان بعض ذلك، وربما كان ذلك كله، لكن الخطوة الأولى التي قررتها، هي مقاطعة كريمة الممرضة، والجارة التي لطالما شوشت على أحاسيسها، وكالت لها النصائح التى تسببت في تلوث علاقتها بمجدي لسنوات كانت كفيلة بتحقيق السعادة.

انفردت نادية في غرفتها: وأخذت تستعيد الصور؛ كل الصور منذ شرح لها دروس الإعدادية، وتلقت خطابه الأول، مروراً بكل وسوسات شيطانتها، وتعجبت كيف أبقت على صداقتها، وفرطت في حب مجدي. ساءلت نفسها عن سر كل ذلك الحقد الذي أكنته كريمة الممرضة ووالدتها لمجدي، مع أنها لم ترصد لمجدي خطأ في حق أي منهما، بل على عكس ذلك كان كريماً معهما، لطيفاً في تعامله معهما، ولم تجد تفسيراً غير الحقد؛ على مجدي لتفوقه اجتماعياً وعلمياً وثقافياً على كل من شملته عائلتهما، وعليها لأنها حظيت بحب مجدي وكان من الممكن أن تسعد بهذا الحب، على العكس من كل علاقات كريمة المشبوهة والتي ضاع معها شبابها. كيف لم تدرك ذلك مبكراً؟ كيف غابت عنها بديهيات العقد النفسية الواضحة؟ أين كانت فطنتها حين كانت كريمة تسدي لها النصائح المعكوسة للتصرف الفج مع مجدي، الذي أعطى وأجزل العطاء؟

لقد انهمرت دموعها حارة وغزيرة فغسلت أخطاءها، واستبانت الحقيقة جلية أمام ناظريها فعزمت على تعويض مجدي ما فات، وأن تجزل له الحب علَّها تعوض ما حرمته منه، وأن تكفر عن ذنبها تجاهه.

*****

شاطئ المحيــط

تأخرت نادية كثيراً حتى أعادت لها السنون المشاعر الغضة، والروح النقية، والفطرة الطيبة .. لقد باعدت تصرفاتها ما بينها وبين مجدي. صحيح أن الحب في قلبه لم يمت؛ كانت هي الحب الأول، كان نقشاً على حجر، لكن غبار السنين طمس بعض معالمه، لقد شوش حبها على علاقته بناهد التي أحبته رغم تأكدها من حبه لنادية، ورضت لنفسها بمكانة أدنى حين اكتفت بحبها له ولو لم يحبها، عاشت على أمل أن تهجره نادية بشكل نهائي فتكون هي بديلاً جاهزاً يحتل مكانها... تطور احترامها له إلى إعجاب، وأفلت الزمام من يدها فأفاقت على تطور الإعجاب إلى حب شاركت في صنعه، قناعة عقل ومنطق، وخفقات قلب وعاطفة ... وكانت هي بالنسبه له؛ الإنسانة الذكية، الجميلة، المحترمة، لذا احتلت مكاناً في قلبه، لم يستطع تحديد مساحته أو عمقه، لكنه على كل حال كان مزاحماً لمكانة نادية في ذلك القلب.

كما أن نأيها، وفراغ قلبه، جعله يتلقى رسالة سوزان فاتحاً ذراعيه وصدره لاستقبال كل خطوة تخطوها نحوه، كانت إنسانة بكامل المعنى، وكانت خطوتها الأولى في اتجاهه بلسماً شفي جراح قلبه وداوي شكوكه التي ولدتها سلوكيات نادية إزاءه، والتي هوت درجات بثقته في نفسه، ومدى قدرته على تحقيق الندية مع من يحب. لقد كان خطاب سوزان له مباشراً وصريحاً ينضح بالحب والاحترام، لكن المساحة الخالية من قلبه كانت تضيق، فشغلت سوزان حيزاً أقل مما أحب لها أن تشغله... وظل يحاول تحقيق العدالة بالموازنة بين نادية، وناهد، وسوزان، وممارسات شقة عبد القوي، وبالتوازي مع ذلك كل – وربما سبقه بخطوة – تصميم أكيد على التفوق في دراسته. فأنى له بكل هذه الطاقة؟ لقد جرفه ذلك كله إلى الشاطئ الآخر من المحيط، واصبحت الأميال التي تفصله عن نادية كثيرة، بعيدة، ولولا تجذر حبها في قلبه، ما تبقى منه شيء.

لقد استمر تواصله مع نادية في ظل تغيرها، وتدفق مشاعرها، واستمرت لقاءاته مع ناهد، راضياً – بقدر رضائها – عن هذه اللقاءات حتى لو لم تحمل إسماً محدداً، لكنهما كانا صادقين على أية حال. كما كرر لقاءه بسوزان في جروبي، وأكملا من الحديث ما انقطع،

ثم تجولا في وسط المدينة فقطعا شوارعه طولاً وعرضاً؛ سليمان باشا، وفؤاد، وعبد الخالق ثروت وشريف، وعماد الدين وغيرها، ولأول مرة تتأبط هي – أو غيرها – ذراعه. لم تكن أجرأ من غيرها، ولكنها كانت تبعث برسالة، لم تجد وسيلة أخرى لكي تبعث بها، كانت خجولة وعلى قدر كبير من الحياء، فلم تملك التعبير بكلمات، وربما رأت في دفن يدها الرقيقة ما بين صدره وذراعه وسيلة صامتة في التعبير الأقل جرأة، والأقل احتياجاً لحوار قد تجد فيه عنتاً وتعثراً ....

توقفت لقاءات مجدي مع المجموعة، بنيناً وبنات، داخل الكلية، بعد أن تم تعيينه معيداً بها لكن روحه لم تتغير؛ كان يسعد بكل ترتيب يحقق لقاءا مع المجموعة؛ كلها أو بعض أفرادها بأي مكان خارج الكلية...

وفي المنصورة التقى بشلة المراهقة، زملاء الدراسة بالمرحلة الثانوية، والذين استمرت علاقته ببعضهم خلال الدراسة بالجامعة، بينما انقطعت أو تباعدت مع بعض، كان سعيد هو الأقرب والألصق في علاقته خلال دراسته بنفس الجامعة، ورفقة القطار على مدار سنوات، وكان مدحت الأولى بالرعاية كما كان يصفه سعيد، وإن كان تعبيره بعيداً عن الطيبة وصدق النية، فقد كان مقصده – كالعادة – خبيثاً حيث يفسر وصفه بأن مدحت متخلف لذا فهو {الأحوج} للرعاية... وكان عبد الهادي ومحمد عبد الواحد وحسن القباني يمثلون الجوقة، أو البطانة، بتعبير الموسيقيين والمنشدين أو الكومبارس بلغة السينما والمسرح. أما بلغة سعيد فقد كانوا "السنيدة" ويطيب من خواطرهم بأنهم لازمون، في "الطبخة" لا تطيب إلا بالبهارات والملح، بل وبعض من الشطة...

كانت لقاءات مجدي بالمجموعة شبه يومية يستعيدون ذكريات الماضي، ويلعقون شفاههم حفاظاً على ما يعلق بها وبألسنتهم من طعم مستطاب، ويحسبون لأيامهم القادمة فيرونها – رغم تمثيلها لمستقبل يتمنونه واعداً – إلا أنها ستكون أثقل دما ... وأثقل حملاً بمسئولياتها ...

يقول سعيد:

- حا نهزر مع مين (وبينما يوجه نظره قبالة مدحت) ونضحك على مين؟

ويرد مدحت دفاعاً ملؤه المرح والتسامح:

- ليه انت حا تروح فين يا سعيد؟

وتضحك المجموعة حتى يتحدث حسن القباني أو الباشمهندس مع إيقاف التنفيذ كما يلقبونه لأنه الوحيد الذي لم يتخرج ومازال في السنة النهائية من كلية الهندسة ...

- يا جماعة في نظرية عن أي جسم بيتحرك حركة ترددية بتتكلم عن نقطتين؛ النقطة الميتة العليا، وهي بتمثل أقصى ارتفاع اللي عنده تبدأ حركة الجسم في الهبوط، والنقطة الميتة السفلى اللي بتمثل أدنى انخفاض اللي عندها يبدأ الجسم في الارتفاع. إحنا بكل أسف وصلنا للنقطة الميتة العليا بالنسبة لعلاقتنا وتواصلنا، وضحكنا ولهونا ....

ويقاطعه عبد الهادي:

- فهمت حاجة يا مدحت؟
- طبعاً. إن كلكم حا تموتوا يا في النقطة الميتة العليا يا في النقطة الميتة السفلى.

وينطلق سعيد لا يترك فرصة فريدة للتندر على مدحت.

- مش بقول لكم عبقري. لخص لكم النظرية الهندسية بأسلوب حانوتي متشوق...

ويلاحظ صفوت شرود مجدي بينما ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة لا تعبر عن مجريات الحديث وما يحتشد به من دعابات، فيسأله مستغربا:

- إيه يا مجدي؟ وصلت فين؟ خليك معانا.

ويعلق محمد عبد الواحد:

- يا عم هوَّ مش معانا من بداية القعدة، دا هو وصل أكسفورد ولا كمبردج، وخلص مرحلة الماجستير ودخل ع الدكتوراه. هو مجدي بيضيع وقت؟

ويلتقط سعيد طرف الخيط:

- من جهة بيضيع، بيضيع بس هي ماشية معاه. (وموجهاً الحديث لمجدي) أقول لهم على عبد القوي؟ ولا بلاش عبد القوي عشان دي قنبلة. أقول لهم على ناهد ولا سوزان ولا....
- الله يخرب بيتك يا سعيد. إنت ما بتتبلّش في بقك فولة ...

ويعلق مدحت بسرعة:

- يعني صحيح. يخرب بيتك يا سعيد. وكاتم في قلبك ومخبي علينا. قول يا واد عشان القعدة تحلوْ ...

وينتفض مجدي واقفاً بينما أخذ يعدل من وضع ملابسه فيعيد قميصه منتظماً داخل البنطلون وتظهر نيته للإنصراف بما يفسره بعض الرفاق على أنه غضب من حديث سعيد، ويقول له عبد الجواد (بلية):

- إنت زعلت ولا إيه يا مجدي؟ ما انت عارف إن سعيد لسانه فلتان، وما حدش بياخد على كلامه.
- وإيه اللي حا يزعلني يا بلية إحنا كلنا اخوات وأصدقاء العمر، وما فيش بيننا أسرار، ولا حاجة في الدنيا تزعلنا من بعض. أنا بس افتكرت ميعاد مع صابر كنت ناسيه خالص، وصابر راجل ملتزم ودقيق وما أحبش أزعله {ويوجه حديثه لبلية مداعباً}: وبعدين اديهم فرصة يلعبوا بيك شوية يا بلية.

ويضحك الجميع بنقاء، وسعادة حقيقية لا يستشعرونها إلا في لقاءاتهم التي غدت متباعدة في السنوات الأخيرة ويمضي مجدي إلى حيث يستقبله صابر في منزله، مرحباً ومهنئاً في سعادة وحبور:

- أهلا ... أهلا ... أهلا أبو الأمجاد. منور بيتي والمنصورة (متراجعاً) لأ المنصورة دا إيه؟ الجمهورية كلها. مش أول الأوائل؟
- يا راجل بلاش مبالغة ... وتواضع، لما أبقى أول الأوائل يبقى صابر عبد الحكيم مين؟ دا أنت السنة اللى فاتت، عملت ريكورد افتتحت بيه نتيجة بكالريوس الاقتصاد والعلوم السياسية. أنت السَّباق دايماً، ثم بادر مجدي بسؤال صابر خلافاً لما درجا عليه في كل لقاءاتهما:
- هيه يا صابر إيه أخبارك؟ توقعاتك؟. خططك؟.. علاقاتك؟
- الأخبار دايماً عندك يا مجدي، أنا دايماً أخباري روتينية؛ كلها في سكة الدراسة، ملل يعني إنما الأخبار دايماً عندك. علاقات عاطفية.. غراميات، صداقة وشللية. فيها حياة، منحنيات بعضها بسيط، وبعضها خطر، وهي دي الأخبار. مش مطصفى أمين بيقول إن لما كلب يعض راجل دا مش خبر، لكن الخبر هو اللي فيه جديد وخارج عن المألوف؛ يعني راجل عض كلب ... إحكي بقى يا مجدي عن الرجالة اللي إنت شفتهم بيعضوا كلاب.

- كالعادة يا صابر. الجديد في حياتي ما بقاش مثير. يعني الراجل اللي بيعض كلب بقى مشهد يومي، والكلاب تقريباً بطلت تعض رجالة...

باندهاش واستثارة واعتدال في جلسته ليكون أكثر راحة وأعمق تركيزاً قال صابر:

- لا. دا انت النهاردة في جعبتك كتير يتناسب طردياً مع انتقالك من وضع الطالب إلى عضو هيئة التدريس.
- أنا حاسس إني انتقلت من شاطئ المحيط للشاطئ الثاني. شوف انت الفرق كام ميل. كل اللي فات من عمري، لغاية امبارح بقى بعيد جداً عني. أقسم لك يا صابر إني مش متبرأ من حاجة منه، ولا باتمنى أنسى حاجة منه. كل شيء عملته، كنت مخلص فيه، كل لحظة عشتها، أنا سعيد بيها، حتى الغلطات أنا مش حاسس بمسئولية عنها. لكن فرضتها الظروف. والحمد لله، إن النتايج عمرها ما خذلتني حتى السنة اللي سقطت فيها كانت بتخطيط مني، ولهدف أنا اللي محدده... (وتوقف لحظة ثم تابع الحديث بسؤال وجهه لصابر) بالمناسبة إحكي لي تجربتك مع العمل كمعيد في الكلية عشان آخد القرار الصحيح لنفسي.
- إنت عارف إن العميد كان بيرعاني من بداية سنة ثالثة، لدرجة إنه أخدني معاه في وفد رسمي كان مسافر غانا، ودي كانت تجربة مثيرة بالنسبة لي. وبعد تخرجي السنة اللي فاتت بلغني العميد أنه حا يعرض على مجلس الكلية تعييني معيد كأول للدفعة بالكامل مش بس قسم الاقتصاد... ومع بداية السنة الدراسية استلمت عملي، وكانت تجربة جديدة ومفيدة، وأنا دلوقتي باكمِّل بعض الأوراق، وشوية إجراءات علشان أسافر أمريكا أدرس مرحلة الماجستير، والله المستعان....
- إنت بتقول لي خبر زي ده بالصدفة يا صابر؟ يعني لو ماكنتش سألتك كان ممكن أتفاجئ إنك سافرت؟
- معقول يا مجدي، طبعاً كنت حا أقولك، ولو ماكنتش إنت جيت كنت حا اروح لك عشان نتكلم...
- أنا لسة مش عارف حا يعملوا معايا إيه، لكن تحت أي ظرف، لازم نتواصل يا صابر..

- بكل تأكيد يا مجدي. صداقة سنين، وقربنا وإخلاصنا مش ممكن تضعفها المسافات، وإذا كنت انت بتقول إنك بقيت على الشاطئ التاني من المحيط، فأنايا سيدي حا اعدي لك عما قريب بس يا ريت ما تعديش إنت تاني، وترجع عشان تدرس في أوروبا...

وانتهى لقاء الصديقين بابتسامة هادئة وسعيدة، وعناق طويل بافتراض أن الفراق بعد ساعة رغم اتفاقهما على التواصل حتى ساعة سفر صابر التي أصر مجدي على مرافقته إياه حتى باب الطائرة.

*****

بين لندن والجيـزة

لم يكن تأقلم مجدي مع ظروف الحياة في لندن بالشيء اليسير... كان الجو بارداً معظم شهور السنة، وبارداً جداً في بقيتها، وكان حساساً بشدة للبرد. لم يكن له رفاق أو أصدقاء في الدراسة وكان قبل شغوفاً بجلسات الأصدقاء والزملاء في كافتيريا الكلية بجامعة القاهرة... كان وحيداً في السكن بعد أن قضى عمره مؤتنساً؛ بالعائلة في المنصورة، أو عائلة عمه في العام الذي قضاه بالقاهرة. كان ما يخفف عنه آلام الغربة شيئاان مما أحب؛ المطر بشكل شبه يومي، وقد أحب المطر في المنصورة واعتاد الوقوف من خلف زجاج النافذة يرقب هطوله، وهكذا فعل في كثير من الأيام التي لم يكن فيها مضطراً لمغادرة السكن في لندن، وأحب الكتب واستمتع بقراءتها باللغة الإنجليزية التي عشقها.

كما تفوق مجدي في الدراسة في المرحلتين الثانوية والجامعية، كانت الدراسات العليا مجالاً أرحب لتفوقه، فلم يشغله شاغل غيرها، حتى الخطابات التي اعتاد على كتابة القليل منها خلال الشهور الأولى تناقصت حتى توقفت باستثناء خطاب واحد شهري لوالده مقابل خطابين أو ثلاثة بتسلمها منه ..

ونجح في الحصول على درجة الماجستير بامتياز مع مرتبة الشرف، مما دفع الجامعة للموافقة على مواصلة الدراسة في نفس الجامعة للحصول على الدكتوراة التي حصل عليها بنفس التقدير قبل انتهاء السنة الرابعة من وجوده في لندن، وعاد إلى القاهرة مدرساً بكلية الآداب قبل أن يبلغ السابعة والعشرين ..

كان أصدقاؤه وزملاؤه قد تخرجوا من الكلية واتجه كل منهم إلى الوجهة التي أتيحت له، في المكان الذي رتبته المقادير، وكان والده قد نقل مجال عمله إلى القاهرة بالقرب من شقيقه، وانتظاراً لعودة مجدي حيث يوفر له بيت الأسرة بصفة مؤقتة حتى يتزوج...

وأحس مجدي رغبةً حرَّكته للسفر إلى المنصورة. هو اعتقد في البداية أن شوقه للقاء أصدقاء مطلع الشباب هو الذي دفعه إليها، ولكن – وخلال رحلته في القطار فكر في خط السير الذي يتحرك من خلاله، وفوجيء بأنه يحدد سيره من محطة القطار إلى مسكنه الذي أخلته أسرته منذ شهور وحيث جاور مسكن نادية. كان ذلك شوقاً للماضي كله منذ الطفولة

وحتى مفارقته لمصر كلها إلى لندن ولكن خطأً واضحاً هو الذي حدد صورة ذلك الماضي، كانت نادية بانعكاسات ضوء القمر على صحفة وجهها الجميل وهي واقفة خلف شباك المطبخ في قبالة شباكه عبر المنور في ساعات مختلفة من الليل وخاصة قرب نهايته، وكانت نادية وهي تسبقه في الطريق إلى حيث تتوافر لهما خلوة مستترة يلتقيان فيها بعيداً عن العيون، وكانت نادية التي تسطر عواطفه لها الخطابات مرة يبثها فيها حبه ومرة يعاتبها على تصرف لم يكن يتوقعه منها، ومرة أخرى يعدها بالمستقبل الجميل. هل مرت كل تلك الأعوام بكل أحداثها الجسام على ذلك الحب، ومازال صامداً؟ الإجابة تشوبها أدوات نفي أو إنكار ولكنها أيضاً تؤكد أن ذلك الحب لم يُمحَ، ولم يفقد كل سيطرته على ذلك القلب. هو لا يعرف مسمىً لحالته، ولم يحدد إطاراً لعلاقتهما لكنه كان متأكداً من أن التواصل لأربعة سنوات يمكن أن يستمر قائماً لأربعين سنة، أليست سنوات البعاد الأولى هي أقساها؟! وإذا كان القلب في حالة التعادل ما بين الإقدام والإحجام، ألا يرجح العقل النأي عن ذلك الغموض الذي لا أمل في إنجلائه.

غادر القطار قبل أن يحسم أمره، ووجد نفسه أمام منزل الذكريات، وأمام الباب فوجئ بحسن؛ جاره في المسكن الذي يعلو مسكنه والذي رحب به بحفاوة:

- أهلاً يا أستاذ مجدي. إحنا سمعنا إنك سافرت لندن تكمل الدراسة.
- فعلاً، أنا لسة راجع من كام يوم. وانت أخبارك إيه يا حسن؟ وصلت فين في الدراسة؟
- أنا في الثانوية العامة. {واستطرد محولاً الحديث} إحنا حا نتكلم في الشارع؟ اتفضل يا أستاذ مجدي أنا بابا وماما فوق. تعالى سلم عليهم واشرب الشاي معانا.
- معلش يا حسن. سلم لي عليهم عشان أنا مستعجل وزيارتي للمنصورة كام ساعة عايز أقابل فيها اصدقائي. إنت بقى بالنيابة عني سلم لي على باقي السكان؛ الأستاذ إبراهيم والحاج محمد العراقي وكريمة اللي في السطوح وعيلتها ...
- يوصل. حا أبلغ الحاج محمد. بس الأستاذ/ إبراهيم عزل من البيت وماحدش يعرف راحوا فين، حتى في المنصورة ولا انتقلوا بلد تانية، وعلى فكرة كريمة الممرضة اتوفت فجأة من ست اشهر.
- معلش. بلغ كل اللي تشوفه سلامي، وانا حاجي قريب أشوف الكل وأعزي عيلة كريمة.

- دا هما كمان عزلوا من شهرين.

سلم مجدي على حسن، واتجه إلى بيت سعيد، وأقنع نفسه أن القدر ربما أراد أن يعينه على القرار. لقد انتقلت نادية بل واختفى أثرها مع أسرتها، فليعتبر تلك الحقيقة هي النهاية التي فرضتها الظروف، لقد قرر بشكل مفاجئ أن يتزوج، وأن يعطي لزوجته حياته، وأن يوقف عليها حبه، فقط عليه أن يحسن الاختيار. ولكن كيف يختار؟

وصل إلى بيت سعيد قبل أن يصل إلى إجابة... رحبت به والدته، وأخبرته أنه غادر منذ لحظات إلى مدحت، فشكرها وتبعه إلى هناك حيث رحبا به أيما ترحيب بعد سنوات من الشوق وانقطاع التواصل، وبادأه مدحت بالعتاب:

- هي لندن تنسِّى الناس أصحابها؟ طب جواب واحد ... واحد يا راجل يا هربنجي.
- والله كنت مشغول جداً طول الوقت، حتى كان بيوصلني خطابين من والدي أرد بجواب واحد. طيب وانتم ما انتوقاعدين تعبُّو الشمس ف قزايز، ما بعتوش انتو جواب ليه؟

ورد سعيد ساخراً:

- ما شاء الله. البرد لحس مخك، ولا بركات مدحت حلت عليك. كنا حانضرب الودع عشان نعرف عنوانك؟!

ووجدها مدحت فرصة سانحة لكي يسخر هو أيضاً:

- لأ احنا بنتلكك يا سعيد ما حنا عارفين انه في لندن. يعني حاتكتب ع الظرف: الصديق مجدي بلندن. كل بسطجية لندن حا يتسابقوا عشان يوصلو له الجواب.

وعلق مجدي في هدوء:

- كبرت يا مدحت وبقيت تتريق انت كمان.

ومضى حديث الماضي الشيق بين ثلاثتهم حتى خرج مدحت من الغرفة ثم عاد بعد دقائق:

- يا للا يا جماعة الحاجة عملت لنا لقمة خفيفة، عشا أريافي فضلة خيركم لسة واصلنا من البلد. واعتذر مجدي متعللاً بموعد القطار الذي أزف لكنه فوجئ بوالدة مدحت لدى الباب:

- إيه يا دكتور مجدي؟ هو انت غريب؟ دا بيتك ومدحت أخوك. ما تزَّعلوش وتعالى انت وسعيد كلوا لقمة معاه، والقُطُرات ورا بعضها، يفوتك واحد تلحق اللي وراه...

واجتمع الثلاثة على مائدة الطعام ثم استأذن مجدي في الانصراف فرافقه مدحت وسعيد إلى محطة القطار وانتظرا معه حتى وصل القطار، وودعاه على أمل لقاء قريب...

*****

دورة زمن

في أول أيام الدراسة، وفي المدرج الذي استقبل المستجدين من طلبة السنة الأولى، قسم اللغة الإنجليزية، دخل الدكتور مجدي وخصص النصف الأول من المحاضرة لاستقبال الطلبة، وإزالة الرهبة من قلوبهم، ومصاحبتهم للتعرف على المواد التي يدرسونها برفق، حتى وصل إلى مادة النقد التي يدرسها هو لهم، فقال لهم:

- النقد مادة سهلة وألطف بكتير مما بيتصور كتير منكم، النقد مادة منطقية ومرتبطة بالفطرة، لأنها بتتعامل مع الأدب اللي بيصور الحياة، والشائع أن النقد يبرز عيوب العمل الأدبي، ودا طبعاً غلط لأن إبراز العيوب فقط يعتبر هدم، لكن النقد يبرز المزايا ومواضع الجمال في العمل زي ما بيلقى الضوء على العيوب ومواضع القبح. حاندرس قواعد لهذا الأداء، وإزاي نقيم العمل بموضوعية بعيداً عن فكرتنا عن مبدع العمل، اللي ممكن نلقي عليه الضوء فقط علشان نعايش الظروف والحالة اللي تم من خلالها إبداع العمل...

أنا النهاردة بس حا اتكلم بالعربي باعتباركم ضيوف، لكن من المحاضرة الجاية إنتم طلبة في قسم لغة إنجليزية، يعني لازم كل واحد منكم يبقى عنده القدرة على التعبير عن نفسه باللغة الإنجليزية، يمكن تتردد، وتخونك ذاكرتك في استخدام بعض الكلمات، يمكن تغلط وتستخدم تعبير خاطئ، يمكن يكون الموضوع اللي بتتكلم فيه أو تتسئل عنه جديد على سمعك وبالتالي فمفرداته مجهولة بالنسبة لك، كل دا مش عيب. حا نتعلم من بعضنا، ونخصص وقت في كل محاضرة نكلف بعضكم بنقد علمي للي حا يقوله البعض الآخر...

ورفعت طالبة رقيقة يدها وسألت بصوت خجول وخفيض:

- ممكن اسأل سؤال يا دكتور؟

نظر إليها الدكتور مجدي بتمعن وتفحص لملامحها بينما أشار إليها بيده مشجعاً:

- أكيد اتفضلي.
- إحنا ممكن نجيب معانا القاموس، ونستعين بيه عند اللزوم؟

- طبعاً، القاموس هو رفيقك في كل المحاضرات، بس حا يكون قاموس إنجليزي/ إنجليزي... عشان تستفيدي مرادفات جديدة أو شرح للمعنى، إضافة لمعرفة الصفة والحال....

وقبل أن تجلس الطالبة، استكمل حديثه فاضاف:

- بعد المحاضرة، أشوفك خارج المدرج علشان أنا كمان عندي سؤال (ووجه حديثه لكل الطلبة الحاضرين) وأي طالب أو طالبة عنده سؤال في المادة أو حتى في العموم مكتبي مفتوح. أي سؤال تاني؟ ... طيب نبقى كدة خلصنا محاضرة النهاردة.

خارج المدرج، وفي قلق وتوجس تقدمت الطالبة صاحبة السؤال الوحيد إلى الدكتور مجدي بينما تراقبها عيون كثيرة، وتسترق كثيرات من زميلاتها السمع في محاولة لمعرفة ما الذي يمكن أن يدور بين أستاذ وطالبة لمجرد أنها وجهت إليه سؤالاً.

سألها:

- إنتي اسمك إيه؟

أجابت:

- اسمي نهال صبحي.
- إنتي ليكي أخت أكبر منك بسبع .. تمن سنين؟

باستغراب ودهشة:

- أيوه يا دكتور.
- كانت طالبة هنا في كلية الآداب؟

بمزيد من الدهشة:

- أيوه يا دكتور.
- إسمها إيه؟
- إسمها ناهد؟
- إتجوزت؟
- لأ لسة.
- مخطوبة؟

- لأ فيه حد اتقدم لها بس هي رفضته.

ابتسم الدكتور مجدي وبدت على وجهه علامات الارتياح:

- طيب قولي لها الدكتور مجدي بيسلم عليكي، وعايز يشوفك في الكلية...

في المنزل التقت نهال بشقيقتها ناهد في حجرتها وقالت لها بسعادة فيما يشبه الهمس:

- إنتي تعرفي واحد اسمه الدكتور مجدي؟
- دا طبيب، ولا مدرس في الجامعة؟
- دا مدرس في الكلية وبيديني مادة النقد.
- الدكتور مجدي الصيرفي؟
- أيوه هوه، تبقي تعرفيه؟
- وإنتي إيه عرفك إني ممكن أعرفه؟
- دا هو اللي لاحظ الشبه بيني وبينك وقعد يسألني بعد المحاضرة كام سؤال لغاية ما عرف إني أختك وطلب مني أبلغك إنه عايز يشوفك في الجامعة.

بسعادة بادية، ولهفة غير خافية:

- متشكرة أوي يا نهال ... دا صديقي وزميلي وحا أورح بكره أقابله إن شاء الله.

****

ليلة فاصلة

كاد ألا يعرفها حين دخلت عليه في المكتب قبل بداية المحاضرات ... أنثى ناضجة، تفيض حيوية، وتمتلئ إشراقاً. لم تحمل حقيبة للكتب، وإنما حقيبة يد حريمي، وكسى وجهها قليل من المكياج، وأضفى الحذاء ذو الكعب العالي، والتايير الكحلي الأنيق مع وقاره، أنوثة إضافية. لكن ابتسامتها، وبساطتها لم تتغير. مازالت الروح المميزة لناهد هي نفس الروح النقية الصافية. ألقت تحية الصباح بشيء من الجدية المتحفظة، ربما لتناسب المكانة الجديدة لمجدي، وربما لوجود زميل له في المكتب بما استوجب ذلك التحفظ، لكن مجدي هب واقفاً بينما رد لها التحية بأحسن منها ورحب بها بما يتناسب مع مكانتها في نفسه؟

- صباح الخيرات... أهلاً وسهلاً يا ناهد، (والتف حول مكتبه فانتقل من خلفه إلى أمامه، وسحب كرسياً وأشار لها) اتفضلي. أهلاً وسهلاً.
- مش عايزة أعطلك يا دكتور.
- لا ما فيش عطلة، أنا ما عنديش المحاضرة الأولى. أنا جيت بدري من قبيل الاعتياد. وقلت أراجع بعض النقط في المحاضرة اللي ح ألقيها بعد كدة ...

وقبل تقديمها للدكتور الزميل وعمل التعارف، استأذن الدكتور قائلاً:

- استأذن أنا عشان ميعاد محاضرتي {واتجه إلى ناهد قائلاً} فرصة سعيدة ... ثم انصرف.

وخلا المكتب عليهما؛ مجدي، المدرس بالكلية، وناهد الخريجة والصديقة العزيزة والتي لم يتوقع كل هذا الشوق للقائها، وكل تلك السعادة بهذا اللقاء:

- واحشاني كتير قوي يا ناهد.
- مش أكتر مني. أنا مش عارفة إزاي قلبك سمح لك تسقط مننا أربع سنين؛ ثمانية واربعين شهر يا قاسي؟
- والله يا ناهد أنا حطيت نفسي في قوقعة، وعزلت نفسي عن العالم عشان أحقق الهدف اللي أنا سافرت عشانه. وكانت المسألة قاسية جداً في الأول، بس بدأت اتعود على العزلة دي. وعدت السنين والحمد لله...
- يعني العزلة دي كانت عن الكل؟

- بكل تأكيد. الوحيد اللي كنت با ابعت له جواب كل شهر والدي، كنت باطلب منه يسلم على والدتي وأخويا ويطمني على أخبارهم في كام سطر مختصرين...
- يعني حتى ما كنتش بتبعت لنادية؟

أكد له سؤالها غيرة الأنثى فأجابها في رضا:

- ولا نادية. أنا ما أعرفش حتى حاجة عنها لغاية دلوقتي غير إنها انتقلت مع عيلتها من الشقة اللي كانت جنبنا قبل والدي ووالدتي ما ينتقلوا القاهرة هما كمان، وصاحبتها الممرضة توفت – يعني كل الخطوط انقطعت، ومن قبل ما اسافر البعثة لغاية النهاردة ما اعرفش أي حاجة عن نادية؛ اتخرجت ولا لأ؟ اتجوزت ولا لأ؟ ما فيش... ما فيش أي معلومة.
- وأنا. لو ماكانتش نهال أختي بالصدفة شكلي خالص، وبالصدفة في سنة أولى وحاضرة لأول محاضرة دخلْتها ما كنتش حا تفتكرني أو تتصل بي ...
- إزاي وأنا عارف عنوان بيتك، إلا إذا كنتم عزلتم إنتو كمان.
- لا ما عزلناش، والوضع عندنا زي ما هو ... التغييرين اللي حصلوا، أنا سبت الجامعة بعد ما اتخرجت، ونهال دخلت الجامعة بعد ما أخدت الثانوية العامة...
- طيب قبل ما حد يدخل علينا، أنا عايز أشوفك بره الكلية.
- في الأورمان؟
- لأ كبرنا بقى على الأورمان، نتقابل في جروبي بعد بكرة الساعة ستة إذا كان يناسبك.
- يناسبني جدا... (وتململت في جلستها) وأقوم أنا عشان تشوف شغلك.
- لأ أنا مش بانهي المقابلة. أنا حبيت اتفق معاكي على ميعاد بره قبل ما حد يدخل. لكن قدامي ساعة كاملة على ما ادخل المدرج. وعلى فكرة أنا سمحت لنفسي أواعدك من غير ما اسألك إن كنتي اتجوزتي ولا لأ ولأنك جاوبتيني على السؤال قبل ما اسألك لما قلتي لي إن الوضع عندكم زي ما هو والتغيير اللي حصل هو تخرجك، ولو كنتي اتجوزتي أكيد كنتي حا تقولي.
- طول عمرك تفهمها وهي طايرة، وبتقرا السطور واللي بين السطور يا دكتور.

- إيه دكتور دي بقي؟ أنا اسمي مجدي يا ناهد، وحا افضل بالنسبة لك مجدي، وعلى فكرة لو تحبي تحضري المحاضرة معايا، أنا عندي سنة تانية...
- خللينا بعيد، ونتقابل بره أحسن، وملاحظة ذكية اللي انت قلتها لي دي إن المحاضرة لسنة تانية عشان اطمن إن نهال مش حا تلاحظ حاجة، بس أطمنك أنا ونهال ... رغم الفرق الكبير في السن – أصدقاء وما بنخبيش على بعض حاجة. يعني لو لأي ظرف حصل حبيت تقول لي حاجة يبقى ممكن تقولها لنهال توصلها لي (ثم ضحكت بخبث وأضافت) وعلى فكره هي قالت لي إنك سألتها أنا اتجوزت ولا لأ. ثم انصرفت، مستقرة النفس، قريرة العين، للقاء مجدي، ولاختفاء نادية وشعورها بعدم لهفته عليها، أو حزنه لفقدها. وحين اقترب موعد لقاء ناهد معه، بالغت في تأنقها وجلست ساعات بين يدي الكوافير تبدي له الملاحظة تلو الأخرى حتى بدت فتنة لمن يراها وتمنت أن تكون كذلك في نظر مجدي الذي بهره جمالها وسحرته فتنتها فبادرها لحظة اللقاء:
- الحمد لله إن فينوس مش من مصر.
- إشمعنى؟
- كانت حا تنتحر بسبب الغيرة، واحنا كفاية علينا انتحار كليوباترا.
- إيه المبالغة دي يا مجدي؟ دي حاجة جديدة عليك.
- أنا مش با أبالغ. أنا با أقول اللي أنا شايفه.
- طيب عرفني أخبارك، وأفكارك للمستقبل، وكل اللي يخصك وتسمح لي أعرفه.
- أولاً. إنتي من حقك تعرفي كل اللي يخصني، ثانياً. أنا الحمد لله زي ما عرفتي حصلت على الدكتوراه بامتياز مع مرتبة الشرف، واتعينت مدرس في الكلية اللي حبيتها وادتني كتير قوي، ثالثا. بداية أفكاري للمستقبل كنت مشغول بيها لغاية نص ساعة فاتت.
- ويا ترى إيه اللي كان شاغلك؟ ويا ترى ليه خلاص ما بقاش شاغلك؟
- الجواز يا نهاد، أنا كنت بأدور على عروسة.
- هايل. ويا ترى لقيتها في النصف ساعة ده.

نظر في ساعته في معصمه ودقق النظر ثم قال لها وقد نقل نظره يرقب رد الفعل على ملامحها:

- بالضبط ... من ستة وعشرين دقيقة.....

تخضب وجهها، وانتابها خليط من مشاعر القلق والفضول، والرهبة والعجلة وقالت باستغراب:

- ياه. دي إيه الدقة دي. بس انت في التوقيت ده كنت معايا. ودي تقريباً لحظة مقابلتنا.
- هو كده ... وهي دي اللحظة، تتجوزيني يا ناهد؟

****

محاسن الصـــــدف

رغم كل المودة التي جمعت بينهما ... رغم كل التوافق الذي شهدته حياتهما، ورغم السنين التي مرت على الصراحة والنقاء والاحترام، إلا أن عرض الزواج لم يكن من بين ما تتوقع أن تتلقاه، أو على الأقل بهذه السرعة وبهذه الطريقة. كانت تعيش لهذه اللحظة، ولكنها لم تتوقع اليسر الذي حدثت به، كانت على دراية كاملة بتشابك العلاقات في قلب مجدي ... وكانت أكثر من يعلم بتجذر حب نادية في ذلك القلب، وكانت تعرف أن له بعض الميل لأخرى أو أخريات. ذلك ما كانت تعلمه قبل سفره، فماذا عن سنوات حياته في لندن، وماذا عساه أن يكون قد حدث؟ بمن التقى؟ من أعجبته؟ ومن تكون قد أحب؟

جاء العرض – رغم التمني، وربما التخطيط طويل المدى – كحجر ألقي على سطح بحيرة ساكن، فحركه كله من الشاطئ القريب حتى الشاطي البعيد، الفرق أن حركة سطح البحيرة هادئة وبطيئة؛ دوائر تتسع ويزداد اتساعها بانتظام، لكن مشاعرها كانت مدوية، ومضطربة وغير مُسيطر عليها؛ ارتفاع في دقات القلب، إحمرار شديد في الخدود أقل قليلاً في باقي قسمات الوجه، ورعشة خفيفة في اليد جعلتها تضع فنجان الشاي على المائدة حتى لا تفضحها حركة الشاي في الفنجان التي فاضت بالفعل على جانبيه، وتجمعت في الطبق أسفله... تمالكت نفسها، وبلعت ريقها، وقالت كلمة واحدة في سؤال:

- حا تتجوزني؟
- لو موافقة أبقى أسعد واحد يا ناهد. إنتي نموذج للإنسانة الطيبة، النقية، اللي توهب حياتها للي تحبه، وتضحي بسعادتها معاه لو شافت سعادته مع غيرها. دا إيثار نادر، وصعب على النفس البشرية... وأنا شايف ده وأكتر منه كتير من بداية صداقتنا، اللي اتطورت بعقلانية، وموضوعية للي إحنا فيه النهاردة.
- إنت فاجئتني مفاجأة عمري يا مجدي. أرجوك اديني شوية وقت استوعب فيه اللي إنت قلته.
- خدي وقت يا ناهد، وفكري، واستشيري. دا قرار بيتاخد مرة واحدة في العمر... وما ينفعش الموافقة تحت إحراج أو مجاملة و ....

واستوقفته بوضع أناملها على شفتيه:

- حاسب يا مجدي إنت رحت فين ... معقول أنا عايزة وقت أفكر في عرض الجواز؟ دانا أبقى مجنونة. أنا عايزة وقت أتوازن فيه وأتمالك نفسي عشان أعرف اتكلم، ونكمل أحلى حوار با انتظره من تمن سنين من غير ما يكون لي أمل في تحقيقه، فلما ترمى الكلمة في ثانية لازم أدوخ واتلخبط، واحتاج وقت عشان أرجع لطبيعيتي... إن رجعت.

ضحك مجدي ملء فيه، ورغم توقعه بموافقتها، إلا أن الموافقة حين جاءت على لسانها كانت تجسيداً لواقع جميل، وتحويلاً للفكرة إلى حقيقة. اكتمل الإيجاب والقبول، ولم تتبقى سوى الشكليات الإجتماعية، فليبدآها على الفور:

- ممكن تحددي لي ميعاد مع بابا عشان آجي أطلبك منه يا ناهد؟
- دا انت بتتكلم جد بقى، ومستعجل كمان؟
- هي دي فيها هزار؟ وإيه اللي يخلينا ننتظر؟ حا تردي عليَّ إمتى؟
- النهاردة بالليل أو بكره الصبح بالكتير.
- طيب أنا حا اتصل بيكي بكرة الصبح، علشان أنا ما عنديش تليفون، مش لسه رقم تليفونكم زي ما هو ولا اتغير؟
- لأ زي ما هو يا حبيبي. في انتظارك.

جاءت الكلمة تلقائية منها، لكنها لم تمر بتلقائية أو مرت على سمعه وسط كلمات أخرى فكانت شبيهة لها فعلق عليها:

- الله. حلوة كلمة حبيبي يا حبيبتي... ياريت اسمعها ألف مرة.
- ربنا يدينا العمر وحاتسمعها لآخر عمري إن شاء الله ... ويهيألي نقوم وياريت ناخدها مشي في الجو المنعش ده.

نادى على "المتر" فدفع الحساب، مع البقشيش المجزي، واستدار متوجهاً لباب الخروج، فوقفت وأمسكت بحقيبة يدها، بينما تأبطت ذراعه بيدها الأخرى، وخرجا حيث أكملا شارع قصر النيل وعبرا ميدان التحرير إلى كوبري التحرير، فتمهلا بالسير، واجترا ذكريات الدراسة والشلة والكافتيريا، ثم سارا على رصيف أرض المعارض والقبة السماوية، وعلى يسارهما حديقة الحرية ونادي القاهرة ثم عبرا كوبري الجلاء واستدارا يمينا إلى شارع النيل

بهدوئه وأشجاره العتيقة، والعائمات الراسيات في ذلك الفرع الخلاب من النيل، وكان القمر بدراً فانعكس ضوؤه على صفحته فأحالها إلى شريط ممتد من الفضة السائلة، يحركها من الحين للحين اندفاع قارب من قوارب التجريف كالسهم المارق يشق سطح الماء، ومع هذه الصورة، وفي ظل ذلك السحر امتد الحديث إلى أمور شتى، وموضوعات عديدة، دون ترتيب، ودون ارتباط بين أي منها والأخرى.

ولم يحسبا ما مر من الوقت حتى وصلت إلى باب منزلها فاستودعها الله مؤكداً على ما اتفقا عليه من مفاتحة الوالد، واتصاله بها في الصباح التالي لتلقى الرأي ... ومضى إلى بيته فقد كانت أمامه مهمة يسيرة في الحديث مع والديه، باستثناء ملاحظة عابرة توقع إبداء والده لها .. وبالفعل حين طرح الأمر، سعد والديه أيما سعادة، وأبدى والده ملاحظة:

- كده يعني إنت صرفت النظر نهائياً عن موضوع سُمية بنت عمك؟

وضحك مجدي ملء شدقيه:

- إنت لسة فاكر الموضوع دا يا بابا؟ أنا رسالتي كانت واضحة جداً لما سبت البيت عند عمي، وحتى خلال السنة اللي قعدتها معاهم... وهما تلقوا الرسالة وفهموها كويس ورد فعلهم ما كانش فيه تشنج...
- كلامك صحيح يا مجدي، بس كل المدة إللي فاتت كوم، ولما نيجي نبلغهم إنك حا تتجوز كوم تاني، لأن الأمل بيستمر طول ما الأمور مفتوحة والاحتمالات موجودة خصوصاً إن سُمية لحد دلوقتي ما اتجوزتش، يا ترى النصيب، ولا هما كانوا متعلقين بأمل إنت حا تقطعه دلوقت؟
- عموماً يا بابا أنا وسُمية نُعتبر ضحايا للأفكار اللي كانت موجودة واحنا صغيرين، وعشان نصحح الأفكار دي ونخلي الناس تبطل تحاول رسم الغيب على كيفهم لازم حد يتحمل معاناة وللأسف إنها في حالتنا سُمية الطيبة الوديعة.
- الله المستعان يا ابني، وانا حازور عمك وأعمل مقدمة للموضوع، وربنا يسهل.

في هذه اللحظة، وقبل أن يرد مجدي، دق جرس الباب، وحين فتحت الأم، أعلنت بصوت مرتفع عبر عن المفاجأة:

- أخوك الحاج رحاب يا حاج.

فانتفض ومعه مجدي لاستقبال الضيف الذي كأنما استمع لما كانوا يتحدثون به واستقبلاه عند الباب بالترحاب اللازم، وقال الحاج محمد لشقيقة:

- أهلاً يا رحاب. والله في سيرتك يا أخي بقالنا نص ساعة.
- يارب يكون خير!
- وهي سيرتك تيجي غير بالخير؟
- تعيش يا محمد. أنا بس عاتب على الدكتور اللي من ساعة ما رجع من لندن ما جاش يسلم علينا...

ورد مجدي بصوت خجول ملؤه الاعتذار:

- معلش يا عمي. أنا آسف جداً ... ومهما حا أقول مش حا أقدر أبرر عدم الزيارة، بس عشمي في السماح وتقدير المشاغل وإنت سيد مين يقدر ويعذر يا عمي وإن شاء الله حا أزوركم عما قريب.
- شوف يا مجدي إنت ما جيتش تزورنا، لكن حا تيجي تزورنا مش عما قريب، لكن بالتحديد يوم الخميس الجاي عشان تحضر معانا وعلى راسنا عميد العيلة الحاج محمد – قراية فاتحة أختك سُمية.

كانت دعوته مرطباً لحرارة الحرج، ومحاولة التخريج في إبلاغ العم نبأ زواج مجدي، لقد أراح الإبن والوالد، وأسقط عقدة الذنب. وفك طلسم المسئولية المعلقة في الرقاب، فانطلق صوت الأب والأم والإبن بفرح وارتياح في لحظة متزامنة:

- ألف ألف مبروك....

وامتدت الجلسة في سعادة استشعرها الطرفان، كل لأسبابه، حتى استأذن العم رحاب فودعوه بحبور، واستكملوا ما كانوا قد بدأوا في الحديث بشأنه، بارتياح أكبر، فقال الأب:

- يا سلام على حكمة ربنا ورحمته. حد كان يتصور إن الحل ييجي لحد عندنا في نفس اللحظة اللي فكرنا فيها نتصرف إزاي؟ الحمد لله ... ودلوقت يا مجدي نتكلم براحتنا، ونتفق على اللي إنت عايزة...

وعرض مجدي ما قرره بشأن زواجه من ناهد واقترح أن يزوروا أسرتها يوم الخميس التالي لقراءة فاتحة سُمية، لطلب يدها والاتفاق على التفاصيل... وحين قام الأب ليصلي

ركعتي شكر لله على توفيقه، وتدبيره المحكم وانفردت الأم بمجدي، سألته سؤالاً لم يخلُ من خبث:

- إنت قلت ناهد ولا نادية يا مجدي؟
- قلت ناهد يا ماما... ناهدْ.
- ولو إني لسة ما عرفتهاش يا إبني، بس خيراً ما فعلت... ويمكن اللي ما تعرفوش يطلع أحسن من اللي تعرفه.
- ماما ! أنا عارف إنك ذكية، وتفهميها وهي طايرة بس خللينا في اللي بنقوله: ناهد يا ماما..

ضحكا وتبادلا التحية تمهيداً للانصراف للنوم، وفي غرفته سرح مجدي بخياله، فغاص في الماضي يستعرضه، وانطلق إلى المستقبل يستقرؤه ويدعو الله ويطلب منه التوفيق حتى غلبه النعاس.

*****

أيـــــام

جلسا يسجلان أسماء الأهل والأصدقاء الذين يرغبون في دعوتهم لحضور الزفاف، ولتسهيل المهمة قررا حصر المدعوين في مجموعات؛ مجموعة الزملاء على فترة الدراسة بالجامعة، جيران الطرفين، أصدقاء الوالدين لكل طرف منهما، أصدقاء الدراسة بالمنصورة ... الزملاء من هيئة التدريس بالكلية... وحين بدآ في تذكر أسماء الزملاء، ذكرت ناهد؛ بتلقائية أو ذكاء موجه، اسم سوزان وزوجها، فأحس ارتياحاً أخفاه عن ناهد، لأن زواج سوزان يعفيه من أي ارتباط، ومضيا يستكملان القائمة، ثم حررا بطاقات الدعوة بناءً على الموعد الذي اتفق عليه بين العائلتين يوم أن قرئت الفاتحة في بيت ناهد، في الأسبوع التالي لخطبة سُمية... واتفقت الأطراف على أن يتم الزفاف في الليلة الأولى من أجازة نصف السنة في احتفال عائلي بسيط، وتمت الأمور كما خططا لها، واكتملت سعادة الحبيبين، وارتياح العائلتين.

مضت السنون سلسة يسيرة لم يحاولا عدها إلا مرة في كل عام حين يحتفلان بعيد زواجهما، تقدم مجدي في مجال العمل فأصبح أستاذاً مساعداً، ثم أستاذاً قبل أن يتلقى عرضاً من إحدى الجامعات العربية للتدريس فيها فاصطحب ناهد وولدهما وابنتهما، وسافرا حيث أقاما واتفقا على قضاء الأجازة في مصر عاما، وفي العامين التاليين، يدعوان والده ووالدتها ثم والدها ووالدته على التوالي لزيارتهما في العراق حتى قضى الله أن يتوفى والدها ثم والدتها، ثم والده في أربعة سنوات متتالية، فاستقدم والدته حيث عاشت معهما، وأصبحت زياراته لمصر متباعدة، وقصيرة.

مرت أعوام طويلة حتى أكمل ابنه ثم ابنته دراساتهما الجامعية، ثم سافرا معاً للدراسة في لندن على نفقته .. وبدأت ناهد تعاني من مشاكل صحية، استنزفت كثيراً من دخل الأسرة، واصطحبها مجدي مرتين لفحوصات وعلاج في لندن، واطمأن على مسيرة أبنائه في الدراسة حيث استكملاها خلال عامين متتالين، فارتبط سمير بعمل في إحدى منظمات الأمم المتحدة في جنيف، بينما عملت هدى مدرسة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

رأي مجدي تشتت الأسرة، ومع حالة ناهد الصحية التي أخذت في التدهور – رأي إنهاء تعاقده والعودة إلى القاهرة لتلتئم الأسرة باستثناء سمير الذي كانت ظروف عمله تسمح له بزيارة القاهرة أربعة مرات على الأقل في كل عام ... وساءت الحالة الصحية لناهد ... ثم ازدادت سوءًا، حتى قدر الله أن يتوفاها وهي بعد في السابعة والخمسين من عمرها...

مرت الشهور حزينة، وسادت الكآبة على البيت، ومضت الأيام متثاقلة حتى جاء مساء أحد أيام شهر يونيو الذي كان يحمل لمجدي ذكريات الشباب الجميلة؛ تفتح الحب الأول، وتحقيق التفوق في امتحانات المدرسة ثم الجامعة حيث عادت هدى من عملها، فألقت التحية لوالدها ثم سألته:

- عندك وقت أكلمك في موضوع يخصني يا بابا؟
- يا سلام؟ ولو ما عنديش، يبقى عندي. اتفضلي يا هدى.

جلست إلى المقعد المواجه للمكتب الذي كان يجلس خلفه، وقالت في اقتضاب:

- أنا حا اختصر عشان ماضيعش كتير من وقتك يا دكتور. أنا شايفاك قاعد تحضر لموضوع. أنا لي زميل أستاذ في الجامعة كلمني بخصوص رغبته في طلب إيدي، وأنا قلت له؛ أكلم بابا وأشوف ظروفه عشان يحدد ميعاد تيجي تتكلم معاه.

اعتلت ملامحه راحة وسعادة، لم ترتسم عليها منذ وفاة ناهد، وقام من جلسته فالتف حول المكتب حيث كانت تجلس، فوقفت، واحتضنها وقبل جبينها:

- وبتسأليني إن كان عندي وقت ولا لأ؟ دا أسعد خبر يا حبيبتي، وييجي في اليوم اللي يعجبه بعد الضهر. بس أنا يهمني تكوني عرفتي عنه وعن أخلاقه، وتعرفيني على عيلته علشان أسأل عنهم وأتأكد من الأصل الطيب.
- هو من عيلة بسيطة يا بابا. مش أغنيا، بس كمان مش فقرا ....
- أنا ما يهمنيش الغنا والفقر، أنا يهمني السمعة الطيبة، والعلاقات العائلية في أسرته هل هي متينة، ولا لا قدر الله متفككة، وعلى ذكر الغنا والفقر، أنا أتمنى انه يكون من أسرة متوسطة لأن الـ Extremes أو المبالغة والتطرف في واحد منهم بيسبب – في الغالب – درجة من درجات الإنحلال ... وإحنا يا بنتي من الطبقة المتوسطة بأخلاقياتها وبمبادئها...

- هو يا بابا إنسان على خلق، والجامعة كلها – من هيئة التدريس للعاملين، للطلبة – بيمدحوا فيه وبيتكلموا عنه في غاية الاحترام والتقدير، وحضرتك لما تشوفه حا تحس بالكلام ده من أول لحظة.

(صمتت لحظة ثم استأنفت) يعني أخليه ييجي بكره يقابلك يا بابا؟

- ياه؟ واضح إنكم انتو الاثنين مستعجلين، ومرتبين المسائل. طيب مش ترجعي له. يمكن بكره ما يناسبوش؟ ولا انتي حا تبقي مستبدة وتنفردي بالقرارات من أولها ؟!
- لا والله يا بابا. دا هو اللي كان بيسألني إذا كان وقتك يسمح في أقرب فرصة.
- ماشي يا حبيبتي. أنا في إنتظاره الساعة سبعة مساءً.

وكادت تخرج من حجرة المكتب حين استدرك الوالد قائلاً:

- يا هدى. هو حاييجي لوحده ولا حد جاي معاه؟
- حد زي مين يا بابا؟
- والده ووالدته إذا كانوا موجودين... عمه .. خاله ... ما اعرفش.
- لأ هو حا ييجي الأول يقدم لك نفسه، ويرد على أي سؤال لحضرتك، ويتفق معاك على الوقت اللي ييجي مع أسرته كشكل رسمي، لكن بتسأل ليه يا بابا؟
- مش أبقى عارف ضيوفنا قد إيه عشان أي واجب حا نعمله يكون مناسب؟ ياللا روحي بلغيه وردي عليّ عشان تأكدي الميعاد ...

حضر الخطيب المرشح، وكانت الجلسة طيبة، وأكثر من مطمئنة من الجانبين، ثم كانت جلسة أخرى في وجود عائلة الخطيب، وقرئت الفاتحة وتم الاتفاق على باقي التفاصيل التي لم يختلف طرف بشأن أي منها، وأخطر الدكتور مجدي ابنه الدكتور سمير عن موعد القران، فحضره وباركه. وتم الزفاف بحفل عائلي موسع في حديقة الفيلا المملوكة للدكتور مجدي، وكانت ليلة سعيدة أعادت له روحه المرحة، ومداعباته الرقيقة، حتى إذا انتهت الحفل، وصمتت الموسيقى وانصرف المشاركون والمهنئون، ورافقت العروس عريسها إلى مسكن الزوجية الذي اشترطت هدى أن يكون في نفس الحي وعلى مقربة من فيلا والدها ... وجاء سمير يسلم على والده ويحتضنه ... سأله الوالد:

- على فين يا سمير؟

- يا دوب يا بابا. ألحق الطيارة. أنا عندي اجتماعات بكرة ومالقيتش طيارة خط مباشر جنيف حجزت (Via) باريس وحا اقعد ساعتين ترانزيت في باريس يعني حا اوصل الفجر جنيف. سلم الأب، وتلفت حوله، فوجد نفسه وحيداً، فاتجه لغرفة نومه بعد أن أطفأ الأضواء واستبدل ملابسه، وأوى إلى فراشه، وعبثاً حاول أن يستدرج النوم إلى جفونه فأبى ولفظ كل الأساليب والمحايلات التي لجأ إليها مجدي، ونظر إلى ساعته فرأى أن الفجر كاد أن يؤذن له، فقام فتوضأ وحين رفع الآذان صلى ودعا الله بدعوة واحدة هي التي أصبح يطلبها: راحة البال، وسحب كتاباً من المكتبة، وعاد إلى فراشه ليقرأ منه بعض صفحات ثم استبدله بالمصحف حيث ظل يقرأ من آياته حتى أحس إرهاق عينيه وثقل جفونه، فوضع المصحف وأطفأ الأباجورة وغط في سبات عميق.

أفاق على طرقات على باب غرفة النوم فتوقع أنها بأصابع الطباخ الذي يحضر إلى الفيلا قبل الظهر حيث يعد له طعام الغذاء، كما يجهز العشاء ويودعه في الثلاجة، وينصرف عند آذان العصر .. وبالفعل فحين طلب من القارع الدخول، دخل الطباخ فألقى تحية الصباح وقال معتذراً:

- معلش يا دكتور. أنا شفت إن الضهر حايدن وجايز يكون عند حضرتك شغل ولا مواعيد وراحت عليك نومة من سهرة امبارح.
- شكراً يا رجب. أنا صحيح نمت وش الصبح. بس كدة كفاية نوم... يا ريت توضب لي الفطار على ما اغير هدومي..

وخلال تناوله الإفطار، حضر رجب ليبلغه أن سيدة تسأل عنه فسأله:

- ما قالتش إسمها ولا عايزة إيه؟
- لا يا بيه ماقالتش.
- طيب دخلها الصالون، وقدم لها حاجة تشربها على ماكَمِّل فطاري وأخرج لها.

بدأ يستكمل إفطاره بينما شغل فكره فيمن يمكن أن تكون هذه الزائرة، هل هي صديقة "للمرحومة" جاءت للتهنئة في الصباح التالي للزفاف حيث لم تدع إليه ولم تحضره بالتالي؟ هل هي صديقة لإبنته هدى سقط اسمها سهواً من المدعوين فجاءت باحتمال أن تكون إقامة صديقتها بعد الزواج في الفيلا؟ هل ... وهل .... ثم توقف فجأة عن التفكير متسائلاً

ومستنكراً: "هل أنا بحاجة إلى كل هذه التخمينات؟ ما عليَّ إلا أن أنتقل إلى الصالون وأرى من تكون هذه الزائرة"

توقف عن الأكل ... وقام فانتقل إلى الصالون مرحباً خلال دخوله إليه:

- أهلاً وسهلاً....

وقامت السيدة التي كان ظهرها لمدخل الصالون لترد التحية مستديرة لمواجهة القادم.

- أهلاً بيك يا دكتور.

ونظر إليها مجدي فخفق قلبه ودلته إليها روحه قبل أن تتعرف عيناه على ملامحها.

*****

نـاديــــــة

نعم هي – نادية، الحب الأول ... نادية صاحبة التصرفات المحيرة ... نادية التي تحايل على نسيانها فلجأ إلى كل الوسائل، كلها؛ تعمد تحقيق الفشل والرسوب لأول مرة حتى يكون إلى جوارها. ركز في التحصيل والتفوق حتى ينشغل عنها، وحتى يعوضه التفوق في الدراسة عن اخفاقه في الحب، عدَّد علاقاته، وأدخل قلبه عنوة في تجارب حب أو حتى صداقة علها تنسيه. تزوج وأخلص لزوجته وسعد معها حتى فارقته، واغترب ولده وتزوجت ابنته، وبقى وحيداً ... وفي أول ليلة لوحدته لم ينم، وتوقع أن تكون هذه وتيرة حياته في القادم من الأيام. نادية، لماذا لم تظهر واختفت لأكثر من ثلاثين سنة؟ ولماذا ظهرت الآن؟ وأين؟ في بيته؟ ولماذا جاءت؟ هل ترملت هي الأخرى؟ وكيف توصلت إلى عنوانه؟

عشرات الأسئلة مرت في شريط سريع بلا إجابة حتى لاحظ بداية القلق على وجهها لانعدام إبدائه لأي علامات تشي برد فعله إزاء زيارتها، فاسترد نفسه ورحب بها ترحيباً خاصاً وحاراً:

- أهلاً يا نادية. إزيك؟ وإزاي أحوالك وأخبارك؟ أي ريح طيبة؟ اتفضلي...

جلست، وجلس في مواجهتها... وصمتا لحظة توقع كل منهما من الآخر أن يبدأ بالكلام ثم رأت أنها هي التي فاجأته بالزيارة، وأن عليها هي التفسير، قالت وقد قدمت إليه جريدة اليوم:

- الجورنال ده أنا متعودة أقراه من مدة كبيرة. إنهاردة الصبح باقلب الصفحات وقعت عيني على خبر في صفحة المجتمع عن زفاف الدكتورة هدى مجدي الصيرفي للدكتور ... وأهم ما في الخبر إنه أشار لمكان الحفلة إنه في الفيلا بتاعتك وعنوانها ... وأنا من آخر مرة اتقابلنا فيها ما اعرفش أي خبر عنك لإننا عزلنا لشقة تانية في المنصورة، ووالدك ووالدتك عزلوا وجم مصر .... وانت سافرت، وانقطعت اخبارك وأنا ...

توقفت عن الحديث وسألته باستحياء:

- أنا حضوري يسبب لك إحراج مع المدام؟
- لا ... لا ما يسببش إحراج.. المدام توفت من أكتر من سنة.

- البقاء لله. كانت مريضة؟
- إنتي عارفاها يا نادية... ناهد زميلتي في الكلية وكانت صحتها كويسة، بس في السنتين اللي قبل الوفاة، الأمور اتطورت بسرعة، وحاولنا هنا وفي لندن، لكن قضاء الله سبق. الله يرحمها.
- أنا آسفة.
- لأ آسفة ليه إنتي ما تسببتيش في حاجة! إنتي أخبار جوزك إيه؟ وعندك أولاد ولا لأ. إحكي لي عن نفسك يا نادية.
- لا جوز، ولا أولاد يا مجدي... أنا ما تجوزتش من الأصل.
- معقول يا نادية ؟! إنتي ألف مين كان يتمناكي.
- بس أنا ما كنش ممكن أوافق على أي واحد من الألف دول.... بعد إنت ما بعدت وكل اللي عرفته عنك إنك خارج مصر، وحتى بعد ما رجعت ما سألتش عني...

وقاطعها مصححاً:

- لأ يا نادية .. أنا تاني يوم وصولي مصر، سافرت المنصورة، ورحت البيت، وقابلت حسن ابن الأستاذ مصيلحي وسألته. قال لي انكم عزلتم وما حدش يعرف في المنصورة ولا في بلد تانية، وسألته عن كريمة على أساس إنها هي اللي ممكن تعرف حاجة عنك، وللأسف قال لي إنها ماتت، وإن عيلتها كمان عزلت. وكنت محتاج كولومبو عشان يساعدني....
- المهم إن كان لي نصيب في نهاية العمر إني أشوفك.
- هي فين نهاية العمر دي يا نادية؟ إنتي ما شاء الله كبرتي خمس سنين عن أول مرة أشوفك.
- ربنا يخليك يا دكتور. مجاملة رقيقة وطول عمرك مجامل.
- أولا: إيه يا دكتور دي؟ إحنا مش في المدرج، وبعدين إنتى نادية. ثانياً: أنا ما با جاملش. أنا بأ أقول اللي أنا شايفه. المهم إنتي أخبارك إيه؟
- ملخص أخباري في العشرين سنة الأخيرة، إن بابا وماما وإبراهيم أخويا توفوا في الخمس سنين الأولانية منها وأنا اشتغلت في وظيفة مترجمة في شركة قطاع خاص، ومن خلالها

اتعرفت على مكتب ترجمة طلبوا مني أتعامل معاهم بالقطعة، وفعلاً استمريت معاهم لحد دلوقت واستقلت من الوظيفة، لأني لقيت الترجمة وأنا قاعدة في البيت أسهل، ودخلها أحسن. وإنت أخبارك إيه يا مجدي؟

- الحمد لله، أنا بعد الماجستير والدكتوراه في لندن؛ رجعت مصر واتعينت مدرس في الجامعة... واتجوزت ناهد وسافرنا لما جاني شغل في العراق قعدنا فيها أكتر من عشرين سنة، ورجعت أدرس في كلية الآداب تاني، وقدامي سنتين وأطلع معاش، وعندي سمير خبير في الأمم المتحدة وهدى مدرسة في الجامعة الأمريكية
- شفت بقى إن إحناكبرنا يا مجدي؟
- أنا كبرت. إنتي ناسية إنك أصغر مني ولا إيه؟
- يعني هما التلات سنين الفرق هما إللي حا يخلوك إنت كبرت، وأنا لأ؟

ونظر إلى ساعته فوجدها قد تجاوزت الثانية فحول الحديث فجأة:

- يا نهار أبيض إحنا بقينا ميعاد الغدا... ولا قدمت لك حاجة ولا خدت بالي. معلش.

ونادى على الطباخ حيث أمره بتقديم الغذاء، وحاولت نادية الاعتذار وأنه حان موعد انصرافها فصادر على حديثها:

- تمشي فين؟ لا ينفع تمشي قبل الغدا، ولا الولاد مستنيينك عشان تغديهم.
- معلش ما يصحش برضه أقعد أكتر من كده...

وقاطعها منهياً الحديث في هذه الجزئية:

- الموضوع مش مستاهل كلام. حانتغدى، وعايزة تروَّحي ماشي، بس لازم أوصلك أعرف عنوانك، ونتفق نشوف بعض إمتى وإزاي...

وحين انتهى الغداء، استبدل ملابسه، واصطحبها في سيارته، وسمحت المسافة الطويلة ما بين الدقي ومصر الجديدة بحوارات عديدة طوت سنوات الفراق، وعبرت حواجز الزمن، وعندما همت بالنزول من السيارة، كان التواعد على لقاء الغد شيئاً طبيعياً... وتكرر اللقاء في كل يوم تقريباً.

أرسل مجدي خطاباً لإبنه يبلغه فيه نيته للزواج، وتلقى رداً سريعاً يهنئه على ذلك القرار ويؤكد له أن هذا الزواج هو التصرف الوحيد الذي يطمئنهم على حياته، وأن وحدته بعد زواج هدى كانت محور حديث بينهما ومصدر قلق لهما...

وعندما زار هدى لتهنئتها في بيت الزوجية، فاتحها فيما قرره فكررت ما أبلغه به سمير وعانقته وقبلته ثم مازحته:

- بس يا ريت يا بابا، تقول لنا على عيلة سعيدة الحظ علشان نسأل عنهم.

وضحكوا وارتاح باله لعدم وجود منغصات في طريق التئام شمله مع نادية.

في اللقاء اليومي بينهما، تعمد مجدي تغيير المكان الذي اعتادا اللقاء فيه، واصطحب نادية إلى فندق شبرد؛ ذلك الفندن العتيق على شكل غليون على شاطئ النيل كأنه على وشك أن يُدشَّن ثم ينزلق إلى النيل الساحر... وفي قاعة "يوم ... وليلة" المطلة على النيل، جلسا يتسامران، ويجتران سعادة الذكريات حتى المؤلم منها... وأحست أنها بانتظار مفاجأة لم تتوصل إلى توقع طبيعتها، لكن مبالغته في التأنق هذه المرة، واستعراض شريط الذكريات بداية من حركة رفع الأثاث من الشارع إلى مسكنها الجديد، المجاور لشقته، إلى رؤيتها على السلم بالجيب الأزرق والقميص الأبيض والحقيبة المدرسية، مروراً بلقاءات الشرح، والخطاب الأول وقلقه القاتل انتظارا لتلقي الرد إلى كل صعود وكل هبوط في مستوى علاقتهما، وإلى كل ألوان الطيف التي صبغت تلك العلاقة، أعطتها الشعور بأنها مقدمات المفاجأة.

سكت فجأة، كأنما انقطع الإرسال لعطل فني في الإذاعة، ثم ألقى إليها بالعرض دون تمهيد:

- تتجوزيني يا نادية؟

ولم ترد على الفور فيما حسبه تردداً، أو رفضاً، فكرر عرضه بصوت يشوبه القلق وبعضاً من الغضب:

- تتجوزيني يا نادية؟

وسالت الدموع من عينيها بينما أجابت بصوت متحشرج:

- أتجوزك؟! إنت بتسألني عن أمنية حياتي اللي عشت عليها ثلاثين سنة يا مجدي؟ دا إنت لو ما عرضتش عليّ الجواز كنت حا أقولك: "ممكن تتجوزني يا مجدي عشان أعوضك

عن كل غلطة غلطتها في حقك، وأكفر عن كل ذنب وقعتني فيه الرعونة ووسوسة الشيطانة اللي كانت أقرب لي من إخواتي" يا الله، الله يرحمها ويسامحها" أرجوك يا مجدي نتمم الجواز بأسرع ما يمكن، لأني لو شاء ربنا إني أموت قبل ما أعيش تحت رجليك، وأوهب حياتي وطاقاتي في سبيل سعادتك يبقى حا أموت محرومة من الغفران....

نظر إليها مجدي صامتاً حتى أكملت، فصاح بينما صفق بكفيه كأنما يعلن رضاءه عن أداء مسرحي:

- برافو يا نادية ... لولا إني متأكد من صدق كل كلمة قلتيها، كنت حا أمدح الأداء الصادق المعبر لمشهد تراجيدي من مسرحية هاملت، أو الملك لير. إوعى تظلمي نفسك يا نادية. السن والظروف اللي حوالينا، وإرادة ربنا قبل كل شيء فرضت سيناريو محدد لحياتنا ما كناش نقدر نخرج عنه زي الممثل على المسرح، بيأدي دوره من غير ما يخرج عن النص. مش موليير بيقول: "ما الدنيا إلا مسرح كبير!" ... إحنا ممكن نبقى زي الممثل في نقطة واحدة؛ أنه كل ما يأدي الدور، يعاتب نفسه ويقول إنه كان ممكن يأديه أحسن ... ولو قعدنا كل واحد يجلد ذاته على اللي حصل منه، يبقى أنا حا اشاركك في جلد ذاتي علشان اتجوزت وعشت حياتي، في الوقت اللي إنتي قعدتي فيه مستنية المجهول، ولا يمكن تكوني بنيتي موقفك على حسابات دخَّلْتي فيها تصاريف القدر، وتوقعتي إني اتجوزت، وإن مراتي حاتموت... وإننا حا نتقابل بعد الدنيا ما تفضى عليَّ زي ما فضيت عليكي ... وإني حا اكون في موقف يسمح لي إني أعرض عليك الجواز. سيبك من المبالغة في التعامل مع مجريات الحياة على إنها خاضعة لحساباتنا وكل ألم نقاسي منه نحاسب نفسنا عليه ونسبب لها مزيد من الألم.

أنا كنت أحب إننا نروح لأقرب مأذون يقابلنا ونتجوز الليلة دي... لكن فضلت أأجل أسبوع علشان إبني سمير يكون في مصر وأحب أنه هو وأخته يحضروا القران، ونعمل حفلة صغيرة تجمع، أقرب الناس لينا؛ أهل أو أصدقاء ونعلن للدنيا إننا بعد كل العمر ده بقينا زوج، وزوجة.

****

ليلة العمر... والعمر

سألها مجدي بكل جدية:

- عايزة فستان فرح يا نادية؟

وتعجبت من سؤاله، رغم إحساسها بالامتنان لكل ذلك التقدير للمشاعر، وأجابته بحسم:

- طبعاً لأ يا مجدي .. بعد كل العمر ده، وفي السن دي، عايزني ألبس فستان فرح؟ إنت طلبي الوحيد....

وشدد عليها محاولاً إخراجها من حالة الحرج:

- والله إنتي أجمل عروسة، ومش عايزك تكرري حكاية السن تاني ... لازم فرحنا يكون فرح اسم ومعنى وحانقضي شهر عسر في أجمل أماكن في الدنيا. دا حقك، وحقي إننا نعوض السنين.

وانتهت المناقشة بجملة مقتضية لخصت فيها كل ما تراه جميلاً في هذا الشأن.

- نشتري فستان سواريه مناسب، وحفلة صغيرة في جنينة الفيلا. نسافر المنصورة يوم ولا اثنين وبعدين أي برنامج تشوفه إنت ...
- حا نسافر المنصورة. يبقى حا نقعد في فندق، لأن بيتنا وبيتكم ما بقوش موجودين.
- أيوه يا حبيبي، حا نروح الأماكن اللي جمعتنا، واللي عشنا فيها أجمل لحظات عمرنا... ونقرا الفاتحة لأمواتنا ... ولو عايز تشوف أصحابك بتوع زمان...

عاد الدكتور سمير في أجازة بمصر، واستكملت الإجراءات البسيطة استعداداً لحفل القران والزفاف، وحضرت الدكتورة هدى وزوجها، وعدد محدود من زملاء الدكتور مجدي، وصديقيه سعيد ومدحت، أما أهم الحضور فكانا؛ المأذون والدكتور صابر، الذي عانق مجدي، وهمس في أذنه:

- أنا دلوقت اتأكدت إنك لما بتحط حاجة في دماغك، لازم تعملها ولو بعد عشرات السنين.
- والله يا صابر، لا بإيدينا، ولا بإرادتنا. لكن ربنا لما بيريد بيقول للشيء كن فيكون.

- ونعم بالله يا مجدي، وإنت تستاهل كل خير، المهم إحنا مش حا نعرَّف مراتي بعيلتك، وتعرفنا على نادية.

بدت علامات الدهشة على وجه مجدي وتساءل ألم يعرف الدكتور صابر نادية؟ ثم تدارك؛ ومتى عرفها؟ ... لقد عرف عنها؛ كل شيء تقريباً، ولكنه لم يتعرف عليها، بل ولم يرها. سأل الدكتور صابر:

- فين المدام أُمَّال؟
- بره في العربية. أنا قلت أشوف الجو عائلي ولا عزبنجي، لأنك دعيتني بصيغة المفرد.
- أنا آسف جداً يا صابر. أنا لا كنت عارف إنت متجوز ولا لأ. السنين باعدت بيننا... وأخبارنا غابت مدة طويلة. أنا باعتذر يا صابر، وحا أخرج معاك أرحب بالمدام...
- خليك إنت مع ضيوفك وأنا حا أخرج لها أنا.

أصر مجدي، وحين لمحتهما زوجة الدكتور صابر، نزلت من السيارة وخطت في اتجاههما خطوة كانت هي كل المسافة المتبقية الفاصلة بينهم ... وقدمها الدكتور صابر لصديق عمره:

- جوزفين ... مراتي، وزميلتي في الشغل...

وهم مجدي يرحب بها بالإنجليزية في حين قاطعه صابر مصححا ...

- جوزفين قربت تتكلم عربي أحسن مني، صممت على دراسة اللغة، وصممت على ممارستها طول الوقت لغاية ما أجادتها تماماً.
- برافو ... وأهلاً وسهلا...

وردت تحيته بلغة عربية صحيحة، وإن كانت اللكنة فاضحة:

- مبروك جواز .. على فكره، صابر حكى لي كل الرواية من مدرسة ثانوي، لغاية النهاردة..
- صابر أخويا وعاش معايا القصة من أولها، بس أول مرة يشوف نادية النهاردة...

انضما إلى المتجمعين في الحديقة، وحضر المأذون فعقد العقد بشهادة صابر الصديق، وسمير الإبن، وعلى نغمات الموسيقى المسجلة، كانت التورتة والحلوى والعشاء

للحاضرين، الذين انصرفوا بعدها واحداً تلو الآخر، وتلقى مجدي قبلات هدى وزوجها، وسمير الذي عانقه، ثم سلم عليه بطريقة تعني الانصراف، فاستنكر مجدي منه ذلك:

- إنت رايح على فين؟
- رايح المطار يا بابا. مش أنا قلت لحضرتك إني حاجز للسفر بعد الحفلة مباشرة؟
- إنت حقيقي قلت لي بس أنا فهمت إن بعدها بيوم ولا اثنين. طب استنى بقى أنا حاجي أنا ونادية معاك نوصلك المطار.
- معقول يا بابا. هي مصر ما عادش فيها تاكسي ولا ليموزين... أنا فعلاً متفق مع تأكسي على وصول ...

وخلت الفيلا إلا من العروسين ... كان مجدي قد أثث غرفه له ولنادية، بعد أن أغلق الغرفة التي شاركته فيها ناهد. صعدا إليها، فتوضآ وصليا العشاء وركعتين شكراً لله.

ثم خرجا إلى الشرفة المطلة على الحديقة التي خفضت أضواؤها كثيراً، فجلسا على مقعدي فوتيه بينهما ترابيزة صغيرة عليها عشاؤهما الخاص، وعدة أنواع من العصائر، وترمس به شاي، وخلال تناول العشاء عاد كلاهما بالذاكرة كثيرا حين بدأ مجدي:

- منظر القمر اللي الشجر بيحجب جزء من نوره ده بيفكرك بحاجة يا نادية؟
- عمرك أطول من عمري يا مجدي. كنت لسة حا أسألك نفس السؤال. هو شباك المطبخ، وصينية القلل وعليها الغطيان النحاس، اللي شعاع القمر كان بيخليها تلمع، وصوت البسبسة (توقفت عن الاسترسال، وألقت عليه بسؤال) ... أقولك سر إنت لغاية دلوقتي ما تعرفوش؟
- ياريت.
- أنا كنت با تعمد ألبس قبقاب خشب، علشان تسمع صوته، وتتوقع إني جاية، وبعدين أتاخر شوية قبل ما ارجع وأجي أقف في الشباك.
- طيب وليه كده؟
- شقاوة بقى، ولا دلال عشان أزود شوقك. معلش يا مجدي....
- الاعتذار بعد تلاتين سنة يبقى عليه فوايد. ما تكفيش كلمة معلش.
- هما برضة تلاتين سنة يا مجدي؟

- ما تفرقش تلاتين من أربعين يا نادية.
- هما برضه أربعين؟
- يا سلام على الدقة. اثنين وأربعين سنة يا ستي.
- يا خبر أبيض اثنين وأربعين سنة، ومش حا اقولك إني فاكراها زي ماتكون إمبارح. لأ. دا أنا شايفاها دلوقتي قدامي، وبا اسمع كل كلمة قلناها، وشايفة شريط ما شي قدامي وأنا با أكلمك.

وسرح مجدي في نفس الصورة، وكأنهما عادا بالزمن إلى هذه اللحظة حتى قطع مجدي شريط الذكري:

- طيب ما اتفقناش على فوايد التأخير الكبير خالص في الاعتذار.

لم ترد نادية، وإنما قامت فالتفت حيث أتت من خلفه، ثم أصبحت بجانبه، ومالت عليه فقبلته قبلة حانية طويلة، وكأنما التصقت شفتيهما بحدة، فأثارت لديه ذكريات أول قبلة خاطفة، ظل بعدها يلعق شفتيه استعادة لذكراها أياما وشهوراً حتى كانت قبلة فراش مرضها... وهذه الثالثة تأتي من الاتجاه العكسي. قام من مقعده واحتضنها طويلاً.. طويلاً كأنما أراد أن يبقى على هذه الحال حتى نهاية العمر، ثم أخذ يقبلها بشوق السنين ولم يكن شوقها بأقل منه، لقد بادلته حرارة القبلة، وشوق العناق، وعناق الشوق...

مرت الأيام سريعة، وهكذا يمر عمر السعادة ... وكان لهما في كل موقف ذكرى، وعلى كل كلمة تعليق. خلت حياتهما من العتاب. لقد تعاهدا على أن ينسيا كل لحظة قاسية، وأن يعيشا كل ذكرى طيبة، كان يقول لها:

- حين تتلامس يدانا، نريد أن نتذكر أن ذلك كان حلما بعيد المنال، وحين تلتقي شفتانا علينا أن نشكر الله أن ذلك أصبح حقا متاحاً في كل حين، وكان أملاً يستلزم العمل على تحقيقه جهداً.

وكانت تغمض عيناها وتغوص في الماضي، تسعد بما رأته من لحظات الخير والسعادة فيه، ولا تندم على ما رأته خطئاً، وإنما تستبدل الندم بطاقة على التصميم على تعويضه، وعدم السماح بتكراره....

ومضت الأعـــــوام

****